

النفس الأنيق



عبد المحيد صبرة السحار

مطبعة خان مكتبة نزهة

القلب اللؤلؤ

عبد المحمّد خورده السّمار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدّق - الجمالّة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السّمار وشركاه

السماء ملبدة بغيوم قائمة تحجب الشمس عن الأرض المقرورة ، والرياح تهب مزججة باردة فتمايل في شدة أغصان الأشجار العارية الممتدة على جانبي الطريق الموصل بين كلية البوليس وشارع العباسية ، وخلا المكان من الناس فقد لاذوا بدورهم من البرد القارس الذى كان يجمد الدماء في أطرافهم ويسرى القشعريرة في أبدانهم .

وفي ذلك الجو العابس المكفهر انساب إلى الطريق الهادئ الساكن طلبة الكلية بقاماتهم المشوقة وهم في ثيابهم الرسمية فلطمت الرياح وجوههم وصك صفيها آذانهم فلم يقطبوا جباههم أو يبدوا تأقفا ، بل انطلقوا خفافا منبسطة أساريهم منشحة صدورهم ، فالיום يوم الخميس يوم تحقيق الأمانى ولقاء الأحبة .

ساروا وقد شغلوا عن ذلك الزمهرير بما يعتمل في صدورهم من إحساسات وبما يدور في رعوهم من أفكار ، تباينت أحلامهم واختلفت أهواؤهم ولكنهم اتفقوا في السبح في بحور الخيال ، فما كان أحدهم ينطلق خالى البال لا يفكر فيما يفعله في الليلة المحبوبة التى يقضها طليقا بعد أسبوع من العمل المضنى الشاق .

ووصلوا إلى محطة الترام فغصت بهم حتى إن فتيات المدارس اضطروا إلى الانسحاب إلى الطوار ، ثم أخذوا يتلفتون ناحية اليسار إرصادا لمقدم الترام . وينظرون خلفهم إلى الفتيات اللاتي كن يرتجفن من البرد القاسى الذى لم يرحم أجسامهن الدقيقة الغضة .

وكانوا كلما أقبل ترام قفز إليه فريق منهم وعيونهم ترنو إلى الفتيات وقد

توجت الابتسامات ثغورهم وترقرقت الحياة في محياهم فقد كسر شبابهم حدة الشتاء وراحت قلوبهم تنبض بالدم الفوار .

وجاء الترام رقم ٣ ، فصعد حسين واتجه إلى مقصورة الدرجة الأولى وقعد وراح يعيث بقبضة عصاه المكورة ، ثم ينظر من خلف زجاج النافذة ويشرد ببصره فلا يرى إلا ما يجري في ذهنه من رؤى وتصورات .

كان طويل القامة أبيض البشرة واسع العينين متناسق القسمات . وكانت سحته أقرب إلى سجن الأطفال على الرغم من الشارب الأصفر الذى نما غزيرا ، وكان يتلفت كثيرا ينظر إلى الطريق برهة ثم ينظر إلى الجالسين معه في المقصورة ، وسرعان ما يعود ليد بصره إلى الطريق ويشرد وما كان يغيب في شروده طويلا فما كان في حياته ما يجعله يغرق في التأمل والتفكير .

أحس جورعا بعضه فأخذ يفكر فيما أعدته له أمه من طعام ، فقد اعتادت أن تهيم له طعاما دسما لذيذا فتحلب ريقه ، وراح يفكر في السينما التى سيذهب إليها في الليل ليشاهد رواية من روايات المغامرة والشجاعة والإقدام . وقف الترام عند أول محطة في شارع فاروق ، فهبط وقطع الطريق في خطا واسعة ، ثم دلف إلى منزله وراح يصعد في الدرج قفزا حتى إذا بلغ الطبقة الثانية راح يطرق الباب في رفق ، وفتح الباب وما إن وقعت عيناه عليه حتى بسطت ذراعيها وقالت :

— أهلا .. أهلا ..

وضمته إلى صدرها ثم أخذت تنظر إليه في حنان وتقول في ابتهاج :
— الله يحفظك أنت وأمثالك من الشباب .

وجلس على مقعد في الردهة وأدار عينيه في المكان وقال :
— وأين بابا ؟

— دعاك عملك إلى الغداء وقد سبقك إلى هناك .
فنهض وقال :

— ولكنى أتلوى من الجوع .

— انتظر .

وغادرته واتجهت إلى حجرة المائدة ، ثم عادت وفي يدها قطعة من الفطير .
فلما رآها ابتسم وقال :

— ما هذا ؟

— تصبيرة .

وفتح فاه فدست له فيه قطعة الفطير ، فأخذ يلوكها وقد مد عنقه حتى لا يسقط الفتات على ثيابه ، ومسح شفثيه بلسانه وقال :

— لذيدة .

فتحركت أمه فقال لها :

— إلى أين ؟

— لأحضر لك قطعة أخرى .

فقال وهو سائر إلى الباب :

— لا .. لست مدعوا عندك .

وفتح الباب وخرج ، فأسرعت ووقف عند رأس السلم ترقبه وهو هابط .

وغاب عن عينها ، فانطلقت إلى النافذة المطلة على الطريق وراحت ترمقه حتى إذا أقبل الترام وصعد فيه قالت وقد سرى في صدرها رضا :

— في حفظ الله .

وبلغ حسين بيت عمه في الزمالك . كان بيتا فخما يتكون من طبقتين تحيط به حديقة منسقة بديعة ، في ناحية منها خميلة جميلة صفت تحتها أرائك من الخشب ، والقرب منها نافورة ينساب منها الماء فيسمع له خرير ترتاح إليه النفوس .

راح يصعد في الدرج الرخامي الفسيح والريج تعصف في شدة ،

والسحب تتكاثف ، وتتكاثف ، ثم دلف إلى قاعة فسيحة فألقى غرفة الاستقبال مفتوحة ، ورقت عيناه على أبيه فانبسطت أساريره وتقدم بقامته المشوقة حتى أشرف على الموجودين فقال :
— السلام عليكم .

فقال عمه في ترحيب :

— أهلا بالضابط الهمام .

واتجه إلى عمه وصافحه وصافح امرأة عمه وأباه ، ثم اتجه إلى حيث كانت علية ابنة عمه فحياها في رقة وجلس بالقرب منها ، وراح يشاركهم الحديث . كان عمه كمال بك في الخمسين . أنيق الملبس متورد الوجه موفور الصحة يبدو أصغر من سنة بكثير . وكانت زوجته سنية هائم في الخامسة والأربعين مكنتزة الجسم أميل إلى القصر ناصعة البياض في عينيها جمال ، وكانت تبدو أكبر من سنها حتى إن الكثيرين كانوا يحسبون كمال بك ابنها ، وكان ذلك يبلغ كمال بك فيتسم ولا يفتاحها في شيء من ذلك حتى لا يجرح كبرياءها . وكان أبوه — محمود أفندى — طويل القامة عريض الكتفين لا يهتم بهندامه . قد نما شعره الذي امتزج فيه البياض بالسواد من تحت طربوشه الداكن ، ومال رباط عنقه ناحية اليسار في إهمال ، وكانت ملامحه جامدة لا توحى بشيء .

أما علية فهي فتاة جذابة في السابعة عشرة ترتدى ثيابا أنيقة ، تجملت في بساطة تنم عن ذوق سليم . كانت زرقاء العينين دقيقة الأنف قرمزية الشفتين وردية الوجنتين يتموج شعرها كنهر يعكس صفرة الشمس ، ناهدة الصدر دقيقة الخصر لطيفة رقيقة تهفو إليها القلوب .

وأقبلت الخادم وقالت :

— تفضلوا .. أعد الغداء .

فنهضوا وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، ثم ذهبوا إلى غرفة المائدة وقعدوا

يتناولون الطعام ، ولاحظت عليه أن عمها يأكل في تراخ فقالت له :

— ما بال عمى لا يأكل اليوم ؟ لعل الطعام لا يعجبه !.

فنظر كمال بك إلى أخيه وقال :

— كبر عمك يا بنية .

فقال محمود أفندى فى فزع :

— ما مسنى الكبر ، لا زلت قويا أقوى من شاب .

فقال كمال بك :

— ولكنك تأكل أكل طفل .

— إننى آكل مثلك بل مثلكم جميعا .

وقالت عليه وهى تبتسم :

— لا . إنك لا تأكل يا عمى .

فتململ محمود أفندى ورنا إليها بطرف عينه وقال :

— هذه مؤامرة ، تريدان أن تشغلانى عن الطعام بحديثكما ولكنى

سأحبط مؤامرتكما ، سأكل دون أن ألفت إلى كلامكما .

وتناول قطعة من اللحم ودسها فى فمه وأخذ يلوكها ، وأشار بأصبعه إلى

حسين وإلى عليه وقال فى زراية :

— انظروا إلى شباب اليوم كيف يأكل ، إننى أذكر لما كنت فى سنكما

كنت ..

فقاطعه كمال بك قائلا :

— أى من نصف قرن مضى .

— إننى لا أكبرك بكثير . بخمس سنوات فقط .

فالتفت كمال بك إلى زوجه وقال :

— لا تصدقيه . إننى منذ كنت طفلا وأنا أراه على هذه الهيئة .

فتلفت محمود أفندى متبرما ثم قال :

— أين زوجتى الآن ؟

فقال كمال بك :

— لماذا ؟

— لتشهد لى .

وضحك الجميع ، وقالت عليه :

— وماذا كنت تفعل لما كنت فى يوم ما فى مثل سننا ؟

— كنت ألتهم كل ما تصل إليه يدى . أذكر أننى عدت إلى البيت يوما
وكنت أحس جوعا ، فذهبت إلى المطبخ فوجدت أوانى كثيرة ملئت
باللحم ، كانت أُمى قد أعدت وليمة لضيوف من أقاربنا فأخذت أكل ما أمامى
حتى أتيت على ما فى الأوانى جميعها .

فقالت سنية هائم :

— وماذا فعلت أملك ؟

— لا شيء ، دقت صدرها بيدها وبعثت فى شراء طعام من السوق .

وبرق البرق وزجرت السماء وانهمر المطر غزيرا ، فنظروا صوب النوافذ
لحظة . ثم غادروا حجرة المائدة وذهبوا إلى غرفة وثيرة فى ناحية منها معزف
هائل ، وقعدوا مسترخين وصوت المطر المتساقط على زجاج النوافذ يصلك
آذانهم ، ومد محمود أفندى بصره إلى الشباك القريب منه وقال فى أسف :

— حبسنا هنا والأمر لله .

فقال كمال بك :

— وماذا وراءك ؟

— أعمال جلييلة .

فابتسم كمال بك وقال وهو يهز يده ثم يسطها كأنما يلقي بالنرد :

— آه .

فغض محمود أفندى بصره ولم ينبس بكلمة ، وقالت عليه :

— امكنا معنا حتى المساء ثم نذهب جميعا إلى الأوبرا .

فقال محمود أفندى :

— وماذا نشاهد هناك ؟ .

— كارمن .

فقال محمود أفندى وقد لوى شفته السفلى :

— لا أحب التمثيل .

— تسمع موسيقى رائعة وأغاني مطربة .

— لن يطربنى صوت بعد سى عبده .

وضحكت عليه وسنية هانم وابتسم كال بك ، أما حسين فظل صامتا ،
وقالت عليه وهى تتجه إلى المعزف :

— سأسمعك قطعة من كارمن .

وقامت إلى المعزف وراحت تلعب عليه فى براعة فانبعثت أنغام قوية ثم
انساب صوتها عذبا حنونا ، واتسعت عينا محمود أفندى ورفت على شفته
ابتسامة هازئة . أما حسين فقد أطرق فما كان يدرى أنغنى بالإنجليزية أم
بالفرنسية ، وانتهت من قطعها فصفق كال بك وزوجته طربا وصفق محمود
أفندى وابنه مجاملة ثم قال محمود أفندى :

— وأين هذا مما سمعته وأنا غلام ؟ إن ما سمعته يومذاك لا زال يهزنى كلما
فكرت فيه . أذكر أن سى عبده كان يغنى فى حفل قريب من دارنا فذهبت
دون أن أستاذن والدى لأسمع قطعة من قطعة الخالدة ثم أعود إلى البيت ،
قعدت وبدأ سى عبده فى الغناء فاستولى على أفئدتنا ، ونسيت نفسى وبقيت
فى نشوة حتى انتهى الحفل . وخرجنا ونحن سكارى من الطرب وما بلغنا
الطريق حتى كان الفجر قد طلع ، فانتبهت إلى نفسى وأحسست رهبة ،
وسرت إلى البيت وأنا قلق وأخذت أصعد فى الدرج على أطراف أصابعى ،
وانبعث صوت من حذاء طار له قوادى فخلعت الحذاء وحملته تحت إبطى ،

وجعلت أسترقي الخطأ حتى بلغت فراشى فاستلقيت فيه وصرح خيالي يفكر في النغم السماوى الذى هز قوادى واستحوذ على لىبى .
— أهذا ما حدث ؟

فقال محمود أفندى وهو يرمق أخاه بنظرة شرر :
— أجل ، وهل حدث غير ذلك ؟

— بدلت فى النهاية تبديلا طفيفا ، جعلتها نهاية سعيدة .
فقالت عليه وهى تبتسم :

— إن ذوق عمى يتفق مع الذوق الأمريكى ، يميل إلى النهايات السعيدة .
فقال محمود أفندى فى حدة :
— ولكن هذا ما حدث .
فقال كمال بك .

— رويدك ! إن ما حدث عقب عودتك من الحفل كان يختلف عما رويت اختلافًا بسيطًا لا يقدم أو يؤخر فى الموضوع : تلقاك أنى وأنت تسير على أطراف أصابعك فصفعك وطرحك أرضا ، ثم رفع رجلك فى الهواء وأخذ يضربك بعصاه على قدميك وعلى .. وعلى موضع آخر لن أذكره .
وضحك الجميع ، وقال محمود أفندى متهلل الوجه :

— ومن أدراك بهذه الواقعة وأنت تدعى أنك ابن البارحة ؟
وصمت كمال بك قليلا كأنما أفحم ، ونظر إلى زوجه فألفاها تتطلع إليه فقال :

— سمعت ذلك من أمى .

فقال محمود أفندى وهو يضحك فى مرح :
— لا . بان المستور وكشف الغطاء .

وانقطع المطر فنهض محمود أفندى لينصرف ، وقام حسين فقالت له
عليه :



وقامت إلى المعزف .. وراحت تلعب عليه في براعة

— تعال معنا إلى الأوبرا .

— متشكر ، إني ذاهب إلى السينما .

فقال له مازحة :

— لتشاهد رواية بوليسية ؟

قالت في صفاء ، ولكنه أحس وخزة تمزج كبرياءه . خالها تسخر منه فصعد الدم إلى وجهه ونظر إليها وفي عينيه استياء ولم ينبس بكلمة ، ونادى كمال بك الخادم وقال له :

— السيارة حالا ، ومر السائق أن يوصل البكوات .

وخرج محمود أفندي وحسين وركبا السيارة وانطلقت بهما ، وما كان حسين يحس انشراحا بل كان يشعر بذلك الضيق الذي يحسه كلما استعمل سيارة عمه ، أو شيئا آخر مما يملكه .

ودخلت عليه غرفتها وفتحت صوانها وأخذت تتقي ثوبا فاخرا من أثواب السهرة ، وفيما هي تقلب ثيابها الرائعة الكثيرة دخلت ابنة خالتها إجلال في معطف ثمين من الفرو وحيثها .

كانت إجلال في العشرين من عمرها سمراء الوجه سوداء الشعر حلوة خفيفة ، وراحت تعبت في الصوان فألقت صندوق الجواهر ففتحته وأخذت تقلب الحلى النادرة وتبدي إعجابها ، ووجدت صندوقا صغيرا من المخمل الأحمر ، فتناولته وما إن فتحة حتى ضحكت في مرح وقالت :

— ما هذه « الخميسة » ؟

فقال عليه وقد أشرق وجهها بالبشر :

— شبكتي ، قدمها إليّ حسين في اليوم السابع من مولدى .

لف الليل الكون بغلalte السوداء ، وخفت الرجل في الطريق ، ولولا صوت الترام والمركبات لساد الهدوء العميق وإن كانت الساعة لم تتجاوز التاسعة إلا قليلا ، فقد كانت الرياح الباردة تهدر هدير الموج الثائر وتزأر زئير الليوث إذا ما كشرت عن أنيابها .

اندس حسين في فراشه بعد أن عاد من السينما وتدنثر بغطاء من الصوف وأغمض عينيه ، ولكنه لم يطوقه النوم بذراعيه فجعل يتقلب في الفراش ، ودب الدفء في جسمه فأحس شعورا لذيذا ، ونبتت في ذهنه بذور خواطر أخذت تنمو في الظلام وتترعرع حتى استولت على تفكيره .

راح يفكر في وليمة اليوم فلم يستشعر ما كان يسودها من جو مرح لطيف ولم يفعل له ، بل احتلت ذهنه صورة عليية وهي ترنو إليه وتقول مبتسمة : « تعال معنا إلى الأوبرا » ، فيقول لها : « متشكر إني ذاهب إلى السينما » . فتقول وقد لاحت أسنانها : « لتشاهد رواية بوليسية ! » فشعر بضيق وأخذ وهمه يصور له أنها تنظر إليه في استعلاء وأنها كانت تبتسم ساخرة ، فزاد ضيقه وأحس دما حارا يتدفق إلى رأسه .

ولج في تصورات فعاتت به ذكرياته إلى أيام طفولته ، رأى نفسه في بيت عمه وهو صغير وعليه تجذبه من يده وتقوده إلى غرقها ليشاهد ما اشتراه لها أبوها من دمي ، فلما دخلا الغرفة راحت تنظر إلى اللعب في سرور وقالت له :

— أعندك مثل هذه ؟

فقال وقد أطرق برأسه :

— لا ..

فمدت يدها وتناولت دمية وقدمتها إليه وهي تقول :

— خذ هذه .

أحس يومذاك رغبة في أن يأخذ الدمية فقد كان قلبه يشتهيها ، ولكن
كبرياءه زجرته فقال بلسانه في كبرياء مفتعلة :

— إنى لا ألعب بالدمى .

وانطبعت تلك الحادثة في نفسه وراحت تنمو على مر السنين وتشكل
وتتحول حتى استقرت على حال تقلقه وتضنيه ، أصبح كلما فكر فيها رأى
خياله الدمى مبعثرة في الحجرة وقد استعارت ملامحها من ملامحه !

ومرريده على وجهه في تبرم كأنما يحاول أن يمسخ ما في رأسه من رؤى ،
فاختفى المشهد كما تختفى المشاهد في السينما وحل مكانه مشهد آخر ، رأى
نفسه وعليه يلعبان في حديقة دارها ، أخذًا يجريان حول النافورة وضحكاتها
الريقة ترن متتابعة في مرح وصفاء ، ومدت يدها وملأتها بالماء ثم رشته به
وهي جذلى وراحت تعلقو فجري وراعاها في عزم أن يثأر لنفسه . سيضع
رأسها تحت النافورة حتى لا تعود إلى العبث به .

ولحق بها وقبض عليها وفي نفسه ثورة ، ورنّت إليه بعينها الزرقاوين واقتـر
ثغرها عن أسنانها النضيدة فألقى ثورته تتبخر وعزمه يقل ويديه تسترخيان ،
فما كان بقادر يوما على أن ينال منها ،

ومدت يدها إليه فوضع يده في يدها ، فقادته وهو يتبعها حتى بلغا الخميـلة
فقعدت وقعد وأخذت تنظر إليه وهو ينظر إليها ولم ينبس أحدهما بكلمة ،
ودنت منه ثم طوقته بذراعيها وقبلته قبله خاطفة ذهل لها .

كان ذلك من سنين يوم كانا طفلين ، ولكن ذكرى ذلك اليوم تثير كوامنه
فمشاعر الضيق والغيظ تتحرك في صدره ، إنه يتمنى في هذه اللحظة وهو

متدثر في فراشه لو أنه وضع رأسها تحت النافورة أو أنه صفعها ، أو لو أنه كان هو الذى ضمها إليه وقبلها تلك القبلة الحافظة .

إنه يحس وهو يذكر تلك الذكريات تضاؤلا ، وإن ذلك الشعور يستولى عليه كلما فكر فيها أو كان في حضرتها ، فبات يخشى أن يشترك معها في حديث طويل حتى لا يظهر عجزه أمامها .

وتقلب في فراشه ، ولف ذراعه حول رأسه ليخفى عينيه حتى لا يرى تلك الصور التى أخذت تطفو فوق ذهنه ، ولكن الصور لم تمح بل زادت وضوحا وتألقا ، رأى صوان ملابسها قد فتح على مصراعيه وقد تكدست فيه ثيابها الغالية النادرة ، ورأى في ناحية منه بذلته العسكرية بأزرارها الصفراء اللامعة فانقبض صدره وأحس أسى ، فما كان يقادر على أن يتصور نفسه عندها إلا بذلة نادرة في صوان ثيابها !

وترادفت تصوراته فرآها في قصر هائل من تلك القصور الخيالية التى شاهدها في الروايات الاستعراضية ، وقد جلست على عرش عظيم محمولة الشعر آسرة الطرف في غلالة شفافة وردية أبرزت فنتها ، وعند أقدامها جوارى رائعات الحسن ، ورأى نفسه في ثياب العبيد واقفا بياها ينتظر أوامرها .

وفي مثل لمح البصر ذهب ذلك المشهد من رأسه ولاح له مشهد آخر ، رآها وفي يدها سوط طويل وقد رفعت السوط في الهواء وهوت به على وجهه وجسده ، وهو يئن من الألم ويتلوى من العذاب .

ومس النوم جفنيه فراح في سبات ، وانقضى الليل بآلامه وأحلامه وطلع النهار ، فهض من رقاده صافى النفس منشرح الصدر منبسط الأسارير كأنما لم تقلقه قبل نومه رؤى قاسية :

وخرج يزور بعض أصدقائه ومعارفه ، وجعل يضرب في الطرقات متلفتا ليختزن من المشاهد ما يخفف عنه وطأة الأسبوع الطويل الذى يمضيه بين

جلد ران كليته .

وانصرم النهار ووافي ميعاد أوبته فارتدى ثيابه ومرر أصابعه على شاربه الأصفر ، ووضع عصاه الرفيعة تحت إبطه وذهب يودع أمه وأباه .

نظرت إليه أمه في حنان وقالت وقد رقص قلبها فرحا :

— ما شاء الله ، في رعاية الرحمن يا بني .

وقال محمود أفندى وهو يصفاحه :

— في حفظ الله ، مع السلامة .

وهبط حسين بقامته الطويلة وسار إلى محطة الترام في تودة وخيلاء ، وهرع محمود أفندى وزوجه إلى النافذة وطفقا يرمقانه وفي قلوبهما حب وفي عيونهما بريق ، وأقبل الترام فغاب حسين فيه فمدت أمه يراسها وغمغمت في رضا :

— ما أحلى ابني !

ونظرت إلى السماء وقالت في ابتهاج :

— اللهم احفظه من العيون .

وقال محمود أفندى وهو يتسم في رقة :

— إنه يردني إلى الشباب .

وراح يتبع الترام بيصره حتى إذا ما اختفى عن عيونهما غادرا النافذة ومحمود أفندى يقول :

— هيج ذكرى راي الحبيبة ، أتذكرين ليلة زفافنا ، الليلة التي رأيتك فيها أول

مرة ، كنت في مثل سن حسين ولكنني كنت أنضر منه ، أليس كذلك ؟

فابتسمت وقالت :

— كنت أنضر من الورد .. كانت أياما .

— ولا زالت الأيام ، هل أنا ذبلت ؟!

— لم أقل ذلك ولكنها كانت أيام الذكريات .

ورنا إليها وقال :

— إنهم ما كادوا يغلّقون علينا الباب حتى حملتك بين ذراعى وجعلت أطوف بك الحجرات حجرة حجرة ، وألثمك هنا وهناك .

وزم شفّتيه ودنا منها يقبلها فدفّعته برفق فى صدره وقالت فى دلال :

— اعقل يا راجل .

فغادرها وذهب إلى النافذة يغلقها فى إحكام .

كان الظلام جاثماً على الأرض لم تقو بعد طلّاع النّهار على زحزحته ،
والندى يبلل ألواح الزجاج وأوراق الشجر وكل ما يعرض له وجهه ، وكان
طلبة كلية البوليس في فراشهم الدافئ ينعمون بلذّيز النّوم ، فالهدوء شامل
عميق يلف الكون لا يعكره إلا أنفاس تتردد .

وانبعث من البورى صوت قوى هتك غلالة الصمت وداعب آذان النّوم
كحلم من الأحلام ، وظل الصوت يتجاوب في أرجاء الكلية فانتبهوا إلى
أنفسهم وهبوا من فراشهم يتأهبون في عماية الصبح وفي الجو القارس
لاستقبال النّهار الجديد .

واصطفوا صفوفاً وتفرقوا فرقا ، وخرج فريق يعدو في ملابسه القصيرة
البضاء في الطرقات القريبة من الكلية ، وذهب فريق إلى قاعات الألعاب
الرياضية ، وانطلق فريق إلى الفناء الخلفى الفسيح ليقوم بالتدريب على
الفروسية .

كان حسين ممن ذهبوا لاعتلاء صهوة الجياد للتدريب على استعمال الرمح
واجتياز الحواجز والقيام باستعراضات الفرسان ، فقد كان ذلك في برنامج
السنة النهائية ، وظلت ملاعب الكلية تموج بالطلبة موجاً والحركة الدائبة
العنيفة تدب في أوصالها حتى وافى ميعاد الغداء ، فسرت في قاعة الطعام الحياة
وعاد الهدوء يسيطر على الأماكن الأخرى .

وانصرم النّهار بتدريباته ومحاضراته ، ووفد الليل وحنّت الأجسام للراحة
فدخل الطلبة للنّوم ، واندس حسين في فراشه وتدفّر من البرد ، ولكنه سمع

زميلا يقص على آخر مغامرة من مغامراته ليلة الجمعة فأرهف السمع، وراح يقول:
— واعدتني على اللقاء في (جرونى) في الساعة السابعة مساء . فذهبت
إلى هناك قبل الموعد بقليل واخترت نضدا قريبا من الباب ، وقعدت أجيل
عيني في المكان الذى غص بالرجال والنساء وانعقد في سمائه دخان اللفائف
وسرى فيه دفء من الأنفاس ، وجعلت أتلفت وأرصد كل قادمة حتى لمحتها
مقبلة في ثوب أزرق جميل وفوق كتفها فرو ثعلب ثمين فنهضت لاستقبالها ،
وما أن لمحتني حتى ابتسمت وتقدمت إليّ وصافحتني . ثم جلست .
إنها شابة لم تبلغ الثلاثين جميلة جذابة ، أروع ما فيها عيناها اللتان تشعان
بريقا ينهر القلوب وشفاتها الممتلئتان أبدا ، فجعلت أنظر إليها وأنا نشوان ،
وأقبل النادل فقالت دون أن تسألني :
— قدحين من الشاي .

ورحنا تتجاذب أطراف الحديث والسعادة تغمرني ، فما كنت أطمع في
أن أنال منها أكثر من ذلك الحديث الشهى ، ولكنها أشارت إلى النادل فلما
أقبل أخرجت من حافظتها ورقة مالية ودفعت الحساب ، ثم نهضت فنهضت
خلفها وخرجنا حتى بلغنا سيارة فاخرة ، ففتحتها وركبت ونظرت إليّ
تدعوني إلى الركوب ، فركبت وأنا مذهول . وسرى في صدرى خوف
ولكن سرعان ما أقلع خوفى وغمرتني نشوة .

وانطلقت السيارة بنا إلى مصر الجديدة ، وأمام بيت منعزل صغير يطل على
الصحراء وقفت وهبطنا منها ورحنا نتقدم في الظلام ، فعاد إليّ قلقى .
وضغطت على زر كهربي فتألق مصباح أضاء لنا الطريق ولكنه لم يبدد
الظلام الذى ران على كهف صدرى .

ودخلنا غرفة فاخرة أسدلت على شبائيكها ستائر من الحرير المخمل
وفرشت أرضها بطنفسة تسوخ القدم فيها ، وورست فيها مقاعد وثيرة
كسيت بسندس أخضر ، وفي ناحية منها قبع معزف رائع صفت فوقه تحف

غالية .

وتركتني وحدى ، فرحت أقلب وجهي في المكان وقد نزلت الرهبة
يصدرى وارتمع نبضى ، فما سبق لى أن شاهدت مثل هذه الروعة وعلى قيد
أنملة منى امرأة فاتنة .

وعادت فى غلالة رقيقة تفضح جمالها فزادت رهيتى ، وكأنما فطنت إلى ما
اعترائى فلدت منى وداعبتنى فى رقة وهدأت من ثائرتى فأفرخ بعض روعى ،
وغادرتنى ثانية وعادت وفى يدها « بيجاما » دفعتها إلى ، ثم قادتنى إلى غرفة
أخرى لأبدل ملابسى .

عدت إلى غرفة الاستقبال وأنا فى البيجاما ولكنى لم أجدها ، فقعدت
مسترخيا فى مقعد واسع وقد أرهفت حواسى ، ومرت لحظات وأقبلت تحمل
صينية وضعتها أمامى ، وقعدت فى نفس مقعدى فالتصق كنفها بكفى .

كان فوق الصينية صحفة بها شرائح من اللحم البارد وأصابع من البطاطس
وكأسان وزجاجة ، ومدت يدها وملأت الكأسين ، وأخذنا فى الأكل
والشراب وراحت تميل علىّ تقبلنى . وما انتهينا من الشراب حتى قامت إلى
المعزف وراحت تغنى قطعة بالإنجليزية خيل إلى أنى سمعتها فى السينما .

ودب الدفء فى أوصالى ولعبت الخمر برأسى ، فنهضت إليها وضممتها إلى
صدرى وغمرتها بقبلاقي ، وانقضت الليلة وأنا غارق فى النشوة ، ثم رحلت
فى سبات .

فتحت عيني فإذا الشمس تغمر المكان ، وتلفت حولى فألفيت نفسى
مليدا فى سرير فاخر أسدلت عليه ستائر من الحرير الوردى وقد غطيت
بلحاف من الأطلس الوردى ، ووضعت على مقربة من السرير مرآة هائلة
صفت عندها قوارير من الروائح النادرة ، فنهضت وغادرت القرائش وتركت
غرفة النوم فألفيتها فى الردهة بقوامها المشقوق ، وما إن وقعت عيناها علىّ
حتى أشرق وجهها بابتسامة لطيفة ، ثم أقبلت إلىّ وراح ثغرها يبحث عن

ثغرى .

وذهبنا إلى غرفة السفرة وأخذنا نتناول فطورا لذيذا لا أدرى كيف جهزته ، ثم ارتديت ثيابى وودعتها وخرجت . وما أن انطلقت في الطريق خطوات حتى مددت يدي في جيبى أخرج علبة السحائر فوجدت ورقة مالية .

فقال له زميله في لهفة :

— كم منحتك ؟

فقال له وهو يتنسم :

— هذا سر المهنة .

ونام الجميع إلا حسينا فلم تغمض له عين ، هيج ذلك الحديث شجونه ونشط خياله فجعل يجلب له من المشاهد ما يؤرقه ، وكان يحس تعباً يسرى في بدنه ، ولكن الرؤى التي احتلت رأسه كانت تعذبه فيطير النوم من عينيه . رأى نفسه وعلية وحيدين في بيت واحد وإذا بعلية تضمه إلى صدرها وتقبله ، ثم تذهب إلى المعزف وتعزف لحنا ثم تعود إليه وتقبله ، وهو ساكن كطفل يتلقى اللثام دون أن يجد في نفسه صدى لتلك القبلات . وراها تقوده من يده إلى غرفة النوم وهو يتبعها مسلوب الإرادة ، ثم تضجعه في الفراش وتميل عليه فأحس كأن شيئاً يكم أنفاسه ، فتقلب في ضيق وأغمض عينيه وهز رأسه ليطرد تلك الصور التي أرهقته ، ولكن فكره لم يرحمه وطفق يمدد بمشاهد تزيد في خوفه .

إنه ليرى نفسه في الصباح وقد تأهب للخروج وهي تقبل عليه تقبله ، ويرى نفسه وهو يهبط في الدرج ، ويمد يده في جيبه فيجد نقوداً وضعتها له لينفق منها على البيت فما كان مرتبه يكفى حاجاته ، فأحس كأن جمره من النار لسعت روحه ، وكأن لطومات حادة هوت على خديه فأطارت صوابه . واختلطت ذكرياته بمشاهد القصة التي كان يرويها زميله وامتزجت

فجرت في مسرح خياله رؤى تنكأ جرح نفسه وتجعله يحس تضاؤلا ،
وأرهفت مشاعره واتسعت عينا خياله فرأى نفسه طفلا لا حول له ولا سلطان
أمام مارد جبار .

ومر الوقت وثبدا وهو يتململ في سريره ، فأوهامه كانت تجد من نفسه
مرتعا خصيبا تنمو فيه وتترعرع ، وتمد جذورها وتتمكن حتى يصبح
اقتلاعها أشق من انتزاع روحه من بين جنبيه .

وفي عصر يوم الخميس غادر منزله وانطلق لزيارة خالته قبل الذهاب إلى السينما ، فقد اعتاد ذلك منذ التحاقه بالكلية . كانت خالته أرملة مات زوجها من سنتين ولم ترزق ولدا فعاشت وحيدة ، كان يسرها زيارته فتقبل عليه وتغمره بعواطفها المذخورة .

عاشت بعد زوجها منزوية في بيت الأحران لا تزور ولا تزار ، فذافت مرارة الوحدة وأحست وطأة الحياة وأذلها الحرمان . كانت تمضي ساعات يومها وهي جالسة على أريكة وقد حملت رأسها بكفها تندرف الدمع على بختها الذي مال .

وضاقت يأسها فعزمت على أن تفر إلى الدنيا الرحبية من حياتها الضيقة البغيضة التي بنيت من الدمع والأشجان . فما أن وجدت أحد محارمها ذاهبا إلى الحج حتى شدت الرحال معه إلى الحجاز .

وأفادت الرحلة فعادت وقد انقشع حزنها واندمل جرح قلبها وصفت نفسها ، فراحت تزور جيرانها وتدعوهم لزيارتها حتى أصبح بيتها ندوة لنساء الحي وفتياته ، فما يمر يوم دون أن تقبل ضيف جديدة في رفقة صديقة من الصديقات .

ووقف أمام بابها وطرقه في رفق ففتحت له خادم صغيرة قادتة إلى غرفة متواضعة بها أريكتان وبعض كراسي ونضد مستدير وصينية قفل ، وزينت حيطانها ببعض آيات قرآنية .

قعد في مقعد قريب من النافذة الوحيدة في الحجرة وأصوات النسوة تبلغ

مسامعه وهن آخذات بأطراف الحديث ، وأقبلت خالته في ثيابها البيضاء فلما
رأته افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ، وقالت منبسطة الأسارير :

— أهلا .. أهلا . تفضل .

— كيف حالك ؟

— الحمد لله ، كيف حالك أنت وكيف حال ماما ؟

— بخير ، كانت تريد أن تأتي معي ولكنها خشيت من صعود السلم؟

— قل لماما إنني غصبي .

— لماذا ؟

— سألتها أن تأتوا يوم الخميس الفائت لتغدي معا فاعتلرت بأنها

مريضة ، ثم علمت أنكم تغديتم عند عمك .

— لم تذهب معنا .

— إذا كانت لا تستطيع أن تأتي ، فلماذا لا تحضر أنت ؟!

— سأحضر .

— سأنتظر يوم الخميس القادم .

فصمت قليلا وقال :

— إني مدعو على الغداء في ذلك اليوم .

— سأنتظرك في العشاء .

وأراد أن يعتذر فهذه الدعوة ستضيع عليه سهرة السيما ، ولكنه أحجم

خشية أن يغضبها وقال في صوت خافت :

— سأحضر .

ودخلت الخادم تحمل صينية عليها برتقال ووضعها أمامه ، فتناول برتقالة

وراح يأكلها ، ثم مديده إلى المنشفة يحفف أصابعه . .

ورأى أن ينصرف حتى تعود خالته إلى النسوة اللاتي ينتظرنها فقسام

واستأذن ، فقالت له وهي تودعه :

— سأنتظرك يوم الخميس .

— إن شاء الله .

وذهب إلى السينما وأمضى سهرته ، ثم عاد إلى الدار فألقى أباه جالسا في البهو فحياه ، ودخل يخلع ثيابه فبلغه صوت أبيه وهو يقول له :

— كلمنى عمك اليوم ودعانا لنذهب معهم غدا صباحا إلى جزيرة الشاى .

لم ينبس بكلمة ولكن زحفت إلى رأسه أفكار ، وراح يفكر في عليه فراها تتدفق في الحديث في ثقة وطلاقة وهو يصغى إليها صامتا لا ينطق بشيء ، إنها جزيرة المعارف واسعة الاطلاع قرأت كثيرا من كتب الأدب الإنجليزى والفرنسى وهو لم يقرأ إلا الروايات الإنجليزية التى كانت مقررة عليه في دراسته الثانوية . وضايقه أن يبدو أمامها هزيعا فأخذ يفكر في موضوع تجهله ليحدثها عنه ، فرأى أن يحدثها عن بعض ما تعلمه في الكلية فما يحسبها تعرف شيئا عن هذه الحياة الخشنة القاسية .

وتنفس الصبح وجاءت سيارة كمال بك ، فهبط محمود وحسين وانطلقت بهما إلى الزمالك ، وأمام البيت وقفت تنتظر هبوط الداعين . وجاءت عليه مشرقة الوجه .. كانت في رداء من الصوف من قطعتين . وكان صدرها الناهد يترجرج في رعونة وشعرها الذهبى ينوس خلفها فاتنا ، وأطلت من نافذة السيارة وحيّت عمها وابن عمها وقد انعكست على وجهها حقيقة شعورها . كان قلبها يرقص كلما وقعت عيناها على حسين .

وأقبل كمال بك متورد الوجه منتصب القامة يسير في رشاقة ودخل في السيارة فانطلقت بهم إلى حديقة الحيوان .

كان الجو صحو والسماء زرقاء صافية والشمس ترسل أشعتها فيسرى الدفء في الأجسام التى أضناها البرد . ووصلوا إلى حديقة الحيوان فهبطوا من السيارة وتقدموا نحو الباب . وتمنى حسين من كل قلبه أن يدفع أبوه رسم

الدخول ولكن كمال بك مد يده ودفعه ، فأحس حسين شيئا من الضيق على الرغم من أن المبلغ تافه لا يذكر .

وانسابوا في الحديقة فسار حسين وعليه جنبا إلى جنب ، وعليه تلتفت في مرح وترنوا إلى حسين بعينيهما الصافيتين الزرقاوين وقد شع منهما حب ، فكان حسين ينظر إليهما فيحسب أنه ينظر في بحر عميق ليس له قرار .

وبلغوا جزيرة الشاي فجلسوا في الشمس ينعمون بالدفع ، ويمتعون الطرف بمراقبة البط والأوز وهي تسبح فرحة في الماء جماعات في شكول متباعدة كأنما تقوم بعرض .. والتفتت عليه إلى عمها وقالت :

— أتذكر يا عمي أول مرة جئت فيها إلى هنا ؟

فشرده محمود أفندى يبصره قليلا ثم قال في صوت خافت :

— أذكرها كحلم من الأحلام ، كنت غلاما وسألت أبى أن أذهب في يوم

العيد إلى حديقة الحيوان فبعثنى في عربة مع خادم من الأتباع ، أوه كان ذلك من أربعين سنة ، وإلى لأذكر أن أمى استقبلتنى عند عودتى بالضم واللثم كأنما كنت في سفر طويل .

فقال كمال بك وهو ينظر إلى أخيه في عتاب :

— قل الحقيقة مرة ولو كانت مرة .

— وما الحقيقة ؟

— الحقيقة هي أنك كنت حاضرا لما افتتح إسماعيل باشا هذه الحديقة .

فقال محمود أفندى وهو يتسم :

— آه .. يوم كنت معى نشاهد الاحتفال .

وجعلوا يتسامرون ، ثم قالت عليه لحسين وهي تنهض :

— تعال نتمش قليلا في الشمس .

فقام حسين وقد عزم على أن يخرج من قوقعة نفسه وأن يتحدث حديث الكلية الذى نمقه في الليل ، وسارا رشيقيين كأنما خلق كل منهما ليكمل

الآخر ، وكال ومحمود يتطلعان إليهما وفي قلوبهما حب وزهو وإعجاب .
راحا يخطران في مسالك الحديقة ، ورأى حسين جوادا فانبسطت
أساريره فقد وجد فيه مفتاح الحديث الذي كان يحاول أن يفتح بابه ، فنظر إليه
وقال :

— ما أوفى الجياد !

وصمت قليلا ثم قال :

— اعتدت في هذه السنة عند القيام بتدريبات الفروسية أن أركب جوادا
بعينه ، وكنت في أوقات الفراغ أذهب إليه وأربت عليه فتوطدت بيننا
صداقة ، وفي يوم من الأيام جاء طالب آخر ليتمطيه فهاج وجعل يرفس كل من
يدنو منه ، وظل في هياجه حتى جئت ومسحت على عنقه ورأسه فهدأت
ثأثرته وجعل يحك رأسه في وجهي .

فقالت عليه وقد وضعت يدها في يده :

— قرأت أن جوادا مات صاحبه فأضرب عن الطعام والشراب حتى
نفق .

وحاول أن يتكلم ولكنه لم يجد ما يقوله ، عاد إليه عيه لما وجد أن ما عرفه
بالتجربة عرفته في الكتب ، يا ليتها لم تعلق على ما قال . فمن يدرى فلربما
انطلق في الحديث حتى شفى من ذلك الوهم الذي سيطر عليه واستولى على
مشاعره وحواسه .

وسارا صامتين ، كانت عليه مفعمة بالنشوة وكان يقاسى من تلك
الإحساسات التي انتشرت في جوفه فجعلته ينكمش ويشعر بانكسار ، ولحمت
عليه بائع شيكولاته فهرعت إليه واشترت منه قطعتين ، ثم عادت إليه خفيفة
مرحة ودفعت إليه بقطعة فأخذها منها وراح يأكلها وهو ساهم ، وأريد وجهه
وبأن فيه الضيق فقد قفزت إلى رأسه مشاهد القصة التي كان يرويها زميله ، ورأى
نفسه بعين خياله يمد يده في جيبه ليجد أن عليه قد دست له فيه بعض النقود .

وقفا فى النافذة يتسامران ويقطعان الوقت بمراقبة الغادين والرائحين. ولمح محمود أفندى شابا وشابة يسيران وقد التصق كتفاهما واقترب رأساهما فراح يتبعهما بيصره ، ثم التفت إلى زوجه وقال :

— ما أحلى الشباب !

فقال زوجه وهى تبتسم ابتسامة متكلفة :

— الشباب الدائم كشبابنا .

وأحس فى قولها شيئا من الاستخفاف فقال :

— أتسخرين ! أجل لا زلنا شبابا ، الشباب هنا .

وأشار بإصبعه إلى قلبه فقالت :

— إذا كان هنا فلن تشيخ أبدا .

— لا زال الدم يتدفق من قلبي حارا كما كان يتدفق وأنا ابن العشرين .

— هددت حلى وحطمتنى حتى صيرتنى عجوزا ، ذبلت وضعفت حتى

باتت قدمى على حافة القبر ، إذا مت يا محمود .

فقال فى ضيق :

— أوه .. سنعود إلى ذلك الحديث البغيض ، والله تموتن بعدى ،

اطمئنى ما دمت صحيحا معافى أغلوا وأروح .

— أشعر بضغفى يا محمود.. إننى أعلم أنى سأموت .

— وما من شك أنك ستموتين بعدى ، مات جدى قبل جدتى ومات أبى

قبل أمى ومات عمى قبل امرأة عمى ومات خالى قبل امرأة خالى ، هذه تقاليد

الأسرة وما كنت أحميد عن تقاليدها .

ودنا إليها فألفاها لم تبتسم ، بل شردت يبصرها وغم وجهها بسحائب خفيفة من الأسى ، فرأى أن يغير مجرى ذلك الحديث الذى يعكر صفوها فقال لها :

— لم يبق على تخرج حسين إلا أربعة أشهر ولا بد أن يتزوج ليلة تخرجه .
— إى والله لا بد أن نعجل بزواجه ، فإنى أريد أن أفرح به قبل أن أموت .
— أوه — ما أبغض أن يذكر الموت فى ساعات الصفاء ، إننا نتكلم عن زواج حسين ، ولا بد أن يتزوج عقب تخرجه فقد يعين فى بلدة بعيدة من البلاد فيجد الزوجة التى تخدمه .

— وماذا ينقصنا لإتمام زواجه ، هو موجود والعروس موجودة .

— نفاتح كمال بك فى الموضوع ليستعد فى الأشهر الباقية .

— كلمة إذا قابلته .

— أرى أن يحمل حسين إلى عليّة هدية ويكلم عمه فى هذا الموضوع .

— سأشير عليه بذلك عندما يأتى غدا .

وسمع صوت وقوف سيارة فجأة ، وارتطام جسم بالأرض ، فالتفتا إلى مبعث الصوت فوجدا الناس يهرعون إلى مكان الحادث ، ففجئت الزوجة وغادرت النافذة شاحبة اللون ، وتبعها محمود وقال لها :

— لماذا هربت ؟

— لا أطيق رؤية إنسان جريح ، وما أبشع الدم المسفوك .

فقال فى استخفاف :

— ما أخف قلبك ، ترتجفين من شبح حادثة ! أذكر لما كنت شابا ، كنت فى القرية يوما وإذا بدمدمة رصاص تصك أذنّى ، فخرجت مهرولا لأرى ما هناك فوجدت رجلا مجذلا يخط فى دمه ، فحملته والدم يتزف منه يلوث ثيابى حتى بلغت داره ، فإذا به بين يدى جثة ..

فأشاحت بوجهها عنه وقالت في اشمزاز :

— كفى بالله كفى .

— يا للقلوب الرقيقة !

ومر الوقت وجاء المساء فقامت تذبح أوزة لتقدمها في الغداء لابنها ،
ونادت الخادم الصغيرة وأمرتها أن تمسك رقبتها ، ولكن الفتاة ارتجفت فقالت
لها :

— اذهبي ونادى سيدك .

فجاء محمود أفندى وقال :

— ماذا ؟

— أمسك رقبة الوزه .

فتناول رقبتها وضغط بإصبعه على منقارها ، ولما رأى السكين ارتجفت يده
فقالت زوجه :

— ثبت يدك واجذب رقبتها .

فقال في استكبار وقد زادت يده ارتعاشا :

— يدى ثابتة .

— أمسك منقارها جيدا .

— أوه ! اذبحي وإلا تركتها لك .

وراحت الزوجة تذبح الوزه ، وما ترشرش دمها حتى أشاح الرجل الذى
حمل قتيلا بين ذراعيه ودمه يسيل على ثيابه بوجهه في استياء حتى لا يرى دم
الوزه المسفوك !

* * *

فرغوا من الغداء ولم يبق على الخوان إلا عظام الوزه ، فنهضوا إلى غرفة
أخرى وقعدوا يتحدثون ويشربون القهوة . ثم قام محمود ودخل غرفته لينام
تاركا حسينا وأمه ليتناجيا في أمر الزواج .

التفتت الأم إلى ابنها وقالت في حنان :

— نريد يا حسين أن نفرح بك قريباً .

فقال دون اهتمام :

— إن شاء الله .

— ويريد أبوك أن يتم الزواج ليلة تخرجك ، فهو يخشى أن تعين في بلدة بعيدة فلا تجد من يخدمك .

— لا زالت أمامي شهور .

— إنها مدة قليلة لا بد للعروس أن تتجهز فيها ، اذهب اليوم مع أهلك واشتر هدية لعلية وقدمها إليها . وحدد مع عمك ليلة الزفاف .

فأطرق حسين وبان في وجهه الهم ولم ينبس بكلمة ، وأحست الأم بغريزتها أن هناك شيئاً فقالت باهتمام :

— ماذا بك يا بني ؟ .

— أمر هذه الخطبة يقلقني .

— لماذا يا حسين ؟ .

— كلما فكرت فيها وجدت أننا نعمل جميعاً على تعسّ علية .

فاتسعت عينا الأم وقالت في استنكار :

— لا أفهم ما تقول ؟ .

— إننا نشدها إلينا ، نجذبها إلى القاع ، ننقلها من القصر إلى الكوخ .

فقالت في حيرة :

— أى قصر وأى كوخ ؟

— قد أعين في مركز من المراكز وأسكن بيتاً مبنياً باللبن والطين ، أحيا

حياة الفلاحين ، فكيف أنقل علية من دارها بالزمالك إلى مثل ذلك البيت الحقير ! .

— الزوجة تعيش مع زوجها حيث يعيش .

— إننى لا أستطيع أن أتصور عليّة في بيت ينقل إليه الماء في بلايص ويحفظ في أزيار وتغسل للملابس في صحن الدار في طسوت ، في بيت ترح فيه الفئران والصراصير وينزل فيه الذباب والناموس والبق أضيافا دائمين ، إنها حياة لا تطاق .. حرام أن نكبدها ذلك العذاب .

— الزوجة تقاسم زوجها مرأه وضرأه .

— أى مسرة ستجدها في قرية من عاشت كفراشة طليقة تتنقل من الأوبرا إلى الأوبرج إلى الأريزونا إلى دور اللهو المختلفات .. لن تجد إلا السأم والملل والوحدة والحرمان .

— كأنما قد عينت في قرية وانتهى الأمر ، وكعب عليك أن تعيش فيها إلى الأبد .

— لنفرض أننى عينت في القاهرة ، فما تفعل عليّة بجنيهاق القليلة التى لا تشتري ثوبا من ثيابها ١٩

— عمك كمال بك لم يفكر في ذلك لما تزوج من سنية هانم .

— إننى لا أحب أن أكون عبأ على غيرى .. خير لى أن أتزوج امرأة أرفعها من أن أتزوج امرأة أخفضها .

— لن تخفضها ، ليس من العيب أن يتعاون الزوج والزوجة على الحياة .

— وكيف تكون هذه المعاونة وعليّة لا تحترف حرفة ؟

— يساعد كما عمك .

فقال في سخرية :

— أو امرأة عمى على الأصح ، تدفع لى أجر زواجى من ابنتها .. ما الذى يضطرها إلى ذلك وابنتها جميلة يضمنى أن يتزوجها كثيرون ممن يستطيعون أن يحافظوا على مستواها دون أن ينالوا بدل زواج .

— لن يجدوا لها شأبا طيبا مثلك ، وابنة العم لا تغلى على ابن عمها .

— كان ذلك في سالف العصر والأوان أيام كانت الحياة رخاء والفوارق

طفيفة .

— ولا زال ذلك حتى الآن .

— فى الريف أما هنا فلا .

ولماذا يريدون أن يزوجوكها ؟

— لثيابى ، للبذلة التى أرتديها . إنهم ينفقون الأموال فى اقتناء التحف

للدار ، فماذا عليهم لو أنفقوا بعض ذلك المال فى شراء دمية فى ثياب زاهية
لابتئها الحبيبة ؟!

— حسين ، ما هذا الذى تقوله ؟ إنها ليست أفضل منك .

— إنها أغنى منى .

— كفى يا حسين ، لو سمع أبوك هذا الحديث لغضب .

— ما كنت أقوله لأبى .

— وماذا أقول له لو سألتنى عما نوبت عمله ؟

— قولى له إننى أنتظر حتى أخرج وأعرف مستقرى ، ثم أفكر بعد ذلك

فى الزواج .

— مستتبى الشهور الأربعة ثم تجد نفسك حيث أنت ، ما أسرع مرور

الأيام !

— من يدرى ماذا يجيء به الغد ؟

— لن يأتى بشيء ، ستجد نفسك بعد تخرجك أمام أهلك وعمك وجهها

لوجه ، من الخير لك أن تفكر من الآن من أن تؤجل تفكيرك إلى أن تخرج .

مع أن الأمر لا يستحق تفكيراً .. عليه عاقلة ومثقة وجميلة و ..

وماتت الكلمة على شفيتها . وقال حسين :

— وغنية .. وهذا ما يقلقنى ويثير مخاوفى .

— أقنع عن مخاوفك وفكر فى الأمر ببساطة .

فقال فى استخفاف :

(النقاب الأزرق)

— أفعل .

ونهض ودخل غرفته يستريح ، وبقيت أمه تفكر فيما جرى بينه وبينها من حديث فلم تغضب ولم يقلقها اكتشافها أن ابنها لا يحب أن يتزوج ابنة عمه التي خطبت له وهي ابنة سبعة أيام ، كانت في قرارة نفسها تكره سنية هاتم وإن كانت لا تبدى تلك الكراهية ، وما كان يهمها كثيرا أن يتزوج ابنها من ابنتها . لو أن أختها كانت قد أنجبت فتاة ورفض ابنها أن يتزوجها لثارت وغضبت وراحت تحاول جاهدة أن تثنيه عن عزمه ، أما أن يهرب من زواج ابنة سنية فما كان يهزها أو يثير حفيظتها .

وتمدد في فراشه وشرد ببصره فراحت تتوافد إلى ذهنه الصور التي تضمنيه : رأى عليّة في حديقة الحيوان وهي تشتري شيكولاته وتقدمها إليه فأحس ضيقا ، وفكر فيما عاقه عن أن يتقدم هو ليشتري الشيكولاته ويقدمها إليها فوجد أنها تسبقه دوما إلى تنفيذ ما يداعبه من أفكار .

واحتلت ذهنه صورة عليّة وهي في بيت من بيوت الفلاحين في ثوب فاخر من ثيابها الغالية وقد قعدت إلى المعزف تغنى في رطانة أغنية من أغانيها الأجنبية . والصراصير تجرى في الغرفة والذباب يحط على الحيطان والأثاث ويحوم في الفضاء ، فأغمض عينيه وانقبضت أساريره وراح يتقلب في ألم كأنما كان يرقد على فراش من الإبر .



.. لن نحققها ، ليس من العيب أن يتعاون الزوج والزوجة على الحياة .

أدبر النهار ووفد الليل بسكونه وهدوئه . فعخرج حسين إلى دار خالته تلبية لدعوتها له يوم الخميس الفائت . انطلق في الشوارع الهاجعة التي توصل بين دارهم و دار خالته وهو يسير في تراخ يحس سأمًا ، كان يفضل أن يذهب إلى السينا يقضى سهرته ولكنه اضطر أن يقبل دعوة خالته لكيلا لا يجرح شعورها .

وبلغ دارها فراح يصعد في الدرج متمهلا حتى إذا بلغ بابها ألفاه مفتوحا فدخل ، ورأى النور ينبعث من غرفة جلوسها ففطن إلى أنها تجلس وحدها بعد أن ذهبت زائرتها ، فتقدم نحو الغرفة ولمح خالته جالسة على أريكة صفت فوقها وسائل صغيرة فقال في صوت قوى :

— السلام عليكم .

ونظر في الغرفة فوق بصره على فتاة جالسة قبالتها ما إن رآته حتى أطرقت في حياء وأسدت على وجهها نقابا شفافا من الحرير الأزرق ، فارتبك وهم بأن يدور على عقبيه ولكن خالته قالت في هدوء :

— تعال ، ليس هنا أحد غريب .

فدخل وصافحها ، والتفت إلى الفتاة وأومأ برأسه محيا ثم قعد ، وقالت خالته :

— حضرتها الآنسة هدى ابنة جيراننا في الحى وحضرته حسين بك ابن أختي .

وتمت الفتاة ببعض ألفاظ في ارتباك ، ورنّا حسين إليها فأحس شعورا

لذيذا ، مس قلبه ذلك الحياء وتلك الأنوثة المستكينة ، ورفعت بصرها ونظرت إليه ثم غضته فخليل له أن ضياء انبعث من عينيها فأناز قواده ، والتزموا الصمت وأرادت خالته أن تقطع ذلك السكون الذى ران على المكان فقالت :
— كيف حال ماما ؟ .

— بخير .. والحمد لله .

وتلملت هدى فى جلستها ثم نهضت فى ارتباك والنقاب الأزرق مسدول على وجهها لا يخفى منه شيئا وإن كان يمنحه ظللا تزيد فى جماله ، فأحس حسين أسفا فهو يرتاح لوجودها ويتمنى صادقا أن تطول جلستها . وقالت لها خالته :

— إلى أين ؟ .

فقالت فى صوت خافت فى نبرات عذبة :

— ذاهبة إلى البيت فقد تأخرت الليلة .

ورماها حسين بنظرة فاحصة فوجدها ممشوقة القامة أميل إلى الطول ، فاحمة الشعر واسعة العينين ينبعث من سوادهما بريق ينفذ إلى القلب . ممثلة الصدر دقيقة الخصر لها ساقان متناسقتان بديعتا التكوين ، زان وجهها هدوء وانبعثت منها أنوثة صارخة .

ومدت يدها وصافحت الحاجة ، والتفتت إلى حسين وحيته بهزة من رأسها فقال لها وقد افتر ثغره عن ابتسامة رقيقة :
— مع السلامة .

وأحس شعورا جديدا يتفجر فى صدره ، دثرته راحة وشعر بالغبطة تدغدغ حواسه ، وظل يرنو إليها وخالته تسير معها حتى نزلت فى الدرج ، وعادت إليه خالته وراحت تحادثه فأقبل عليها منشرحا وقد انعكس على وجهه ما يفعم به صدره من إحساسات هنية راضية .

وقامت تجهز السفرة فبقى وحده لا يشاركه جلسته إلا فكره ، فرأى

هدى وقد أسدلت نقابها على وجهها وأطرقت في حياء العذارى فهز قلبه ذلك الضعف النسوى الذى استشفه من تحت نقابها ، واحتلت صورتها وهى ترنو إليه بعينها الجذابتين المتكسرتين أقطار رأسه فاسترخى في جلسته وأسبل عينيه وراح ينعم بحلم يقظته .

وقام إلى العشاء وراح يتناوله متفتح النفس ، وما أن انتهى منه حتى راودته فكرة الخروج إلى الحى يجوس خلاله لعله يلمح هدى في نافذة من النوافذ أو شرفة من الشرفات فيهدى إلى دارها . كان خاطرا من الخواطر الطائشة التى تلمع في الذهن فجأة ثم تخبو فجأة . وكان على ذلك الخاطر أن يحتضر ويمحى كآلاف الخواطر التى تخطر في الذهن ثم لا تجد من النفس استجابة أو قبولا ، فالظلام دامس يدر الكون برداء أسود سميك والريح تهب باردة فأوصدت في وجهها النوافذ والشرفات فلن يستطيع أن يعثر على ضالته المنشودة ، ولكن قلبه شد من أزره وأمدّه بأنفاس حارة فاستوى خاطرا قويا يقوده حيث يقوده .

ونهض وهو تحت تأثير الفكرة المجنونة التى استبدت به وخرج إلى الظلام يترقب ، وراح يضرب في طرقات الحى يتلفت ينقل عينيه بين الشرفات والنوافذ فلم يلمح طيف إنسان ، ولم يدب اليأس في قلبه بل ظل في تجواله يداعيه أمل خداع .

وتقضى الوقت وهو يضرب على غير هدى ، وأخيرا رأى أن يعود إلى داره ينتظر الصباح ليستأنف تجواله في النور وقد تفتحت الشرفات والنوافذ لتدخل الشمس بالحرارة والدفع .

دخل فراشه لينام ولكنه راح يفكر في هدى وقد أسدلت على وجهها نقابها الشفاف ، وظلت تحظر في ذهنه بقامتها الطويلة وشعرها الأسود الفاحم ورأسها المطرق وعينها المسبلتين في خفر وحياء ، فيفعم صدره بالنشوة وتسرى فيه إحساسات لذيدة .

وأشرقت الشمس وتسلسلت إلى غرفته فقام من نومه يحس رغبته في الانطلاق إلى الطريق ينقب عن هدى . فذهب إلى بذلته وأخذ يرتديها . وما اتضح النهار حتى كان ينساب في مسالك الحى يحذوه أمل لقيائها وصوت خالته يرن في أذنيه : « الآنسة هدى ، ابنة جيراننا فى الحى » فيوحى إليه قلبه فى حماسة أنه سيجدها فى نافذة من النوافذ أو شرفة من الشرفات .

وسار فى خطأ وثيدة يتلفت ، رأى فتيات فى النوافذ وفتيات فى غدو ورواح ، فجعل ينقل عينيه بينهن وما خفق قلبه فما وقعتا على من يهفو إليها الفؤاد ، وبقي فى سيره ساعات وما تسرب الملل إلى نفسه بل كان يحس نشوة لم يحسها من قبل ، نشوة من صار له هدف يسعى إليه .

واستوت الشمس فى كبد السماء وبدأت تقطع رحلتها نحو الغرب ولم تكتحل عيناه برؤيتها ، فعاد إلى داره ليتناول غداءه ويستريح ثم يخرج لمعاودة التنقيب قبل رجوعه إلى الكلية .

أطرق ساهما وأخذ يفكر فى نفسه فعجب من أمره ، فما باله قضى الساعات وهو يضرب فى الطرقات يبحث عن فتاة لم يرها إلا مرة واحدة ولم يبادلها كلمة ولم يدم النظر إليها طويلا ليكشف محاسنها . إن هى إلا نظرة صوبتها إليه من بين أهدابها المتكسرة ، فلماذا يهتم بها كل ذلك الاهتمام . وماذا عليه لو انتظر إلى الخميس القادم ليراها عند خالته ما دامت من جاراتها المترددات عليها ؟ وعزم على أن يمكث فى بيته حتى يوافي ميعاد ذهابه إلى الكلية ، ولكن ما مر بعض الوقت حتى أحس رغبة ملحة فى الخروج قبل ميعاد أوبته فودع أمه وذهب .

وراح يدور فى الحى وهو يرجو أن يتزود منها بنظرة ، وجعل يتلفت وقد أرهقت جوارسه وتحولت إلى عيون ، وانحدرت الشمس وبدأت تغوص فى الأفق البعيد فسار إلى محطة الأتوبيس ضيق الصدر لينطلق إلى الكلية .

وجلس فى الأتوبيس مطرقا فقد كان مشغول البال ، وهبط منه شارد اللب وتقدم إلى الكلية وهو ساهم يفكر فى ذات النقاب .

تقضى الأسبوع وطيفها يرافقه في يقظته ومنامه ، في قاعة المحاضرات وفي الملعب الكبير وفوق صهوة جواده وفي النادي وفي غرفة نومه ، وصار يرى النقب الأزرق الشفاف في صفحات الكتب التي يقرأها ورقعة السماء التي يمد إليها طرفه والفضاء الرحب الذي يلوح له إذا شرد ببصره إلى الفضاء . وأشرقت شمس يوم الخميس فأشرق الأمل في صدره . سيذهب في المساء إلى دار خالته يتمتع النفس برؤية هدى التي يهفو إليها قلبه ، إنه ليرجو أن يراها في نقابها الذي أحبه وفي خفها الذي جذب إليها قوداه ، ويشتهي أن يرنو إليها ساعات وهي مطرقة في حياء العذارى .

ومر الوقت وثيدا وثيدا ولو طاوله لانتقضى في طرفة عين . وأخيرا انتصف النهار وجاء ميعاد الانطلاق لزيارة الأهل والأحبة فسار في الشارع الموصل إلى الترام يغذ السير وفي رأسه صورة وفي نفسه رغبة وفي صدره أمل ، إنها أول مرة يسعى فيها إلى الترام وفي جوفه إحساسات غريبة لذينة . إنه يشعر بقلق ولكنه قلق مشتبه ، ويحس رهبة مزيجية بمشاعر القلب الحبيبة . ويسرى في جسمه خدر يدغدغ حوامه ، إنه يكاد ينكر نفسه فما كان له عهد بمثل هذه الإحساسات التي خلقتها نظرة لمعت لحظة من وراء نقاب .

وبلغ داره وتناول ما أعدت له أمه من لذيذ الطعام ، ثم دخل غرفته واسترخى في مقعد وثير وأرخص لخياله العنان فرأى نفسه يدخل غرفة جلوس خالته وهدى جالسة في نفس المقعد الذي رآها فيه ، فيتقدم من خالته يصافحها ، ثم يتقدم إلى هدى وقد رفت على شفثيه ابتسامة نمت عما يكنه لها

من حب ، ومد يده إليها وراح يصافحها في اشتياق ، ورأى نفسه يقبل عليها
يحادثها في طلاقة فهو يحس أنه يناجى أنثى وديعة ، أنثى ترنو إليه في إعجاب ..
إنه يشعر في قرارة نفسه بسيادته فيناجيا غير هياب ، واسترسل في نجواه قراح
يسبح في بحور الخيال وهو نشوان .

وقام إلى ساعته ونظر فيها فخیل إليه أنها تتسكع ، فما أبطأ مرور الدقائق
واللحظات .. وذهب إلى سترته وراح يقطع الوقت بتلميع أزرارها النحاسية
الصفراء .. وجعل يذرع الحجرة جيئة وذهابا ولكن المساء لم يأت بعد ، فلم
يطلق أن يمكث في البيت فارتدى ثيابه ومشط شاربه الأصفر الغزير وخرج إلى
الطريق وقد تدفقت في جوفه مشاعر الحب المذخورة .

لم يذهب إلى دار خالته فما وافى الميعاد الذى قابل فيه هدى . بل ركب
الترام وذهب إلى شارع عماد الدين .. وجعل يقطع الوقت بالمرور على دور
السينما . حتى إذا خيم الظلام عاد إلى الحى الذى أصبح يحبه وراح يتقدم إلى
بيت خالته خافق القواد .

وصعد في الدرج وقد أرهفت حواسه ، وبلغ باب خالته فألفاه موصدا
فطرقه في رفق ووقف ينتظر وقلبه يدق في صدره ، وانفتح الباب ووقعت
عيناه على الخادم الصغيرة فقال لها :

— الحاجة هنا ؟

— نعم .

— وحدها ؟

— وحدها !

أحس شيئا من الكدر . كان يأمل أن يجد هدى عندها ليصافحها في
الواقع كما صافحها في الخيال ، وتقدم في ثقاف ودخل على الحاجة وسلم عليها .
وقعد يحادثها ، وسرعان ما انقشع كدره وبات ينتظر وفود هدى في رجاء .
ومر بعض الوقت .. وسمع طرق على الباب فقفز قلبه في جوفه واتسعت

حديقته ، ولو أن خالته نظرت إليه لفطنت إلى ما اعتراه . وانفتح الباب ولحها بقامتها الطويلة المشوقة فرقص قلبه فرحا ، وجعل يرقبها وهو نشوان .
تقدمت في خطا ثابتة ، وبلغت الغرفة فلما رآته أسبلت عينيها وصافحت الحاجة وأومأت له برأسها وغمغمت في صوت لا يكاد يبين :
— مساء الخير .

فقال في صوت متهدج وقد أشرق وجهه :
— مساء النور .

وقعدت مطأطأة البصر فنظر إليها يتلمى من حسنها .. كانت خمرية اللون طويلة الأهداب في خديها غمازتان ، وهزه نقاء صفحة وجهها التي لم تنتشر فيها المساحيق والأصباغ .. كان جمالها طبيعيا ينفذ في بساطة إلى سويداء القلوب .

وقامت الحاجة تعد شيئا تقدمه لضيفتها ، وبقي حسين وهدى وحدهما فأحس قلبه يخفق في صدره في شدة ، ورفعت عينيها ورنّت إليه رنوة ثم عادت وأسبلت جفنيها ، فاضطرب وثارّت مشاعره وشعر برغبة في أن يحادثها ، وهم بأن يتكلم ولكنه لم يدر ماذا يقول لها وخالته على قيد خطوات منهما .. وخطر له خاطر فقال لها في صوت هامس :
— إني نازل الآن أنتظرك في الطريق .

ونظر إليها فخيّل إليه أن وجهها تضرّج بحمرة ، ولكنها لم تنبس فشر براحة على الرغم من ثورة مشاعرة الناشبة في جوفه وجاءت خالته فنهض مستأذنا فقالت له :

— هكذا سريعا !

فقال وهو ينظر إلى هدى من طرف عينيّه :

— عندي ميعاد مع صديق عزيز .

وصافح خالته ، وتقدم إلى هدى وصافحها وهو يضغط على يدها في

رفق ، والتقت عيناها لحظة فأحس أن سلكا كهريا مس روحه ، وانطلق
وقد انتشرت في صدره مشاعر متفتحة من الأمل والحب .

ووقف في الطريق يرصد باب البيت ، وكان الظلام دامسا والهدوء شاملا
فكان يسمع دقات قلبه الملهوف ، وظل يغدو ويروح مرهف الحس ، وما
انقضى كثير وقت حتى لمح شبحها على وصيد الباب فهرع إليها وقد لفه
اضطراب ، ودنا منها يهتف في صوت خافت :

— هدى .. هدى ...

والتفتت إليه مذعورة وبرقت عيناها في الظلام ثم أسدلت نقابها على
وجهها ، وسارت في خطا واسعة فوسع من خطوه وقال لها في توسل :

— هدى . كلمة واحدة .

فقالته وهي تفر منه كما يفر الأرنب من كلب الصيد الذى يقفوا أثره :

— حسين بك أرجوك .

— كلمة واحدة ثم يسير بعدها كل منا في طريقه .

— لا أستطيع أن أحدث أحدا في الطريق .

— كلمة واحدة أقولها سواء حملها إليك الهواء أم ملأ بها الكون العريض ،
هدى أحبك .

ووقف ينظر إليها وهي تنساب مسرعة بقامتها الطويلة المشوقة وقد لفه
سرور فياض وابتلعها الظلام فغابت عن عينيه ولكن صورتها ظلت واضحة في
خياله حاضرة لا تريم .

وسار وهو مقعم بالنشوة ، وسره جفوها منه كغزال شارد مفزوع .

شغلته هدى فراح يفكر فيما حدث في ليلته فألقى نفسه يجد في أثرها في
الظلام وهي تغذ السير تتعثر في حياتها وخجلها ، آه لو تدرى ما يضمرها لها من
خير لو فقت تصغى إليه متفتحة النفس خافقة القلب مرهقة الحواس ، وأصاخ

سمعه فداعبه صوتها العذب المضطرب وهي تقول في فزع :
— حسين بك أرجوك ! لا أستطيع أن أحادث أحدا في الطريق ، فأتلج صدره ، صادف ذلك الإعراض هوى في نفسه ، فلو وقتت وبادلته الحديث وواعدته على اللقاء لما تركت فيه ذلك الأثر الطيب الذى خلفه نقورها ، زاد تقديره لها وزاد تعلقه بها وراح قلبه يدق في قوة دقائق الحب العميق .
ورأى نفسه وهو في حجرة خالته وهي مسبلة جفניה لتتحاشى نظراته الولى فابتسم ، وسمع صوته وهو يقول لها :
— إني نازل الآن أنتظرك في الطريق .

فانشرح صدره وشعر برضا عن نفسه ، فقد قالها دون أن يعقد الخجل لسانه أو يتعثر في قولها ، كان يحس أنه رجل قوى يبدى رغبته دون أن يلف أو يدور ، وأنه ليرى أنها استجابت لدعوته فما تباطأت عند خالته بل هبطت خلفه تلبية لندائه . ولكن حياءها غلبها فنفرت منه وإن كان قلبها يهفو إلى اللقاء ويشتهي ، كانت نظرتها الخاطفة التى صوبتها إليه مشحونة بالعواطف الفياضة ، ومضت عيناها في الظلام بيريق أخذ أنار كهف صدره ومس شغاف قلبه .

وأرهفت هذه الأفكار غروره فانبسطت أساريره ، وأسبل عينيه فغلبه النوم فراح في سبات ، ولكن لم تنم أفكاره بل راحت تتناثر في دنيا الأحلام دون أن يحكمها وعى أو شعور . رأى نفسه وهدى يذرعان شاطئ بحر هائل لا يبلغ البصر منتهاه ، كان سطحه هادئا كصقال المرأة ، وقام بالقرب منهما جبل شاهق جلله الجليد الناصع البياض ، والقمر في ليلة تمامه يبعث ضياءه فيقرش الكون بيساط فضى لطيف ، والنسيم يهب رخاء ينعش النفوس .
كان في قميص أبيض وهدى في ثوب شفاف سترها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها نقابها الأزرق المهفاه ، فراح يرنو إليها وفي عينيه رغبة وفي جوفه ثورة وفي قلبه هيام ، وفاضت مشاعر الحب فضمها إليه في وله وراح

يقبلها هنا وهناك من فوق النقاب .

وتلاشئ ذلك الحلم واندمج في حلم آخر ، إنه في بذلته الرسمية في حديقة دار عمه بالزمالك وعلية تجذبه من يده وهو يسير خلفها دون أن يكون له على نفسه سلطان ، وراحت تقوده إلى الحميلة وهو مسلوب الإرادة ، وقعدت على مقعد من جنوع الأشجار وقد تهدل شعرها الذهبي على كتفها ورنّت إليه بعينها الزرقاوين وأومات له برأسها فقعد إلى جوارها .

أدنت وجهها منه فأحس أنفاسها الحارة تتردد على وجهه ، ولفت ذراعها حوله فأحس كأنما كبل بطوق من حديد ، وقربت شفيتها من شفتيه فاضطرب في ثورة وهب من نومه مبهور الأنفاس .

أشرقت الشمس يوم الجمعة فقام حسين تراوده فكرة الخروج إلى الحى
يضرب فى مسالكه لعله يعثر على هدى ، وقف بالأمس يرقبها وهى تنساب فى
الظلام ، خافق القلب ، حتى غابت عن عينيه ، ولو أنصف لتبعها على البعد
حتى عرف دارها فأراح نفسه من ذلك التجوال الذى يدفعه إلى القيام به قلبه
المتعلق بؤهم من الأوهام أو بخيال كاذب من الأمل .
وخرج إلى غرفة الجلوس فألقى أمه وأباه جالسين فحياما وقعد ، وقال له
أبوه .

— قم وارند ثيابك .

— لماذا ؟

— دعاك عمك تمضى معهم اليوم فى القناطر وسيبعث إليك بالسيارة فى
الساعة الثامنة .

— سأعتمر .

فحدجه أبوه بنظرة ثم قال :

— اعتذرت لارتباطى بموعد سابق وقلت لهم إنك ستذهب معهم .

فيجب أن تذهب حتى لا تكبر عمك .

— ولكنى واعدت أصدقائى على التلاقى فى الصباح . .

— لا بأس من أن تخلف ذلك الموعد وتذهب .

— لا أحب أن أذهب ولا أحب ..

ووقعت عيناه على أمه فوجدتها ترنو إليه فى رجاء أن يكف عن ذلك

العناد ، كاد بهم بأن يفصح لآتيه عن خبيثة نفسه وأن يقول إن الخطبة التي يهيمون لها الجو جميعا لن تتم لأنها خطبة غير متكافئة فلن يرضى أبدا أن يكون في الكفة الخفيفة ، ولكن نظرة أمه جعلته يكبح جماح نفسه في استياء فما كان يحب أن يطوى صدره على إحساسات تقلقه ، شعر بميل إلى هدى فكانت أول كلمة وجهها إليها وهي تفر منه مذعورة في الظلام : أحبك ، وقد يقضى غيره سنين طوالا قبل أن يعترف لمن يهواها بذلك الغرام .. وكان يحب أن يكشف أباه بحقيقة شعوره نحو علية ليواجه العاصفة مرة واحدة وينتهي الأمر . ولكن رشوة أمه المستعطفة قوضت عزمه وجعلته يترث إلى فرصة أخرى ، فغض من بصره وقد لاح في وجهه أثر انفعالاته الداخلية ، وبلغ أذنيه صوت أبيه وهو يقول في رقة :

— ينبغي أن تذهب .

فنهض مقطب الجبين ، وخطر له أنه سيحرم من التجوال في الحى للبحث عن هدى فأحس كدرا ينتشر في صدره ، وراح يرتدى ثيابه دون أن يتطلع إلى المرأة .. وجاءت السيارة فهبط في تراخ واندس فيها وقيع في ركن منها يفكر في مشاهد الليلة الماضية .

ووقفت السيارة أمام دار عمه في الزمالك فلم يتحرك بل ظل في جلسته المتراخية ، ولمح علية وابنة خالتها إجلال مقبلتين وقد أشرق وجهاهما فاعتدل ، ورأى عمه قادما في أناقته فهبط من السيارة فلم يعد له مكان في المقعد الخلفي .

كانت إجلال في ثوب بسيط من الصوف وقد حملت معطفها على يدها ، وكانت علية ترتدى ثوبا أحمر من قطعتين حليت القطعة العليا بأزرار صفر أشبه بأزرار حلتته .. ورأته فافتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ووسعت من خطوها وقد تبدى المرح في وجهها وجسمها .. ومدت يدها وصافحته وعيناها تنطقان بالحب والهيام .

ركب كمال بك وعلية وإجلال فى المقعد الخلفى وركب هو بجوار السائق ، وانطلقت السيارة إلى القناطر .. وراحت علىة وإجلال تتحدثان واشترك كمال بك معهما فى الحديث ، وكان يحدث حسينا ليدبجه فيهم ولكنه كان يرد ردودا مقتضبة ثم ينطوى على نفسه يفكر فى أمره .

فكر فى قعوده بجوار السائق فرفت على شفثيه ابتسامة ساخرة ... فهذا مكانه فى الأسرة ليس له إلا ما يتخلف عن علىة وأهلها ... وعالوده شعور التضائل فتضايق وود لو فتح باب السيارة وولى منهم فرارا .

وبلغوا القناطر فأخذوا يحملون حوائجهم ، حملت علىة حقيبتها الصغيرة وحملت إجلال معطفها وحمل السائق الحقيبة الكبيرة ، ورأى حسين « الفونوغراف » فحمله وهو يحس ضيقا وامتعاضا ، وسار كمال بك فى كبريائه وأناقته .

وهبت ريح قوية فطلعت إجلال إلى السماء وقالت :
— مجيئنا اليوم مخاطرة .

فقال علىة :

— لماذا ؟

— قد تكفهز السماء فجأة وتهطل الأمطار مدرارا .
فقال علىة فى ثقة :

— اطمئنى سيكون الجو صحو ، هكذا قالت النشرة الجوية .
فقال إجلال فى سخرية :

— لو كنت أعلم ذلك ما جئت أو كنت على الأقل أحضرت معى مظلة ،
ستمطر السماء بلا ريب ، هكذا عودتنا النشرة الجوية .

فقال كمال بك وهو يتسم :

— اتقى الله يا إجلال .

وأشرفوا على مكان مرتفع يكسوه العشب الأخضر يطل على النيل ،

فوضعوا حوائجهم وقعلوا ينعمون بالشمس التي أرسلت أشعتها فمنحت الدنيا دفقا مشتهى ، وخلعت عليه حذاءها ومدت ساقها البضتين ثم مدت يدها وتناولت (الفونوغراف) وأدارت أسطوانة انبعثت منها أنغام غريبة ، واستلقت على العشب فشمخ صدرها الناهد واسترسل شعرها الذهبي وانتثر على العشب ولعت عيناها الزرقاوان فكانت فتنة ، ورننا حسين إليها مرة فهزه جمالها ، ولكن تلك الموسيقى الغريبة المجلجلة لم تجعله يخلق في سموات الخيال بل حركت نفوره وجعلته يحس أنه يعيش في جو غريب .

ومر الوقت وعليه وإجلال تتحادثان في مرح وكال بك يتمتع بحرارة الشمس وحسين حيس نفسه التي تهاب عليه وتحشاها . واستوت الشمس في كبد السماء فمد السماط وتحلقوا حوله وراحوا يتناولون الطعام ، حتى إذا فرغوا منه نهضت عليه وقالت لحسين :

— تعال .

فقال وهو ينهض :

— إلى أين ؟

— نركب مركبا .

وحاول أن يعتذر ولكنه لم يجد في نفسه القدرة ، والتفتت عليه إلى إجلال وقالت لها :

— تعالى معنا .

فقال إجلال وهي تبسم :

— لا أحب أن أقوم بدور العنول .

فتوهجت وجنتا عليه وتوجت شفتيها ابتسامة عذبة ، وجذبت إجلال من يدها وهي تقول :

— هيا واعقل .

ونهضت إجلال وهي تضحك ، والتفتت إلى كال بك وقالت له :

(النقاب الأزرق)

— تعال معنا يا عمى .

— سأبقى هنا أحرس لكم الحاجات .

وأراد حسين أن يقول : « هذا مكاني » ولكن الكلمات ماتت على شفثيه ، وركبوا زورقا صغيرا وقعدت عليه بجوار حسين والنشوة تغمرها ، وقدمت له تفاحة فأخذها وقضمها ، وأرادت أن تداعبه فمدت فمها لتقضم من التفاحة قضمة فأبعد يده بحركة غير إرادية ، فضحكت إجلال وابتسمت عليه وصعد دم الخجل إلى وجهه ، وزاد نخجله لما سمع إجلال تقول :

— لم أكن أدري أنك يجيل إلى هذا الحد .

ولم ينبس بكلمة ، وقالت عليه وهي تبتسم من أعماق قلبها :

— إنه مؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، أذكر لما كنا صغيرين أنه أخذ منى قطعة من الحلوى فهجمت عليه وعضضته في إصبعه حتى أدميتها ، ودفع ثمن قطعة الحلوى عدة زيارات للطبيب ، وقد خشى أن أعاود الكرة .

وتكلف ابتسامة وانتشر في صدره قلق لا يدرى كنهه ، وراح الزورق يشق عباب الماء والشمس تسطع في السماء تبعث أشعتها البيضاء فتدفع الدماء الجارية في العروق . وأحست عليه بالدم الحار يتدفق قويا من قلبها فراحت ترنو إليه وفي عينها وله وهيام .

وعادوا إلى حيث كان كمال بك ، عليه مقعمة بالنشوة ، وحسين هادئ هدوءا أقرب إلى الشرود ، وإجلال في حيرة من أمر حسين .

ونظرت عليه في ساعة معصمها ثم قالت :

— أرف الوقت ، هيا حتى لا يتأخر حسين .

وراحوا يرتلون ما خلعه ، ثم نهضوا وساروا يحملون متاعهم وعليه على رأسهم كأنما كانت قائدا يقودهم ، حتى إذا بلغوا السيارة ركبوها ، وجلس حسين إلى جوار السائق وأطرق يفكر فيما جرى من عليه فرأى نفسه وهو يتبعها إلى حيث تريد دون أن يبدى رأيا أو اعتراضا ، فضايقته تلك الاستكانة

التي تستولى عليه إذا كان في حضرتها وتقاصرت إليه نفسه فغاص في مقعده .
وأخذت السيارة تنهب الأرض والجميع مطرقون ، كانوا نهبا لأفكارهم
حتى إذا بلغت السيارة ميدان باب الحديد قالت عليه في لهجة آمرة :
— إلى كلية البوليس .

فاتجهت السيارة صوب الكلية ، حتى إذا بلغت هبط حسين منها وهو
يصافح من فيها وعيون زملائه تنتقل في سرعة بين السيارة الفاخرة ، والفتاتين
الرائعتين الجالستين في المقعد الخلفي وقد لاح فيها الحسد .

راح يمضى الليل والنهار بين جدران الكلية ، وتصرم الوقت بطيئا ولم يتسرب الملل إلى نفسه ، كان مشغولا عما حوله بحياته الخاصة التى يحياها فقد راح خياله يخلق له عالما رحيا عوضه عن عالمه المحدود بالأسوار ..

رأى هدى وقد قام بينه وبينها نقاب شفاف أضفى عليها مسحة من الشعرية ، وهز قلبه ذلك الغموض الذى يدثرها فأخذ يخفق فى حنان ، وراحت تجرى فى رأسه مشاهد ممتعة ينشرح لها صدره وتطمئن إليها نفسه فيسترسل فى العدو وراء الخيال .

واحتلت هدى أقطار رأسه .. هدى التى خلقها مزاجه وأدار بينه وبينها ما يشتهى من حوار وعاش معها الحياة التى تهفو إليها نفسه ، فتعلقت بها روحه بعد أن أسبغ عليها وهمه كل ما يحب من خصال .

رآها بعين خياله وهى تنساب فى الظلام فى خفة الطيف ، ورأى نفسه وهو يدنو منها خافق القلب ويقول لها فى رجاء :

— هدى .. كلمة واحدة لا أريد بها إلا الخير .

فتقف فى الظلام مضطربة تتلفت من الخوف ، وتقول فى نبرات مرتجفة :

— أخشى أن يرانى أحد .

— لست يا هدى ممن يتسترون بالظلام ... تعالى إلى الميدان ليرانا الناس

أجمعون .. أريد أن أعلن حبى .. أن أكشف عما يكنه صدرى . لا أدري

لماذا يتستر المحبون ... لماذا يلوذون بالظلام كالحفافيش ؟ تعالى .

ومد يده وجذبها فأطرقت حياء وهى تهتز وتقول فى نبرات متكسرة :



أحبك يا هدى .. أحبك بكل جراحة من جوارحي .

— حسين أرجو منك ..

— سأهتف بأعلى صوت : أحبك . أهواك ... ما الذى يمنعنى من أن أترجم بلسانى ما أحس به فى نفسى ؟! إن كتم العواطف رياء ، وإنى أبغض أن أكون من المرائين .

— حسين !

— أحبك يا هدى .. أحبك بكل جارحة من جوارحى ولن أدع شيئا يحول بينى وبينك . سأذهب إلى أهلك أطلبك منهم وماهى إلا شهور قليلة حتى نتزوج ، أتقبلينتى زوجا لك يا هدى ؟ .
فأسبلت جفنيها واحمرت وجتها وبان فى وجهها الرضا ، فقال فى حماسة :

— لا أطمع أن أسمع منك جوابا ولكن يكفينى أن أرى هذه السعادة التى كست وجهك .. إنى سعيد .. أسعد مخلوق فى الوجود .
وشعر بالنشوة تغمره فهدأ خياله قليلا ليتمتع بالمشاعر اللذيذة التى حركها وهمه ، ولكن سرعان ما استأنف تفكيره وانغمس فى الحوادث التى تجرى فى مسرح ذهنه .. وراح يقول لها فى حرارة :

— لا أحب أن أخدعك يا هدى وأقول لك إن المستقبل أمامنا مفروش بالورود ، بل لا بد أن أصارك بالحقيقة ، إننا مقبلان على حياة خشنة ، قد نعيش فى بلدة نائية فى أقاصى الصعيد ، وقد نسكن فى قرية من قرى الريف ، لن تكون حياتنا ميسورة ولن تكون سهلة هينة ، ولكننا نستطيع بحبنا أن نخلق لنا دنيا سعيدة ، فما رأيك يا هدى ؟ .

— إننى يا حسين أقدر ما قد يعترضنا من صعاب ، ولكننى سأكون إلى جوارك دواما أمسح يدي الرفيقة المتاعب عن صدرك .
وتدفقت دماؤه حارة فى عروقه فلعج فيما هو فيه ، وأصاخ سمعه إلى صوته المنبعث من جوفه :

— قد تضطرنى الظروف أن أغادرك فى جوف الليل وأدعك وحيدة .
— سأكون لك خير معوان على تأدية عملك ، سأودعك فى سكون الليل
مشرفة الوجه وسأنتظر أوبتك فى تشوف ورجاء ، سأقاسمك الحياة كما ينبغى
أن تقاسم الزوجة زوجها راضية بما تأتى به الأقدار .

— سنبدأ حياتنا بمرتب ضئيل ندفع منه سكتنا ونشتري طعامنا ولباسنا ،
سنعيش عيشة كفاف ، ففكرى يا هدى قبل أن تقبلى فى غمرة النشوة ما
أعرضه عليك .

— إنه لما يسعدنى أن نبدأ معا صغيرين ثم نبني يسواعدنا أنفسنا ، فما ألد
البكفاح .

— قد نرزق أولادا فنحرم من كثير مما تشتهى النفس ، ونعيش حياتنا فى
صراع .

— إذن فمرحبا بالحرمان .

— هدى فكرى .

— فكرت وإنى أتبعك راضية النفس .

فمد بصره من خلال نافذة غرفة النوم بالكلية وراح يتطلع إلى السماء
ويقول فى حماسة :

— اللهم اشهد ، إنى لم أخدعها .

ثم عاد إلى فكره واستأنف الخوض فى دنيا الخيال فرأى نفسه يضمها إلى
صدره ويقبلها فى حرارة ، ولكنه لم يرتح إلى ذلك الخاطر فجعل يطرد تلك
الصورة من رأسه ، فهدى لن تسمح له أن يقبلها قبل إتمام الزواج .

ورأى نفسه بعين خياله وهو يمد إليها يديه ويتناول يديها ويرنو إليها فى حب
ويقول فى انفعال :

— أبتهل إلى الله من أعماق قلبي أن يبارك هذا الزواج .

وظل حسين يناجى طيفها فى كل آونة وآن ، يدير على لسانها ما يرضيه من

حوار فينشرح صدره وترضى نفسه ويحقق قلبه ، وتهفو إليها روحه كأن ما جرى قد وقع في الحقيقة وليس من خلق الخيال .

وكان إذا غلبه النوم يسبح في عوالم الأحلام ، وكانت أحلامه تتداخل وتمتزج حتى إذا قام من نومه لم يستطع أن يتذكر مما رأى شيئاً ، ولكن في ذات ليلة رأى رؤيا ظلت عالقة في ذهنه في وضوح حتى خيل إليه بعد أن هب من نومه أنها وقعت في الحياة .

رأى أعلاماً تخفق وزينات تتألق ومصاييح كهربية تتلألأ على وجه داره ، وموسيقى تعزف ومدعون يفدون في ثياب السهرة . إنها ليلة زفافه . كان في ثيابه الرسمية يخطر بين الصفوف وقد وضع ذراعه في ذراع هدى ، وهى في ثياب الزفاف البيض أسدلت على وجهها نقاب العرس الأبيض الشفاف وأطرقت في حياء ، وأخذتا يتقدمان إلى صدر المكان وقد أطلقت الزغاريد مجلجلة مدوية وعبق الجو بدخان .

وبلغا مقعدين وضعا على منصة فقعدا متجاورين ، والتفت إليها خافق القلب ومد يده ورفع النقاب ليطلع على جبينها قبله الزواج ، ولكنه اضطرب ونظر إليها في دهش ، كانت عيناها زرقاوين وشعرها أصفر في صفرة الذهب ، ذهبت هدى وجاءت عليه ، وتلفت حوله فألقى نفسه في دار عمه بالزمالك ، وتفرس في المدعويين فإذا بأمه وأبيه وسنية هانم وعمه وإجلال ينظرون إليه مشرق الوجوه .

وهب من نومه وقلبه يدوى في جوفه دويا ، وقعد في فراشه وراح يمرريده على عينيه لمسح ذلك الحلم من ذهنه ، ولكن هيهات ، كان يحيا في رأسه نابضا أنبض من الحياة .

وظل مدة وهو في قلقه ، وراح يفكر في ذلك الحلم فلم يجد له تأويلا فغمغم ليهدى من روعه : « أضغاث أحلام » .

وجاء يوم الخميس فانطلق إلى داره وفي رأسه أفكار ، عزم على أن يذهب

إلى خالته ليقابل هدى ويكاشفها بأمره ، إنه تعلق بها فلماذا لا يفصح في بساطة عن حقيقة مشاعرة فلن يجنى من الكبت إلا القلق والعذاب .

ووافي ميعاد ذهابه فخرج وقد انتشرت في صدره إحساسات حارة ، كان يهفو إلى لقاء هدى ليثبتها لواعج نفسه دون أن يدع للخجل سلطانا على لسانه ، وطن النفس على أن يفتح قلبه ولن يلجأ إلى اللف والدوران .

سار في نشاط فقد استمد حيوية من حرارة فؤاده ، وما فكر في أنه لم يعرف بعد هدى حتى يقدم لها قلبه وأن التي عرفها من وحي الخيال .

ووقف أمام باب خالته فأحس جفافا في حلقه ورعدة تسرى في بدنه ودويا يدوى في جوفه ، فلم يطرق الباب بل تريت حتى يفرخ روعه ، ما كان يخشى ملاقة هدى ولكنه لا يدرى ماذا اعتراه .

وظل في قلقه فلم يجد مفرا من أن يقدم ، فطرق الباب وقد تدفق الدم حارا في عروقه فهو مقبل على لحظة حاسمة في حياته ... وانفتح الباب فولجته مرهف الحواس ، وألقى النور ساطعا في غرفة جلوس خالته فمد بصره لعله يلمح هدى فيطمئن فؤاده الولهان .

دنا من الغرفة وأدار عينيه في أنحائها في لحظة فلم يجدها ، ف شعر بخيبة وخبت تلك المشاعر الثائرة في صدره واستولى عليه ضيق .. كان يتمنى أن يجدها فيذهب إليها يصافحها في اشتياق ويجلس إلى جوارها ينتظر فرصة ذهاب خالته لتجهيز شيء تقدمه له .. فيحدثها بما يعتل في صدره وما يكنه لها من غرام . وراحت خالته تحدثه وهو مشغول عنها بأفكاره ، أخذ قلبه يمدد بالأمل ويؤكد له أنها آتية فاطمأن إلى وحي قلبه وراح ينتظر في رجاء ، ومر الوقت وثيدا وهو يتلفت ويتساءل عما دعاها إلى الغياب . آه لو تسرى ما يحمله لها من حب وما يقامى في سبيلها من وجد ، لجاءت إليه تطير متفتحة النفس منبسطة الأسارير .

وابتدا الملل يتسرب إلى نفسه واليأس يدب في قلبه ، إنها لن تأتى الليلة

أو لعلها جاءت وانصرفت قبل أن يجيء ، فخطر له أن يسأل حالته عنها ولكنه عجز عن أن يخرج ذلك الخاطر إلى الوجود . تخلت عنه شجاعته وماتت الكلمات على شفثيه وهو يشعر بمحنق شديد .

وهم بالانصراف أكثر من مرة ولكن قلبه لم يطاوعه وراح الوقت يمر بطيئا بغيضا وأخيرا نهض وانصرف وهو خزين ، وما أن انطلق في الطريق الهادئ الذى دثره الظلام حتى أخذ قلبه ينزف أسى ويشعر بطعم الصاب فى فيه . مشى مطرقا يفكر ، لو كان يعرف دارها لذهب إليها وعرض عليها حبه واستراح من تلك المشاعر التى تضنيه ، جاء يحدوه الأمل وعاد محطم النفس يحتويه اليأس المرير .. واتبعث من جوفه صوت أشبه بالفحيح .. راح يتساءل :

« لماذا لم تأت ؟ ما الذى حال بينها وبين الحضور ؟ » .. فخطر له أنها غضبت لأنه طاردها وغازلها فى الطريق ، فأحس كأن جمره نار وقفت فى حلقة ويذا قوية تهصر قلبه ، فبان فى وجهه الأسى العميق .

عاد إلى الكلية وهو حزين ، حلق في الأسبوع الفائت في سماءات الخيال
وبنى قصورا من الأمانى وراحت تداعبه الآمال فكان يبدو له كل شيء
بهيجا ، فلما ذهب ليحقق أحلامه صدمته الحقيقة فتقوضت آماله وألفى نفسه
يجد في أثر وهم خادع كذاب .

كان وهما يوحى إليه أن هدى تناجيه في خلوتها كما يناجيه في خلوته وأنها
تعد اللحظات ترقب يوم الخميس لتذهب خافقة القلب للقياء ، فلما ذهب
لمقابلتها وهو عامر القلب بالحب النابض العميق ولم يجد لها وسوست له نفسه
أنه مخدوع ، صور له خياله أنها لا تهتم به كما يهتم بها وهي لا تفكر فيه .
وساءه ذلك الخاطر فانقبض قلبه ولم يرتح قلبه إليه ، فهب يذب عن
يهواها ويتحل لها المعاذير ، إنها تحبه وقد بان حبها في تلك الومضات التي
انبعثت من عينيها وهي تسترق إليه النظر ، فإذا كانت لم تأت يوم الخميس فإن
عائقا حال بينها وبين الحضور .

وانتابه قلق ، وأخذ يأسه يوحى إليه أنه انطلق في أثر سراب ، وجعل قلبه
يؤكد له أنها تهواه وأن تحلفها يوما لا يستحق كل ذلك القنوط ، ستأتى يوم
الخميس القادم وهي أكثر شوقا إليه فالبعد يؤجج نار الصبابة في الضلوع .
وراح يترجح بين يأسره وأمله الذى يغذيه الفؤاد المفتون فاستولى عليه
ضيق ، إنه يريد أن يقطع الشك باليقين ، فبات يرقب ضجرا يوم الخميس ،
ليت هذه الأيام المملة تسقط من حياته أو ليت يرقد ويروح في سبات إلى اليوم
الموعد .

ومرت الأيام متسككة بغیضة ، فلما انتصف يوم الخميس غادر باب الكلية وهو قلق تمشي في صدره إحساسات متضاربة ، كان يشعر بلهفة تشوبها رهبة ، برجاء يكدره بأس وبصراع بين الفرح والحزن ، لا يدري أيتعلق بأهداب الأمل أم يستسلم للقنوط .

وانطلق بعد الغروب إلى دار خالته وقد ارتفع نبضه واضطربت أنفاسه وأرهفت مشاعره وانداحت في صدره رهبة المجهول ، ليته يستطيع أن يهلك حجب الغيب ليرى ما ينتظره ويستريح ، ووقف أمام الباب يطرقه فققر قلبه في جوفه في جنون حتى أحس به يكاد يفر من فيه . وفتح الباب فتقدم وقذفه الخوف وبلغ غرفة الاستقبال وهو يتلفت بعيون زائغة ، ووقع بصره عليها فرقص فرحا وغمرته نشوة كأنما التقى بالحبيب بعد الفراق الطويل .

وأشرق وجهه وبرقت عيناه وراح يمرر أصبعه على شاربه الأصفر في سرور ، وصافح خالته ، ثم اتجه إليها وصافحها في شوق وقد رقت على شفثيه ابتسامة حاملة ووشت ملاحه بما يزخر به قلبه من إحساسات فوارة ، ورنث إليه رنوة اهتر لها كيانه ، خيل إليه أنها مشحونة بمشاعرها الحارة المذخورة . قالت له خالته :

— كيف حالك وكيف حال ماما ؟

رأى الفرصة سانحة ليشكو لهدى ما قاساه طوال الأسبوع فقال :
— أمضيت أياما قاسية ، استبدت بى أوهام أقلقنتى فكنت أرى أشباحا بغیضة تتراقص أمام عینی آناء الليل وأطراف النهار ، خيل إلى أن الكلية سجن بغیض حتى فكرت فى أن أفر منها كما يفر السجين إذا ما لاح له خيط واه من الأمل .

— إنك مكدود ، ولكن لا بأس لم يبق أمامك إلا ثلاثة شهور .

واسترسل فى حديثه وهو يسترق النظر إلى هدى :

— شعرت برغبة عجيبة ، رغبة لم يسبق لى أن أحسست بها ، هتف لى

هاتف أن أطرق أبواب جميع معارفى لأطمئن عليهم ، وما استولى على ذلك
الخاطر حتى زحف إلى صدرى قلق رهيب .

فقال حالته وقد شردت يبصرها :

— ما أكثر ورود هذه الهواجس إلى رأس الإنسان وهو وحيد !

— تمثلت لى جميع الأماكن التى أعرفها وراحت تتابع أمام عيني كشریط
سينمى ، رأيت أبى وأمى فى بيتنا وقلبى يضطرب فى قلق ، ورأيت هذه الغرفة
بمن فيها وقد استولت على رهبة لا أدرى لها سببا ، ورأيت أماكن كثيرة
والخوف يدثرنى ، كنت أخشى شيئا مجهولا .

فقال حالته .

— أنت فى حاجة إلى الراحة ، اذهب إلى الحدائق وارتض فى أماكن

هادئة .

فقال وهو يتسم :

— أفعل .

فقال حالته .

— هذا ما وصفه لى الأطباء بعد فجيعتى فى المرحوم .

وصمت وساد المكان هدوء ، ونهضت حالته لتقدم له الشاى فراح يجمع
شئات نفسه ويتأهب لنجوى هدى . وما ابتعدت حالته وخلا له الجو حتى
قال وهو يميل نحو هدى والدم يتدفق حارا فى عروقه :

— أفلقنى غيابك يوم الخميس ، ما الذى عاقلك عن الحضور ؟

فقال فى صوت خافت وهى مسبلة عينيها :

— جاءنا ضيوف .

— يا للوهم البشع الكريه ، وسوس لى أنك حاقدة على وتركتنى أقاسى

العذاب المرير ، لو كنت أعرف ييتك لجت إليك لأستريح مما كنت فيه .

فقال فى صوت مكتوم :

— وى .

— ماذا يا هدى ؟ اتخشين مجيئى ؟!

فقالت فى تلعم :

— ماذا يقولون ؟

— من هم الذين يقولون ؟

— أهلى .

— يقولون ما يقولون ، حبيب جاء يسأل عن حبيب .

— أوه .. أرجو ..

— أبغضبهم أن يطرق بابهم خطيب !

فأطرقت وأشاحت بوجهها فى حياء ، فزاد وجيب قلبه وقال فى حرارة :

— سأطرق بابكم يوما يا هدى وقلبى على كفى أقدمه لكم .

ورفرف قلبه فى سرور ، استشف الرضا فى وجهها فغمرته النشوة

وصمت يتحلب المشاعر اللذيذة التى شاعت فى نفسه .

وعادت خالته وراحت تتحدث وهو مشغول عنها بذلك الفرح القائم فى

جوفه ، وجاءت الخادم تحمل فناجيل الشاى فأشار لها إلى هدى وهو يقول :

— الهانم أولا .

فغمغمت :

— متشكرة ، تفضل .

فحمل فناجلا وقدمه بنفسه إليها فتناولته وهى ترنو إليه بعينها النجلاوين

وتمت :

— متشكرة .

وأخذ يرشف الشاى فى صمت يتملى من حسنها الآسر الذى خلب له

وسلبه قؤاده .

وقام مستأذنا واتجه إليها وصافحها وهو يضغظ فى خفة على يدها ، ثم

صافح حالته وانصرف تلفه غبطة عارمة .
وبلغ الطريق الهادئ الذى خيم عليه الظلام فوقف بالقرب من الدار يرصد
هبوطها ، وما انقضى كثير وقت حتى هبطت بقامتها المشوقة فخفق قلبه
ودنا منها ، فلما لمحه لم تجفل بل تمهل بل تمهل فى خطوطها فسار إلى جوارها وهو يكاد
يطير من الفرح .

وانطلقا صامتين .. فلما ملك نفسه قال فى هدوء :
— نصحتنى خالتى أن أذهب إلى الحدائق وأرتاض فى أماكن هادئة ، وقد
عزمت أن أعمل بنصيحتها ، سأذهب غدا إلى حديقة الحيوان وسأنتظرك فى
جزيرة الشاى .

- لن يسمحوا لى بالخروج وحدى .
- سأنتظرك .
- لا أستطيع .
- حاولى .
- اذهب أنت .
- ما أبغض أن أذهب وحدى وما أوحش الجنة لو خلت منك !
وأطرقت مسرورة ، ثم رفعت رأسها وقالت :
— سأحاول .
- ووقفت ومدت يدها وهى تقول :
— مساء الخير .
- إلى أين ؟ .
- ذاهبة إلى البيت .
- سأسير معك .
- خرجنا إلى النور .
- وما الذى نخشاه من النور ؟

- لا أحب أن يرانى أحد معك .
— وماذا لو رآك أحد معى ؟ .
— ماذا يقولون ؟
— لا يهمنى ما يقولون .
— أرجو منك .. إكراماً لى .
— لا يسعنى إلا القبول .. اذهبى فى حفظ الله .
ووقف يرمقها وهى تنساب فى النور ، فلما ابتعدت عنه راح يتبعها فقد
صمم على أن يعرف دارها حتى إذا هفت نفسه إليها واشتاق إلى البحث عنها ،
اتجه إلى بيتها يتطلع إلى الشرفات والشبابيك .
وسارت وهو فى أثرها ، فلما بلغت دارها ودلفت إليها قفل عائداً إلى داره
فرحان راضياً بما هو فيه .

راحت هدى تخطر في ذهنه بقامتها المشوقة وخصرها الدقيق وصدرها
المغرور وشعرها السبط المتموج ، ترنو إليه بعينها السوداوين اللتين ينبعث
منهما بريق يهز القلوب ، تناجيه في حرارة المحبين وهو ممدد في فراشه يشعر
بجذر لذيد .

نام الكون وهذا كل شيء إلا نفسه ، فقد كانت الإحساسات الحلوة تمر
في صدره والصور الحبيبة تتوافد على رأسه والمناجاة المشتاة تداعب أذنيه ،
فيسبل عينيه في راحة متلذذا بما يتفجر فيه من مشاعر وإحساسات .

تذكر ما كان بينه وبين هدى في دار خالته ، ولكنه لم يتذكره كما كان بل
تذكره كما يشتهي أن يكون ، رأى نفسه يدنو منها ويقول لها في حرارة :

— هدى ! . أحبك ، أصغى إلى خفقات قلبي ، انظري إلى ، إني أحس
ديب التمل يسرى في بدني . إن كان خالجة في تهفو إليك . أحبك .. أحبك
بكل جوارحي . أحبك من كل قلبي .

— رحماك ! إنك تعبت بأوتار قوادي .

— هدى ! كم أشتى أن أحملك وأنطلق بك بعيدا .. بعيدا عن الناس ،
لنعيش وحيدين ننعيم بحبنا .

— ما أشهى أن نكون وحدنا !

— نهيم في الفضاء لا نذكر شيئا .

— إلا حبنا .

— هدى .. أنت حياتي .

— وأنت روحي .

— أصبحت أحياء على أمل .. أمل حلو مرتجى أضواء جوانحي وبدد ظلمات
نفسى .. مستقضى أيام ثم نكون معا إلى الأبد .
— وإني أبتل إلى الله أن يحقق الأمل .
— ستكون حياتنا حلما جميلا .
— لن نتخلله رؤى مفزعة : .
— وتمر الأيام رخاء كالنسيم .
— لا يعكرها هبوب الزوايع والأعاصير .
— سأكون لك .
— وسأكون لك بكل جوارحي .
— أحبك .. أحبك يا هدى .

وأحس نشوة عارمة فليح في تخيلاتهِ وراح يسبق الزمن ، فرأى نفسه
وهدى في جزيرة الشاي ينظران إلى اسراب البط التي تسبح في مرج في البحيرة
الصغيرة وقد انتشرت في صدره غبطة وتأهب ليدبر الحوار الذي يرضيه بينه
وبينها .

ولكن قفز إلى مسرح ذهنه خاطر جديد اطمأن إليه وأخذ يفكر فيه
منشرح الصدر منبسط الأسارير .

رأى بعين خياله عليّة قادمة إلى جزيرة الشاي وهي في ثوبها الأحمر الذي
حلى بأزرار صفر كأزرار سترته ، ووراءها إجلال وقد حملت معطفها على
يدها ، وعمه في أناقته . ووقعت عينا عليّة على هدى فاضطربت واربد
وجهها وبان فيه الكمد ، وتقدمت عليّة نحوهما وعيناها الزرقاوان تقدحان شررا
وصدرها في علو وانخفاض فلم تتخلج فيه خالجة ، بل قام في ثبات وحياها وهو
يبتسم وقال :

— هدى خطيتي . عليّة هاتم ابنة عمي .
وترنحت عليّة وكادت تنهار فقدم إليها كرميا فقعدت ، وأحس في رقده

نشوة ورغبة في أن يسترسل في تعذيب عليّة فلج في تصوراته التي راحت تدغدغ حواسه .. رأى بعين خياله إجلال وعمه وهما ينظران إلى هدى في دهش .. ورأى إجلال تميل على عليّة وتهمس مستفسرة :

— من هذه ؟ .

فتقول عليّة في أسي عميق :

— خطيبة خطيبى .

— ماذا تقولين ؟ .

— خطيبة حسين .

— مستحيل .

فقال حسين في هدوء :

— وما وجه الاستحالة ؟ .

— عليّة مخطوبة عليك من يوم ولادتها .

— ومن خطيبها ؟ .

— أبوك .

— ليتزوجها أبى .

فقالت إجلال في انفعال :

— هذا بطر .. إنك ترفس النعمة بقدمك .

— إني أحطم الأغلال التي تريدون أن أرسف فيها إلى الأبد .

فقال عمه في انفعال :

— أية أغلال ؟

— الأغلال التي كبلوك بها ، أموال سنّية هامم ، إني لا أقبل أن أكون مثلك

خاتماً في أصبع امرأة .

— أنت وقع .

فقال في سخرية :

— لو كنت تزوجت ابنتك لكنت زين الشباب .

فاكفهر وجهه عليه وترقرق الدمع في مقلتيها وانسلت غضبي لتذرف دمعها بعيدا ، وقامت إجلال وقد رمته بنظرة قاسية ، وانسحب عمه وهو يرغى ويزيد ، وانفجرت في جوفه قهقهة عالية ، ولكنها صكت أذنه موحشة بغیضة .

وتقلب في فراشه وتثاءب ، واختلطت المشاهد في رأسه فلم يعد يميز شيئا ، ثم راح في سبات .

وطلع الفجر وزقزقت العصافير فاستيقظ متشرحا ، خرج إلى غرفة الجلوس يقطع الوقت بقراءة رواية بوليسية كان قد اشتراها بثلاثة قروش ، كانت رواية شائعة ولكنها لم تستحوذ عليه فقد كانت تقع في ذهنه أفكار كالشهاب ، ثم تختفى كالبرق .

واكمل مولد النهار وبعثت الشمس أشعتها فدبت في الكون الحياة ، وخرج حسين منطلقا إلى الجزيرة يرصد وفود حبيبة الفؤاد .

وقف على وصيد حديقة الحيوان يقلب عينيه في الهابطات من الأتوبيس والترام لعله يجد هدى ينهن فيدخلان معا ينعمان بأسعد الأوقات ، وظل في وقفته خافق الفؤاد وقد احتل صدره تشوف لذيذ ، فما أبهج لحظات انتظار الحبيب ، إنها أروع من سويغات اللقاء .

ومر بعض الوقت وهو يتلفت ، ورأى أن يدخل ينقب عنها فما تواعدا على اللقاء أمام الباب بل تواعدا على أن يتقابلا في جزيرة الشاي فدخل وراح يقطع الممار في خطا وثيدة وهو يدير عينيه في المكان وفي صدره نشوة وصفاء ، فراحت المرئيات تنعكس في نفسه في رواء وبهاء .

ولاحت لعينيه جزيرة الشاي وقد انتثرت فيها المناضد والمقاعد وفاضت عليها شمس الشتاء ، فراح يرنو إليها متفتح النفس ، وجعل يجيل عينيه في الفتيات الجالسات إلى الموائد يبحث عن هدى .

وأخذ يدنو من المكان ، وثبت بصره على مائدة من الموائد برهة فخفق قلبه في شدة ولفه خوف وتقهقر في خفة واضطراب ، خيل إليه أنه رأى عليه يشعرها الذهبي وثوبها الأحمر ذى الأزوار الصفر جالسة إلى مائدة من الموائد وقد مدت بصرها إلى البحيرة ترقب البط السابح في الماء .

وانسحب وقلبه دائم الخفقان وراح يدور حول الجزيرة في حذر حتى لا تقع عليه عيناها ، وبلغ موضعا يراها منه ولا تراه ، ومد بصره فانقشعت رهبته وهذأت ثورة نفسه ، ولم تكن عليه بل كانت فتاة أخرى .

وعجب في نفسه لذلك الاضطراب الذى اعتراه ، كان يحسب أنه لا يهرب أحدا وأنه قادر على أن يصارح عليه بحقيقة شعوره دون أن يضطرب ، فإذا بشبح عليه يجعله يفر مذعورا يذرته قلق وخوف واضطراب .

وراح يرقى الدرجات القليلة الموصلة إلى المكان وهو يدور بعينه ، وجاس خلال الموائد ثم جلس بالقرب من المدخل يتفرس في الوافدات . ويتناول الشاى وهو شارد اللب يفكر فيما يقوله لهدى ساعة اللقاء .

وأخذت الشمس في الارتفاع حتى كادت تحتل كبد السماء معلنة انتصاف النهار ، فتململ في جلسته وبدأ يئب في جوفه قلق ، وراح القلق ينمو ويتشتر حتى أحنقه فقام متضايقا بذرع الممار عابسا مقطب الجبين .

ضايقه عدم حضورها ، كان يرجو أن يمضى بقربها لحظات هنية تسعد الفؤاد فإذا به يسير في الحديقة وحيدا وقد انتشرت في جوفه سحائب من الكدر ، أراد أن يعب ككوس السرور فإذا به يترنخ من الألم .

وطأ طأ بصره وقد زوى ما بين حاجبيه وجعل يعث في شاريه الأصفر ، والتمع في ذهنه خاطر كان له وقع الغيث في الأرض المحدبة ، ترعرعت له نفسه وانبسطت أساريه ورقص قلبه طربا ، خطر له أنها لم تأت لأنها ليست من فتيات اليوم اللاتي أطلق لهن الحبل على الغارب يذهبن حيث شئن ويفعلن ما

يحلوهن ، إنها فتاة من أسرة ترعاها فليس لها أن تخرج على هواها ، إنها كانت
تشتى أن توافيه ولكن حال بينه وبينها تقاليد أهلها وأنعم بها من تقاليد .
وغادر الحديقة وعاد إلى داره وهو سعيد ، أسعد مما كان لو وافته في
الميعاد .

وقف محمود أفندى أمام المرأة يرتدى ثيابه ويمرر يده على شعره الرمادى المنفوش البارز من تحت الطربوش وقد انتشرت فى صدره رهبة . إنه ذاهب لزيارة ابنه فى مستشفى الكلية فقد بلغه أنه سقط من على ظهر حصانه وأصيب برضوض .

وجاءت زوجته وفى وجهها آى اضطراب وقالت له فى توسل :
— أذهب معك .

فقال لها فى بساطة :

— ليس هناك ضرورة ، قيل لى إنها رضوض بسيطة .

— قلبى يتعبنى يا محمود .

فقال وهو يتسم فى رقة :

— قلب الأم دائما فى كبد ، اطمئنى حادثنى بنفسه فى التليفون .

— وماذا لو ذهبت معك ؟

— سأذهب أنا اليوم ثم نذهب فى الغد معا .

وسار وهو يحس اضطرابا وإن حاول أن يبدو متجلدا أمام زوجته ، وخرج وقد تسربل بالرهبة ، ووقف على محطة الترام فى تبرم وضيق ويمد عنقه يرصد الطريق ، ثم يغدو ويروح على الطوار وقد بان فى وجهه العبوس .

وجاء الترام فركبه وأخذ ينظر من خلل النافذة وقد أرخى لحياله العنان ، وانطلق الترام حتى إذا بلغ ميدان الحسينية تمهل لمرور جنازة ، فلما وقعت عينا محمود أفندى عليها انقبض وأخذ قلبه يدوى فى صدره وينزف قلقا وخوفا

وشعر بجفاف في حلقه ، ومرت الجنازة واستأنف الترام سيره وبقي محمود أفندى للخواطر الكئيبة التي راحت ترعى في ذهنه .

وهبط من الترام وما سار خطوات حتى لمح زينات وأعلاما . فضيق من خطوه وجعل يرنو إلى الفرح وقد انقشعت سحائب الكدر عن صدره وحل مكانها طمأنينة وأمن ، تشاءم لما رأى الجنازة وتفاعل لما وقعت عيناه على معالم البهجة والسرور .

وانطلق يغذ السير ، فلما دنا من الكلية عادت الرهبة تزحف إلى صدره لتكدر صفوه . ودخل من الباب فاضطربت أنفاسه ودق قلبه ، وتقدم في ردهة طويلة وهو يتلفت ، ثم دلف إلى حيث ابنه فأحس قلبه يغوص في قدميه ورهبة تستولى عليه .

ورأى حسينا ممددا في سريريه فاستيقظت فيه مشاعر الحنان ومشيت في جوفه ، وشعر بدموع تبلل مقلتيه وراح يدنو منه مرهف الحواس ، فلما لمح . يتسم له أحس كأن يدار فيقة تعبت بأوتار قلبه ، ووقف بالقرب من السرير وقال في رقة :

— كيف أنت يا بني ؟

فقال حسين وهو يتسم :

— الحمد لله .

وجلس محمود أفندى على كرسي قريب من السرير وقال :

— بماذا تحس ؟

— لا شيء ، برضوض خفيفة .

— أرادت أملك أن تأق فقلت لها تنتظر إلى الغد .

— إني بخير والحمد لله .

— ستأق غدا .

— ليس هناك زيارة في يوم الجمعة .

فقال محمود أفندى فى أسى :

— ويل لى ، لن أخلص منها .

— قل لها إني آت يوم الخميس القادم .

— أتظن أنها تصدقنى ؟

فقال حسين وقد افتر ثغره :

— إنها تصدقك دائما .

ونظر حسين صوب الباب فرانت على وجهه مسحة من الجذ ، ولاحظ أبوه تغيره فنظر خلفه فألقى عليه قادمة ، كانت ترتدى ثوبا بديعا أبرز فتنها وشعرها الأصفر ينوس خلفها فى رشاقة ، فنهض وهو يقول :

— أهلا .. أهلا .

وصافحته ، ثم اتجهت إلى حسين ونظرت إليه وفى عينها حنان وقالت فى لهفة :

— ماذا جرى ؟

— كنت أثب بمصافى وثبة فكبا الحصان وسقطت وأصبت برضوض .

— وكيف حالك الآن ؟

— بخير .

— وماذا قال الطبيب ؟

— رضوض خفيفة .

— ومتى تفك هذه الأربطة ؟

— بعد يومين .

— هل أنت فى حاجة إلى شىء .

وشعر بالدم يصعد إلى وجهه فقال فى صوت خافت :

— كل شىء موجود .

وبان الرضا فى وجهه عليه ، ورنّا محمود أفندى إليها فى دهش ، إنها فى لحظة

سألت عن كل شيء وهو لم يسأل ابنه عن شيء ، وردت إلى طبعها فقالت :
— أتدري يا حسين لماذا سقطت عن ظهر حصانك ؟

— لا .

فقالت وقد رفت على شفتيها ابتسامة رقيقة :
— ولكنى أدري .

فقال وقد حدجها بنظرة :
— لماذا ؟

فقالت وهي تنظر إليه في حب :
— لأنك لم تزرنا يوم الخميس .

وابتسم محمود أفندي وأسبل حسين جفنيه واضطرب ، وساد السكون
وكادت وجتا عليه تمران خجلا ، ولكن محمود أفندي بدد ذلك السكون
بقوله :

— أتعلم يا حسين أنني لما كنت في مثل سنك سقطت من فوق ظهر
الحصان !

فقالت عليه وهي مشرقة الوجه :
— وكيف كان ذلك يا عمى ؟

— كنت في القرية ، وكان على أن أذهب إلى قرية أخرى قبل غروب
الشمس لأمر هام ، فامتطيت جوادا ورحت أنهب به الأرض واعترضتني
ترعة فتحفزت لاجتيازها وثبا ، وقفز الجواد قفزة هائلة ولكنى لم أملك نفسي
فسقطت على الأرض .

فقالت عليه :

— أية أرض ؟

— الشاطئ الآخر للترعة .

— الترعة أم الجدول ؟

فاتسعت عينا محمود أفندى وقال :

— الترعة .

وخيم السكون ثانية ، ورمقت عليه حسينا بطرف عينا ، ثم ضحكت في
طلاقة الأطفال .

فقال محمود أفندى في استغراب :

— ما الذى أضحكك ؟

فقالت عليه في بساطة :

— خاطر سخيف .

— ما هو ؟

وترددت برهة ثم قالت وقد تفتحت وجهها :

— خطر لى أن أقوم وأدفع حسينا فى صدره حتى يغادر هذا السرير .
ونظر حسين إليها وأراد أن يتسم ولكنه عجز عن أن يفرج شفثيه ،
ومشت فى صدره سحابة من الكدر عكرت صفوه ولاح فى عينيه شroud .
وعاد سكون يسيطر على المكان ، وأخذوا يتبادلون النظرات ولم ينبس
أحدهم بكلمة ، ثم نهضت عليه وقالت :
— هيا يا عمى ، انتهى ميعاد الزيارة .

فقام محمود أفندى ووقف ينظر إلى ابنه وقد تحركت فى جوفه مشاعر
الحب ، وقالت عليه وهى ترنو إليه فى هيام :
— سنتظرك يوم الخميس لنحتفل بشفائك .

وصافحاه وخرجا ، وما إن غابا عن عينيه حتى شرد بصره . وانطلق ذهنه
إلى بيت خالته فحقق قلبه واستيقظت فى جوفه مشاعر الغرام . رأى هدى
ترقب وفوده فى شوق والوقت ينقضى دون أن يقبل فيمشى القلق فى صدرها
ويدثرها الضيق ، حتى إنها تهم بأن تسأل خالته عنه فيعقد الخجل لسانها ،

فأحس فؤاده يرق ، وراها وهي تنصرف بعد أن تياس من إقباله وهي مطأطئة
الرأس يخيم على كهف صدرها ظلام أشد حلكة من الظلام الذي يلف الطريق
الذي تضرب فيه ، فأشفق عليها وملئت جوانحه حنانا وتمنى لو أن له جناحين
يطير إليها الساعة ليكفيها ما ستقاسي من أشجان .

وقف محمود أفندى وزوجه فى النافذة انتظارا لمقدم ولدهما ، وكانا كلما أقبل ترام من العباسية اشربا عنقاها واتسعت عيونهما وطفقا يتفرسان فى الهابطين وفى جوفيهما جناح يرفرف ، وكانت الأم تلتفت إلى زوجها بعد أن يمر الترام دون أن يهبط منه ابنها الذى ترقبه فى تشوف وقلق وتقول :

- قلت لى إنه قادم اليوم ؟
- فيقول فى صوت خافت :
- أجل .
- ولكنه لم يأت إلى الآن ؟
- لم يحن أوان وفوده بعد .
- لو طاوعت قلبى لخرجت أبحث عنه .
- إنه لم يتأخر .
- أوافق أنت أنه سيأتى اليوم ؟
- وما الذى يعوقه عن الحضور ؟
- لعل كسره لم يجبر .
- قلت لك إننى رأيته سليما يوم الاثنين ، غادر المستشفى .
- ولماذا لم تأخذنى معك ؟
- لم تكن حالته تستدعى ذهابك .
- بل خشيت أن أراه وهو ..

— يا ليتنى أخذتك معى وأرحت نفسى .
— وما الذى يتعبك ؟ أنت هادئ أهدأ من الماء فى وعاء بينما النار تأكل أحشائى .

وتميز غيظا ، ولكنه صمت وكبت إحساساته ، ووقف الترام فراح يرصده فى لهفة ، ولم ينزل منه حسين فتضايق وأربد وجهه ، وخشى أن تفطن زوجه إلى ما اعتراه فتسلقه بلسانها فجاهد ليبدو هادئا مطمئنا .

وجعلت الأم تتلفت فى قلق وتقول :

— ترى أين أنت الآن يا بنى ؟

وتصرم بعض الوقت وهى تبدى وتعيد وهو صامت يتحلم ، ولمح ابنه قادما فقال فى نشوة كأنما انتشل من الغرق :

— ها هو ذا قد أقبل .

ومدت بصرها فلما رآته تطلق وجهها وطغت إحساساتها ف راحت تمور فى شدة ، وتبعته بنظرها فلما دلف إلى البيت هرولت إلى السلم تنتظره فى لهفة ، ورآته أمامها فخفق قلبها فى عنف وبسطت ذراعيها وضمته إلى صدرها وقد ابتلت عيناها بالدموع .

وقاموا إلى الغداء ، وأخذ يتحدث ويقص على أمه ما وقع له وأمه تصغى إليه بحواسها ، ورفع الطعام ودخل غرفته وخلا بنفسه فخطر له أن يذهب الآن إلى دار عمه يشكر عليه على زيارتها له فى المستشفى حتى لا يتأخر عن الذهاب فى المساء إلى خالته للقاء هدى ، ولكنه لم يحس حماسة لذلك الخاطر فأعرض عنه وشرع يفكر فى اللقاء المرتقب .

لم يطق أن يمكث حتى إدبار النهار فارتدى ثيابه وخرج إلى الشارع الذى تقطن فيه هدى ، وجعل يغلو ويروح أمام دارها يقلب عينيه فى النوافذ والشرفات وقد أرهفت حواسه ، كان يطمع فى أن تراه فتهرع للقاءه فيهدأ قلبه الملهوف .

وظل يذرع الطوار وصدرة حقل لمشاعر الالهة والشوق والقلق . وفكر أكثر من مرة في أن يقتحم الدار ويترك بابها يلتمس مقابلتها فيسترخ قلبه المفعم بالصباية ، ولكنه لم يقدم على إنفاذ ما دار في رأسه بل راح يقطع الطريق جيئة وذهوبا تعابته الآمال .

وبدأ الليل يرخي شعره الأسود الفاحم يحجب وجه النهار وهو يصوب عينيه إلى مدخل الدار ، ولحها تنساب في الطريق بقامتها الفاتنة فاشتد وجيب قلبه وتدفق الدم حارا في عروقه ، ووسع من خطوه ليلحق بها تهزه نشوة ، حتى إذا أصبح على قيد خطوات منها تمهل فقد تذكر أنها تفرع من محادثتها أمام الناس .

وراح يقفو أثرها ، فلما عرجت إلى الطريق الساكن الذي يخيم عليه الظلام هتف في رقة :

— هدى .

فالتفتت إليه مشرقة الوجه واندفعت صوبه وفي عينها بريق حلو ، وقالت له في حرارة :

— حمدا لله على سلامتك ، شغلني نبأ إصابتك .

فقال لها وهو يرنو إليها في وله :

— وأضناني حرمانى رؤيتك .

فغضت من بصرها وأطرقت وأصاحت إليه لتلتقط همساته . واسترسل في حديثه !

— يا طالما آتسنى طيفك في وحشتي ، ما كان يغادرني في الليل أو في النهار .. في مثل هذه الساعة من يوم الخميس جعلنا نتناجى أعذب مناجاة ، تمنيت لو منحني الله جناحين أطير بهما إليك لأجنبك ما قد يعتريك من قلق . فقالت وهي مطأطئة البصر :

— علمت بما أصابك يوم الثلاثاء .

— كيف ؟

— كنت في زيارة خالتك ، وما أن قعدت بعد مصافحتها حتى قالت لي إنك سقطت عن ظهر جوادك فاضطربت ، وزاد في اضطرابي أنني فطنت إلى أنها حزرت ما بيننا .

— ليس بيننا يا هدى ما نخشى أن نعلنه ، قلب هفا إلى قلب ، ما أعذب أن تتآلف القلوب .

— انتابني قلق وهم وقعدت ساهمة ، وخشيت أن تلحظ خالتك كأبتي فاستأذنت وانصرفت ، وخلوت إلى نفسي وفكرت في الذهاب لعيادتك واستولى عليّ ذلك الخاطر واستبد لي ، وجاء يوم الخميس فخرجت وأنا مضطربة وركبت الترام مسلوبة الإرادة . وانطلقت في الطريق الواصل بين شارع العباسية وكلية البوليس وأنا مأخوذة ، فلما دنوت من باب الكلية جعل قلبي يقفز حتى يكاد يطير من صدري ويهبط حتى يصل إلى قدمي ، وانتبهت إلى نفسي وخيل إلى أنني استيقظت من الحلم الذي كنت فيه فشعرت برهبة وخوف ، فدرت على عقبى وأغلذت السير فرارا من الخاطر الجريء . فقال لها عاتبا :

— لماذا نكصت وحرمتني أسعد ساعات الوجود ؟

— كاد خجلي يقتلني .

— آه لو جئت .. كنت ذهبت إلى الجواد الذي كبا لي وغمرته بقبلاقي . وبلغا دار خالته فلم يعرجا عليها ظلا يضربان في الطريق الهادئ الذي دثره الليل بثوب أسود ، لا يهتك سواده الأضواء الخافتة المنبعثة من مصابيح واهنة تلفظ أنفاسها في خفوت .

ولس كتفه كتفها وملأ عيبرها خياشيمه ، فغمغم وهو مغمم بالنشوة :
— ليت هذه اللحظة تلوم .

وسارا صامتين ينعمان بالسعادة التي غمرتهما ثم قال :

— هدى أشتى أن أراك غدا .

فقال في صوت خافت :

— أين ؟

— فى أى مكان يروقك ، ولو كان فى القمر .

فشردت ببصرها قليلا ثم قالت :

— لا أدرى لماذا أخشى أن أقابلك فى النهار ، بيت العزم على أن ألقاك يوم

تواعدنا على اللقاء فى حديقة الحيوان ولكن ما أشرقت الشمس حتى تقوض

عزمى وخارت قواى . لم يسبق لى أن حادث أحد فى الطريق لذلك يخيل لى

أننى إذا قابلتك سيصوب الناس لى نظراتهم المتهمة ، ولئى لا أحتمل نظرات

الافتهام .

— هدى ! ما هذه الأوهام ؟

— إننى أخشى الناس .

— اطمئنى ، سنذهب غدا صباحا إلى السيينا ونقابل هناك فى الظلام .

وكانا قد بلغا الطريق العام الذى فضحت مصاييحه المتألفة فحمة الليل

وحولته إلى نهار فخفف من خطوه ، وانتظر أن تودعه هدى وتنطلق وحدها

فرارا من أعين الناس ولكنها ظلت إلى جواره تسير دون أن تفرع ، فشعر

بنشوة تغمره وتدغدغ حواسه .

ارتدت عليّة ثوباً من ثيابها الفاخرة ، وجلست أمام المرأة تصفف شعرها الذهبي وتديم النظر إلى صقال المرأة ترنو إلى حسنّها ، حتّى إذا اطمأنت إلى روعتها قامت تخطّط في الحجرة بقوامها المشوق البديع وذهبت إلى الردهة الخارجيّة تنتظر قدوم حسين بعد مغادرته المستشفى ، فقد كان اليوم يوم الخميس .

ألقت برأسها الجميل إلى الوراء واسترخت في مقعدها الوثير وضيقّت عينها الزرقاوين وراحت تقطع الوقت بالتأمّلات ، فألّفت حسينا في خيالها يقبل بقامته الطويلة ووجهه الذي يحاكى وجوه الأطفال يعبث في شاربه الأصفر الغزير ، فتهرع إليه تحبّه في شوق تضمه إلى صدرها وتلثمه في حنان . وتحرّكت في جوفها إحساسات الحب الفوار فلجّت في تصوراتها مشرقة النفس مفتوحة الآمال ، فرأت حسينا يضع كفيه على خديها ويرنو إليها بعينيّه الواسعتين السوداوين وفيهما هيام ، ويدنو منها ويلثمها في شوق وهو يغمغم في وجد :

— أحبك .. أحبك يا عليّة .

فتبادله القبلات وتقول وهي تحس كأن ناراً تندفق إلى وجنتيها ورأسها :
— كنت يا حسين روحى على الدوام .

فتسرى فيها موجة من الرضا ، وتقوى عين خيالها فترى الصور الحبيبة إليها في جلاء ، إنه يضع يده في جيبه ويخرج عليّة مكسوة بالخمل الأحمر ويفتحها ويتناول منها خاتماً ذهبياً ، يأخذ أصبعها بيده في حنان ويلبسها خاتم الخطبة

وقد افتر ثغره عن ابتسامته الودیعة ، فشعرت وهى فى مقعدها بقلبها یدق دقات الفرح ، وفاضت منابع النشوة حتى ملأت جوانحها وطففت على صفحة وجهها الرائع الجمیل .

واسترسلت فى تصوراتها فألفت حسینا يأخذها من یدها ویذهب بها إلى حیث یجلس أبواها وهو فرحان ویریهما الخاتم فى إصبعها وهو مشرق الوجه ، فتقوم أمها إليها وتضمها إلى صدرها الحنون وتلمعها فى وجنتها ودموع الفرح تترقرق فى مقلتها ، وتغغم فى انفعال :

— مبارك ، هذا أسعد یوم فى حیاتی .

ویتقدم أبوها إليها ویقبلها فى جبینها قبله أودعها حبه ثم یتقدم إلى حسین ویمسكه من كتفيه وینظر إلیه وفى عینه فرح ، ویقول له فى نبرات متهدجة :

— یسعدنى أن تكون زوجا لعلیة ، إلی أبارك هذا الزواج .

وقال حسین وهو یحدها بنظراته الحارة :

— لا أدرى کیف أطیق أن أصبر الشهور الباقیة .

واستغرقت فى تخیلاتها فراحت تنعم بمشاعر البهجة ، وسمعت وقع أقدام فأفاقت إلى نفسها ونظرت فرأت إجلال مقبلة ، فاعتذلت فى مقعدها ووجهها ینطق بالبشر والسعادة ، وجاءت إجلال وحیتها وهى تقول :

— لا بأس من أن أصفحك ولو أنك لست فى انتظاری .

فقال علیة فى مرح :

— ما كنت أنتظر غیرك .

— ما الذى یدعوك إلى انتظاری وما أنا بفارس تفهؤ إلیه قلوب العذارى ؟

فقال علیة وهى تبتسم :

— سواد عینیک .

فقال إجلال وهى ترمقها بطرف عینها :

— أو شاربى الأصفر .

فأشرق وجه عليه وقالت :

— إجلال اعقلي .

فقال إجلال في فزع تمثيل :

— أعقل ! لست كبيرة إلى هذا الحد ، لا زلت طائشة .

— وستظلين طائشة .

فرفعت إجلال أكف الضراعة ، ومدت بصرها إلى السماء وقالت في

ابتهاال :

— اللهم آدم علينا نعمة الطيش .

فقال عليه في إنكار :

— عليك وحدك ..

— ما الذى يفزعك هكذا ؟

— أخشى أن تكون أبواب السماء مفتحة فيستجيب الله دعائك .

فقال إجلال وهى تغوص فى مقعدها وتضع ساقا على ساق :

— يا ليت ! الطيش والشباب توأمان ، فإذا دام الطيش دام الشباب .

وأخذت يتحاوران وتصرم الوقت ، وبان فى وجه عليه قلق وأخذت تلتفت

إلى الباب بين لحظة وأخرى ، وفطنت إجلال إلى ما اعترأها . فقالت :

— ما بال حسين قد تأخر ؟

فقال عليه تطمئن نفسها :

— لا بد أن يأتى ، دعوته لنحتفل بشفائه وقد علمت أنه خرج من

مستشفى الكلية يوم الاثنين .

واستأنفا ما كانا فيه من حديث وشردت عليه مرات ، خطر لها أنه لن يأتى

فقد انقضى من الليل ساعات ، فانتابها ضيق وأقبلت على إجلال تحادثها

لينقشع ذلك القلق الذى احتل صدرها ، ولكن هيهات فقد أخذ القلق يتكاثر

ويتكاثر حتى ضاق به جوفها فشعرت كأن جمره نار وقفت فى حلقتها ،

وقنطت من مجيئه فقالت فى أسى :

— لن يجىء اليوم .

فقالت إجلال وهى تنهض :

— لعله لا زال يقاسى من أثر السقطة .

وانصرفت إجلال وبقيت عليه وحدها فريسة لأفكارها السى راحت
تضنيها ، احتلت ذهنها مشاهد ذلك اليوم الذى ذهبوا فيه إلى القناطر فرأت
نفسها وهى قاعدة فى الزورق إلى جواره وهو مغرق فى الصمت . لم يقلقها
صمته فى ذلك اليوم ، فيا طاملا جلس إليها دون أن ينبس بكلمة ، ولكن ذكرى
ذلك اليوم تجعلها تضطرب فى مقعدها ، خيل إليها الساعة أن حسينا الذى كان
معها فى الزورق يختلف عن ابن عمها الذى عاشت معه سنين عمرها ، إنها
لترى كأن حائلا قام بينه وبينها .

وسرح خيالها إلى يوم ذهبت لعيادته ورن فى أذنيها ما دار بينهما من

حديث :

— ألا تدرى يا حسين لماذا سقطت عن ظهر حصانك ؟

— لا .

— لأنك لم تزرنا يوم الخميس .

وتذكرت الصمت البغيض الذى ساد المكان فجرى الدم حارا فى عروقها
وشعرت بعرق الخجل ينبثق من جبينها وسرت فى بدنها رعدة . إن حسينا لم
ترقه دعابتها ، فلو أنها راقته لعلق عليها ولما صمت ذلك الصمت المطبق الذى
جرح كبرياءها .

وعجبت لنفسها كيف لم تفتن إلى ذلك الفتور الذى انتابه فى الأيام
الأخيرة ، انطفأ ذلك البريق الذى كان يتألق فى عينيه كلما رنا إليها وran على
وجهه هدوء يختلف عن هدوئه السابق ، هذا هدوء المعرضين وذاك هدوء
القلقين الذين يعتمد فى صدورهم إحساسات نابضة بالحياة .

واستبدت بها أفكارها فراحت مشاعر الحزن تزجر في جوفها وتعصف
بها ، ولم تستطع أن تحتمل هواجسها التي راحت تخز روحها وخز اليمام فقامت
إلى المعزف تعزف لحنا حزينا وما انبعثت الأنغام حتى هيجت شجونها فترقق
الدمع في مقلتيها فأحست كأن قطرات من الماء البارد انسكبت على النار
المندلعة في أحشائها .



وتحركت في جوفها إحساسات الحب الفوار ، فليجت في تصوراتها

راح يتمشى أمام دار السينما ، وينقل عينيه في الوافدات والواقفات في الردهة وينظر في ساعته ويتلفت ، كان يتلهف على حضورها ويخشى أن يحول خجلها بينها وبين موافاته في الميعاد ، وراح ينقل قدميه في ملل ويغدو ويروح في قلق وقد غلفت صدره رهبة تبدت في نظراته الحائرة .

وخطر له أن يشتري تذكرتين حتى إذا جاءت دلغا إلى السينما دون أن يقفا معا في عرض الطريق أمام الناس ، فاتجه إلى الشباك وما أن بلغه حتى نكص على عقبيه وراح يتلفت ، خشى أن يشتري لها تذكرة ثم لا تجيء .

وجعل يجوس خلال الواقفين في الردهة ويحملك في الوجوه ، وانتابه ضيق ولكنه لم يقنط فلا زال أمل مجئها يرفرف بين جنبيه وسار قليلا في الطريق المنتظر أن تقبل منه ثم قفل عائدا واتجه إلى الشباك واشترى تذكرتين .

ووقف يتربص مرهف الحواس بمد بصره الحديد إلى نهاية الطريق ، ولحها قادمة فتفجرت في نفسه ينابيع السعادة وأحس خفة وهم بأن يذهب إليها يقابلها ، ولكنه كبح جماح نفسه وجعل يتبعها بنظره خافق الفؤاد . ودنت منه فلما لمحتة أشرق وجهها بابتسامة عذبة ، فتطلق وجهه وتحرك ليصافحها في حرارة ، فلما أومأت برأسها الجميل محمية رد عليها تحيتها بانحناءة خفيفة ، وسار إلى جوارها نشوان .

وراحا يخترقان الجموع المتكدسة في الردهة وقد طأطأت بصرها ، ولح شبانا يتطلعون إليهما في فضول ، فاجتاحته موجة من الغضب سرعان ما هدأت وانتشرت في جوفه مشاعر الزهو والارتياح فما جذب أبصارهم

إلا جماها الرائع ، وما تلك النظرات المتطفلة إلا تزكية لذوقه ، إنه ولا شك محسود .

وقعدا وكفنه يلمس كتفها ، ونظرت أمامها وشرد يبصره يتمتع بالسعادة التي تفتحت في صدره تفتح الورود لقبلات ندى الربيع ، وظلا صامتين وأراد أن يداعبها فهمس دون أن يلتفت إليها :

— ماذا يحدث لو تناولت يدك ووضعتهما بين يدي ونظرت إلى عينيك الساحرتين وأخذت أسمعك حديث القلب ؟
فقال في حياء وقد خفضت بصرها :

— أوه حسين ، الناس حولنا .

فهمس وهو يميل نحوها :

— لا أرى أحدا غيرنا .

فهمست وهي تبتسم :

— لا أجد مقعدا خاليا .

وتلفت حوله ثم قال :

— أصبت بالعدوى .

فقال في لفة في صوت خافت :

— أية عدوى ؟

— أصبحت أهفو مثلك إلى الظلام .

فرفت على شفيتها ابتسامة مشرقة ووضحت غمازاتها فزادت تألقا ، فأحس قلبه يخفق في غبطة ويمده بمشاعر حيوية لذينة .

وأطفئت الأنوار وساد القاعة ظلام وانبعثت الأنغام الموسيقية مجلجلة قبل بداية العرض ، فدنا منها وقال :

— ها قد رددنا إلى جونا ، أتمنى لك أسعد التصورات .

وراح ينظر إلى الشاشة وهو حالم يرى ما يجرى في خياله أوضح مما يجرى

أمام عينيه على الشاشة البيضاء . وانداحت في صدره إحساسات شهية وحلق في سموات وردية من الأحلام فسربلته نشوة ومشى فيه خدر يهدد الحواس .

وظل ينعم بسعادته الفياضة حتى إذا أضيئت الأنوار في الاستراحة نهض وتركها وحدها وذهب إلى المقصف يشتري لها شيئا ، وأخذ يقلب عينيه في الوجه الزجاجي للمقصف فرأى أن يشتري شيكولاته .

وفيما هو منطلق في الردهة الطويلة قفزت إلى ذهنه صورة خفق لها قلبه في شدة وانقبض صدره وأحس خوفا ، رأى نفسه وعلية وهما يسيران في مسالك حديقة الحيوان يتسامران وعلية تهرع إلى بائع الشيكولاته تشتري منه قطعتين وتقدم له قطعة ، فيتناولها منها في اضطراب .

أحس جفافا في حلقه يسرى في بدنه سريان الكهرباء ، فخفف من خطوه حتى ينقشع ذلك الاضطراب الذى هيجه الخاطر المتطفل المقتحم لحظات الصفاء بلا استئذان ، وبقي مدة وهو يشعر بضيق يحاول أن يطرد طيف عليه الذى جثم على ذهنه لا يريد براحا .

وتقدم في ببطء ، فلما وقعت عيناه على هدى ذهب قلقه وانتشرت في صدره إحساساته الحبيسة ، وقعد في مقعده وناولها شيكولاته غمزا وأخذ يرنو إليها فرحان .

وأطفئت الأنوار وبدأت الرواية . كانت تدور حول شاب تعرف بشقيقتين فشرع يخرج معهما إلى الحدائق ، فأحبته الأختان ولكنه شعر بحب لإحدهما فكان يبدى لها حبه ، والأخرى تتألم في صمت .

وفي ذات يوم ارتكب جريمة قتل عن غير قصد وخشى أن يواجه القانون ففر إلى بلد ناء وأخذ يعمل حتى كون ثروة ، وأحس حنيناً إلى حبيبته فبعث إليها رسالة يستدعيها ، كانت حبيبته ترقب هذه الرسالة فما إن سمعت بوصولها حتى أخذت تتأهب للرحيل ، وطفقت الأخرى تذرف دموعها في صمت .

وفضت الرسالة وقرئت فبان الدهش في وجوه الجميع ، كانت الدعوة للأخت التي لم يتودد إليها ولم يمنها بالزواج ، وفرحت الفتاة وأخذت تجمع حوائجها في بشر ثم سافرت للقاءه .

وقف في المرفأ يرقب وفودها وجعل يبحث عنها بعينه بين الجموع المحتشدة فوق سطح السفينة ، فلما وقعت عليها عيناه لاح في وجهه حيرة ، إنه لم يستدعها ولكنه استدعى حبيته التي خفق بحبها فؤاده ، وراح يفكر في رسالته فتذكر أنه أخطأ في ذكر الاسم دون أن يدري .

وقابلها وهو حائق ولكنه كبت شعوره وعزم في قرارة نفسه أن يعيدها على أول سفينة ، ومرت الأيام وهو يعيش معها حتى إذا حان ميعاد إقلاع السفينة كان قد اكتشف حقيقة عواطفه ، إنه يحبها هي لا أختها فأبقاها معه ، وأبحرت السفينة وهما على المرفأ يرقبانها وهي تختفي في الأفق البعيد .

وأضيئت الأنوار وأخذ الناس يسارعون في الانصراف ، وجلس حسين وهدى يتحادثان في غفلة من العيون ، فقال لها :

— ما رأيك في الرواية ؟

— لطيفة ؟

— ولكنها لا تحدث إلا في خيال المؤلفين .

— لماذا ؟

فقال في بساطة الواقفين :

— إنهم يعتقدون مشاكل القلب ، ما من إنسان لا يعرف حقيقة عواطفه .
— قد يختلط الأمر .

— لا أظن ، ما أيسر أن نعرف من نخبهم ومن نكرهم .

ونهضا ، وسارا في تودة كأنما يريدان ألا ينتهى الممر الطويل ، وبلغا الباب

الخارجي فالتفتت إليه وقالت :

— إني ذاهبة .

— وحدك ؟

— لا أستطيع أن أسير معك في الطريق .

— مع السلامة ، وإلى اللقاء يوم الخميس .

وجاء يوم الخميس فذهب حسين إلى داره تداعبه أحلام وتلأ نفسه الأمانى ، فكر طوال الأسبوع فى هذى فكانت تزوره فى شكول أججت نار الصبابة فى فؤاده ، وجعلته يعزم على أن يقاتحها فى أمر الزواج .

كانت حياة الكلية خير معوان لإذكاء نار حبه . فقد كان طيفها يحيا فى نفسه ساعات خلوته وما أكثر هذه الساعات لمن يعيش فى حيز محدود مغلق لا تتجدد مشاهدته ، وكانت ترافقه فى غدوه ورواحه تفعل ما يريد خياله وتقول ما يرضى فؤاده ، فهام بها حبا لأنها من خلق هواه .

وكانت لحظات اللقاء القصيرة التى تومض فى حياته وميض البرق فى السماء خميرة أفكاره ، تربو فى ذهنه على مر الأيام وتشعب وتتغلغل فى نفسه وهو يغذيها بروحه ، فتعمقت جذورها فى أعماقه حتى أصبحت راسخة رسوخ الجبال .

إنها تتمثل فى ذهنه فى الصور الحبيبة التى ابتدعها فكره ، ويراه فى الواقع بعين خياله فيشرح لها صدره وتهفو إليها كبده ويحقق قلبه خفقات الوله والهيام . كان يعشقها وهو لا يدري عشق الفنان لتحفة بديعة من خلقه لا تقع عينه منها إلا على الجمال .

تحلقوا حول المائدة وأخذوا يتناولون الغداء ، فأكل محمود أئندى لقيمات ثم كف عن الطعام وراح يتحدث ، فقالت له زوجه :
— ألا تأكل ؟

— إذا ملأت بطنى الآن تعذر على تناول العشاء .

- كل وتعش عشاء خفيفا .
- كيف أتعشى عشاء خفيفا وأنا مدعو عند كمال .
- والتفت إلى ابنه وقال :
- كلمنى عمك ودعانا لثمضى الليلة عندهم .
- و غامت صفحة وجه حسين وأحس ضيقا ، إنه يرقب هذه الليلة الحبيبة بصبر نافذ ليقابل من خفق بجها الفواد .. وهذه الدعوة التى هبطت على رأسه على غير انتظار تحرمه أمانيه وتلك اللحظات الشهية التى يداعبه طيفها فى الليل والنهار ، فقال فى انفعال :
- لن أذهب الليلة .
- لماذا ؟
- واعدت بعض أصدقائى على اللقاء .
- ولكن قبلت دعوة عمك .
- اذهب أنت واعتذر لهم .
- كيف أعتذر ؟
- قل لهم لم آت إلى البيت فى الظهر لأنى كنت مدعوا عند صديق .
- فحدجده أبوه بنظرة نكراء وقال :
- ما شاء الله .. تعلمنى الكذب بعد هذا العمر الطويل !
- فقال حسين فى غضب وقد خفض بصره :
- قل لهم ما تشاء فلن أذهب الليلة .
- ونظرت أمه إليه فحزرت ما يعتمل فى صدره وخشيت أن يتطور الحديث بينهما فيكاشف أباه كما كاشفها بأنه لن يتزوج عليه فتحل الجفوة التى تخشاها ، فقالت لابنها فى رقة :
- قابل أصدقاءك ، ثم اذهب بعد ذلك إلى دار عمك .
- فقال محمود أقندى وقد لوى شفته السفلى :

إننا مدعوون على العشاء لا على السحور .

فقال حسين في حلق :

— لكأنما كتب على أن أمضى عمرى بين جدران الكلية وسجن الزمالك .

فنظر إليه أبوه في دهش وقال :

— سجن الزمالك ؟! . إن أمرك عجيب لأنهم يدعونك ليرفها عنك .

فقال حسين وهو يلوح بيده في تبرم :

— إن خير ما يفعلونه أن يدعوني وشأنى .

— وهل كبلوك في الحديد ؟

— هذه الدعوات المتلاحقة تقيد حريتى .

— عيهم أنهم دلولك .

— وأنا أمقت التدليل .

فنظر محمود أفندى إلى ابنه وفي عينيه حيرة وقال له :

— ما بالك اليوم ؟

فقالت أمه :

— إنه مكدود .

وأطرق حسين ولم ينبس بكلمة .. وقام محمود أفندى وهو يعجب من أمر ابنه يتساءل عما انتابه فلا يجد جوابا .. كان يحسب أن دعوة عمه له تفرحه وتشرح صدره فإذا به اليوم يكتشف أنها ثقيلة على نفسه .. تقلقه وتجعله يفقد أعصابه .

ونهضت زوجة لتصلح ما أفسده ابنها ، فدنت منه وقالت :

— إنه مجهد .

— إنه تغير .. لم يعد حسينا الذى كان أطوع لى من بنانى .

— لا يزال كما كان ولكنه تعب .

— وماذا أقول لكمال ؟

— لا شيء . اذهب أنت وسيلحق بك بعد أن يستريح .

— أخشى أن يخرجني .

— لن يخرجك أبدا ، إنه سيذهب .

وشعرت بقلق يمشی في صدرها فقد تذكرت الحديث الذي دار بينه وبينها لما فاتحته في أمر زواجه من علية ، وجعلت تغالب قلقها وتحاول أن تنده في نفسها ولكنه راح ينداح في جوفها حتى استولى عليها .

ودخل محمود أفندي غرفته ، وذهبت الأم إلى حسين وقالت له معاتبة :
— لقد أغضبت أباك .

— لا أجد سببا لغضبه . دعيت إلى العشاء ومن حقى أن أعتذر .

— ما قبل الدعوة إلا لأنه يعرف أنها تسرك ، فلا بد أن تذهب معه .

— لا أستطيع أن أذهب الليلة .

— ماذا وراءك ؟

وأحس بالدم يتدفق حارا في عروقه وبرغبة في أن يفضى إليها بمكنون صدره ليواجه العاصفة مرة واحدة ثم يستريح ، فقال في صوت متهدج وقد زاغ بصره وإن حاول أن يبدو هادئا :

— ذاهب للقاء خطيبتى .

فأحست كأن جدارا انهار على رأسها ، وكأن أوعية الرهبة والقلق والضيق انفجرت في جوفها فامتزجت ، وامتقع وجهها ، ولكنها لم تشأ أن يفلت منها زمام نفسها فصمت برهة حتى استجمعت أفكارها التي شتها المفاجأة وقالت :

— عيبك أنك تخلط الجدد بالهزل .

فقال في هدوء :

— إنى لا أهزل .

وساءها أن يخطب دون أن يقول لها ، فقالت له في صوت فيه رنة استياء :

— ومن خطبها لك ؟

— لم يخطبها لى أحد .

— خطبتها بنفسك !؟

— لم أخطبها بعد ولكنى رأيتها فأعجبتي ، وأريد أن تذهبي لتطلبى لى يدها .

فأحست راحة فما أقدم على الزواج كما حسبت دون أن يستشيرها ،
وقالت وقد ردت إلى طبعها :

— اسمع نصيحتى يا حسين ، لن تجد مثل علية .

وشعر بدم حار يجرى فى عروقه وبقلبه يخفق خفقات ، وقال فى صوت
خافت :

— لنها ليست لى .

— لماذا ؟

— حياتى تختلف عن حياتها ، وأريد امرأة تخدمنى لا امرأة أخدمها .

— إنك تظلمها .

— بل أظلمها لو تزوجتها ، سأرغمها على أن تضحي بحياتها الرعدة لتحيا
حياتى .

— ما ألد التضحية على قلب المحبين ، إنها تحبك .

فقال فى مرارة :

— حبها لدميتها .

— يا لقسوتك ! تحطم قلبا بهواك .

— بإحجامى عن زواجها أصون حياتها ، فهل من القسوة أن أصون

حياة !؟

— فكر جيدا ، إنك ضحية أوهام .

(النقاب الأزرق)

فكرت ووجدت في هذا الزواج شقائي ، فإن أردتم شقائي فأرغموني على هذا الزواج .

فأحست جنانا يملأ جوانحها فقالت في رقة :
— إننا لا نبغى إلا سعادتك .

— سعادتي أن أتزوج من أهواها .

— لو كنت واثقة من أنها تسعدك لآزرتك بكل قواي .

— ستسعدني ولا شك .

— وما أدراك ؟

— قلبي .

— الدليل الأعمى الذي يخبط على هواه .

— وكيف يتزوج الناس إذا لم يكن بوحى قلوبهم ؟

— يتزوجون بعد سلسلة طويلة من الاستقصاءات عن أهل العروس وعن

العروس ، فالزواج ليس نزهة من النزهات .

فقال لها وهو يرنو إليها في عطف

— ومن ذا الذي سيقوم بهذه الاستقصاءات غيرك ؟

— لو تصدرت لذلك غضب أبوك وأنا لا أريد أن أغضبه .

فقال لها وهو يلتصق بها كطفل مدلل :

— ليس لن أحد سواك .

— لو سمعت نصيحتي لما تزوجت غير ابنة عمك .

فقال في ملل .

— أوه ، سنعود إلى ما انتهينا منه .

ولم تشأ أن تضايقه فقالت له :

— وما اسم هذه التي تريد أن تتزوجها ؟

— هدى .

- ابنة من ؟
— لا أدري .
— أتتزوج فتاة لا تعرف أهلها ؟
— سأتزوجها هي لا أهلها .
— حاذر يا حسين ، لا زلت صغيرا .
فنظر إليها في إشفاق وقال :
— لست صغيرا عن الزواج .
— صغيرا عن أن تختار بنفسك زوجة .
فقال في اعتداد :
— وأكبر من أن أخضع لرغبات تنافي رغباتي .
وساد السكون برهة .. وأخذوا يتبادلان نظرات قلقة ثم قالت :
— وأين قابلتها ؟
— عند خالتي .
— يا للمصيبة !
— ماذا ؟
— سيقول أبوك إننا زوجناك .
— إذا كنت تعلمين أنك ستكونين موضع اتهام ، فلماذا لا تعاونيني بدلا
من أن تعرضي عني وتتحملين اتهاما ظلما ؟
— لأنني لا زلت أعتقد أن عليـة خير زوجة لك .
فقال في غضب وهو ينهض :
— أوه .
ودخل غرفته وأغلق عليه بابـه ، وبقيت أمه مطرقة تفكر فيما دار بينهما
فشعرت بقلق وحيرة ، وراحت حيرى بين ابنها وزوجها .. ابنها مقبل على
أخطر ما يقدم عليه رجل ولا يجد من يهديه إلا قلبه ، فلو استمعت إلى عقلها

لذهبت إلى من يرغب في الزواج منها ورأتها واستقصت عنها مجتنبه ابنها الحبيب
التردى في هاوية ليس لها قرار ، ولكنها إذا استجابت لأمومتها أغضبت
زوجها ، سيئهما بأنها حرضته على الزواج من غير عليّة لأنها تكره أمها فيا
طالما اتهمها بكره سنية .. وظلت مدة ككرة تتقاذفها الأيدي لا تستقر ولا
تهدأ .

وخطر لها أن تفضى لزوجها بعزم حسين فتبرئ نفسها ، ولكنها خشيت
أن تكون المنفاخ الذى ينفخ جمرات النار فتزيد ضرارها قبل الأوان ، فرأت أن
تطوى صدرها على مناجاة ابنها لها وتنتظر الأيام ، فقد يعود إلى رشده ويقبل
الزواج من ابنة عمه دون إثارة أقاويل قد تخلف في النفوس آثارا .
وبقيت مرتعا للأفكار حتى خرج إليها زوجها فمشى في جوفها قلق ،
خشيت أن يفضح وجهها ما يعتمل في صدرها ، ولكنه قال وهو في طريقه إلى
الباب :

— ذاهب إلى القهوة ثم إلى الزمالك ، قولى لحسين يلحق بى هناك .
وأغلق الباب خلفه ، فثارت مخاوفها وباتت تخشى ما قد يقع إذا أصر ابنها
على عدم الذهاب .

ومر الوقت وهى فريسة لأفكارها التى أخذت تضنيها ، وأقبل عليها ابنها
ووقف أمامها منتصبا وقال وهو يتسم :

— هل أعجب خطيبتى ؟

فقال فى مرارة :

— حسين ! الأمر أخطر مما تظن .

— وما وجه الخطورة فى الأمر ؟

— الزواج بمن لا تعرف مغامرة يحفها أهوال .

— إني أعرفها أكثر من نفسى .

— ستغضب أهلك .

- غضبهم أهون من شقائي .
وصمتت أمه على مضض ، وتحرك ليخرج وهي تتبعه بنظرات حائرة ،
وقبل أن ينساب إلى الخارج هتفت :
— حسين .
فالتفت إليها فقالت في نبرات مضطربة :
— لي عندك رجاء !
— ماذا ؟
— أن تذهب الليلة إلى دار عمك حتى لا تخرج أباك .
— ذاهب إلى خطييتي ، وخطييتي لا تقطن في الزمالك .

راح حسين يقطع الطريق الهادئ المنساب إلى بيت خالته وهو نشوان يحس
راحة لإفضائه بسر قلبه وسرورا يملأ جوانحه ، وراحت الرؤى البهيجة تطوف
برأسه فخيّل إليه أن وزنه قد خف وأنه ارتفع ليهم بين الأرض والسماء .
ودلف إلى البيت وأخذ يصعد في الدرج في خفة الطيف وطرق الباب
طرقات خفيفة تنم عن الفرح ، وما أن فتح الباب حتى دخل في مرح ولو
طاوع نفسه لصفر في ابتهاج . ولمح خالته قاعدة بالقرب من النافذة فذهب
إليها وحياها في اشتياق ، فقالت له في عتاب :
— انتظرتك يوم الخميس لأهنتك بالسلامة واطمئن عليك ، ولكنك لم
تأت .

فقال وهو يتسّم :
— قابلني بعض الأحبة فسرقني الوقت .
— ذهبت إلى الزمالك ؟
فشعر بخفقة في جوفه سرعان ما انقضت فقد بددتها بهجته ، فقال :
— لم أذهب إلى هناك من أسابيع .
وأطرق برأسه ، ورنّت إليه خالته رنوة فلمحت البشر في وجهه فرأت أن
تتبسط معه فقالت له :

— لم تأت هدى يوم الخميس الفائت كأنما كنتما على اتفاق .
فنظر إليها فرأى في عينيها صفاء ، فرفت على شفّيته ابتسامة لطيفة وقال :
— ما رأيك فيها ؟

— لم أر منها شيئاً أنكره .

فقال في حماسة :

— إنها فتاة رائعة تختلف عن فتيات اليوم .

وسمع طرق على الباب فقالت خالته وهي مشرقة الوجه :

— ها هي ذى قد أتت ، لم تختلف الميعاد .

وأقبلت هدى في ثوب من الحرير المشجر أبرز جمال تكوينها ، ووصفت شعرها الأسود في عناية قبدا وجهها فاتنا جذابا ، وما وقع بصرها على حسين حتى أشرقت عينها الواسعتان بابتسامة ، وفطنت الحاجة إلى النظرات الوالهة فتشاغلت عنها لحظة ثم قالت :

— لم يرك أحد يوم الخميس .

فقالت هدى وهي مطأطئة البصر :

— جاءنا ضيوف شغلوني عن الحضور .

فنظرت الحاجة إلى حسين وقالت :

— ضيوف أعزاء .

ونفضت تعدلها شيئا تقدمه وتخلي لهما الجو ، وما غابت عنهما حتى شعر حسين بمشاعر تمور في جوفه فالتفت إلى هدى وقال :

— هدى !

— نعم .

— أحبك .

فأسبلت عينها وانبسبت أساريرها ولاحت على وجهها أمارات الابتهاج ، فأخذ ينظر إليها تتجاوب في جوفه زغاريد النشوة ثم قال :

— هدى ..

فافتقر ثغرها عن اللؤلؤ المنظوم وقالت في رقة :

— نعم .

— أريد أن أفضى إليك بخير هام .

— قل ، كلى أذان .

فتلفت حوله وقال :

— لا أستطيع أن أتحدث هنا ، سأنتظرك فى الطريق .

وصمتا وعيونهما تتجاجى ، وجاءت الحاجة تحمل صينية صغيرة عليها
صحفة بها جواقة وكوب ماء ، فتناول حسين واحدة واعتلرت هدى ،
فقالَت الحاجة لحسين وهى تبتسم :

— قل لها أن تأخذ واحدة .

فغضت هدى بصرها حياء ، والتفت حسين إليها وقال وهو يدفع إليها

بواحدة :

— تفضلى .

فأخذتها وراحت تقضمها فى صمت ، وأخرج حسين ساعته ونظر فيها
فقالَت له خالته :

— ماذا وراءك ؟

— موعد مع صديق .

ونفض مستأذنا وانصرف ، وبقيت هدى تتلفت وتتململ فى جلستها ،
ولاحظت الحاجة قلقها فقامت لها فى رقة :

— اذهبى ، إنه ينتظرك .

ودهشت هدى ونظرت إلى الحاجة بعيون زائغة ، ولكنها قامت
وصافحتها وانصرفت وهى تغذ السير لتلحق بمن يرقب هبوطها نافذ الصبر
خافق القلب مرهف الحواس .

ووقفت على وصيد الباب ومدت بصرها فلمحته قادما إليها ، فانسابت
إليه فى خفة وانطلقا معا فى الظلام ، وأحس اضطرابا يلقيه فصمت حتى إذا
أفرخ روعه قال :

- ماذا يقول أبوك يا هدى لو رآنى أطرق بابكم غدا ؟
فقلت فى بساطة والابتسامة العذبة تتوج فمها اللقيق :
— سيقول لك تفضل .
— فأقول له : جئت أطلب يد ابتك ، فماذا يقول لى ؟
فصمتت ولم تحر جوابا فقال فى رجاء :
— ماذا يقول يا هدى ؟
فقلت فى صوت خافت يشى بالفرح :
— تشرفنا .
— ما أسعدنى لو كان الأمر بهذه البساطة .
— وماذا تظن أنت ؟
— سيقول لى : دع بطاقتك من فضلك حتى نسأل عنك .
— وماذا فى ذلك ؟
— إن ذلك يضايقنى .
— لماذا ؟
— لأننى لا أملك بطاقة فلا زلت طالبا لم أخرج بعد .
فضحكت هدى وقالت :
— من أعلمك أنك ستقابل أبى إذا طرقت بابنا ؟
— فمن سأقابل إذن ؟
— قد يكون أبى غائبا فتقابلك أمى .
— فماذا تقول أمك إذا قلت لها إننى جئت أطلب يد ابنتها ؟
فقلت هدى فى انشراح :
— تقوم وتقبل خديك .
واجتاحتهما موجة من الغبطة فراحا يتبادلان النظر وقد غابا فى نشوته
عن الوجود ، وتذكر أن أمه سألته عن أهلها فألقى الفرصة سانحة ليعرف .

ما يريد ، فقال لها :

— ما اسم أهلك يا هدى ؟

— إسماعيل السرورى موظف بمصلحة المساحة .

وبلغا الطريق العام الغارق فى النور فصافحته ، فقال لها وهو يضغط على

يدها فى هيام :

— مع السلامة ، وإلى اللقاء قريبا فى داركم .

* * *

انبجست مشاعر النشوة فى جوفه فشغل بسعاداته عما حوله فلم يعد يرى إلا هدى التى فجرت ينابيع صفوه ، إنه يلمحها أينما يولى وجهه بابتسامتها المشرقة التى تبدد ظلام نفسه وتجذب روحه وتناغى حواسه .

وسار الهوينى يستذكر ما جرى بينه وبينها وقلبه يرقص بين ضلوعه فى وله كسكران استخفه الطرب ، وظل ينعم بالذم المشاعر وهو فى شبة غيبوبة حتى إذا دنا من بيته أفاق إلى نفسه ، فرأى أن ينطلق بعيدا يسعد بإحساساته وبالتصورات الحسية التى راحت تتوافد إلى رأسه .

وذهب إلى محطة الترام ووقف وهو مشغول بالرؤى الشاعرية التى تجرى فى ذهنه ، فلما أقبل الترام صعد فيه وهو غارق فى أفكاره ، وانطلق الترام وهو شارد البصر غائب فى أحلام يقظته .

ولاحت لعينيه أعمدة جسر أبى العلا كأشباح تتراقص ، وصفحة النيل الهادئ الغارق فى فوف من ضياء القمر كصقال مرآة ، ووقف الترام فنهض دون أن يدري وهبط منه كالماخوذ ، ولفح الهواء البارد وجهه فانتبه وتلفت حوله فى دهش ، إنه هبط دون وعى منه أمام دار عمه .

وسرى فى جوفه قلق وخفق قلبه فى جنون وزاغ بصره وعلته حيرة ، فوقف لا يدري ماذا يفعل ، وخطر له أن يلبي دعوة عمه حتى لا يغضب أباه فتقدم فى ببطء تلفه رهبة ، وما إن بلغ الباب الخارجى حتى دار على عقيه

وهرول مبتعدا ، فقد هجس في نفسه هاجس راح يؤنبه ويتهمه بالنفاق فولى
فرارا .

وراح يرنو إلى الضوء المتلألئ في الدار فأحس كأن يدا تعصر فؤاده ورجفة
تسرى في بدنه ، وتسمر في مكانه بعيدا ، وتحركت في جوفه رغبة الانطلاق
إلى بيت عمه ولكنه أخذ يجاهد ليعد هذه الرغبة التي أفلقتة ، وجاء الترام فقفز
فيه وقعد وهو يزفر في شدة .

وانساب الترام يهتك السكون بضجيجيه وعجيجيه وهو مطأطئ البصر
مضطرب ، وانقضى بعض الوقت ولم يفرخ روعه ، كانت صورة بعينها تحتل
أقطار رأسه فتضنيه ، لم تكن صورة أبيه العابسة النائرة المزججة بل صورة عليه
وهي مطرقة وقد انتشرت في صفحة وجهها سحائب من الأسى والحزن .

دلف محمود أفندى إلى الردهة فقابلته عليه مفتحة كوردة ترتدى ثوبا من ثياب السهرة ، فبدا جيدها الناصع البياض كأنما صنع من مرمر مشرب حمرة . يفوح منها أريج حلو ملأ أنفه ، وتقدمت إليه وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وقالت وفى عينيها فرح :

— أهلا عمى .

فقال فى صوت خافت :

— أهلا عليه .

وسارت إلى جواره رشيقة حتى دخلا غرفة الاستقبال ، وما إن جلسا حتى قالت له فى نبرات شحنت رقة :

— كيف حال حسين الآن ؟

فشعر بموجة من الأسى تجتاحه ومشى فى جوفه رهبة ، وقال :

— بخير . الحمد لله .

— لم نره بعد أن خرج من المستشفى .

فقال وهو مطرق :

— والله لا أدري ما الذى يشغله هذه الأيام .

وأحست قلقلها ، وأرادت أن تطمئن نفسها فقالت :

— لم يبق على نهاية السنة إلا أسابيع ، إنه على أبواب امتحانات .

وجاءت إجلال ، فلما لمحت محمود أفندى ذهبت إليه وصافحته ،

وأدارت عينيها فى المكان كأنما أنكرت شيئا ثم قالت :

— وأين حسين ؟

فقال محمود أفندى وهو ينظر إليها نظرات قلقة :

— سيأتى بعدى .

وئارت مشاعر الخوف فى صدره ، إنه يخشى أن يركب حسين رأسه ولا يأتى فيحرجه ، ولزم الصمت حتى إن إجلال أنكرت صمته فقالت :

— ما بال عمى اليوم ساهما ؟

فقال فى ارتباك :

— أحس وعكة .

وأقبلت سنية هانم وجلست تشاركهم الحديث ، وما انقضى بعض الوقت حتى التفتت إلى محمود أفندى وقالت :

— وأين حسين ؟

فقال وقد خفق قلبه وسرى فيه اضطراب :

— سيأتى بعد قليل .

وجاء كمال بك وكان يرتدى حلة أنيقة والدم يكاد يفر من خديه ، فلما لمح أخاه اتجه إليه وهو يقول مداعبا :

— مرحبا بأخى الشيخ .

وتأهب للمساجلة الظريفة التى ستلور بينهما فتملأ الجو مرحا ، ولكن محمودا ابتسم ابتسامة خفيفة ولم يحرجوا بساد المكان صمت ، ونظر كمال إلى أخيه وقال :

— أين حسين ؟

فانتابه قلق وقال فى ارتباك :

— كنت فى القهوة وجئت منها إلى هنا ، سيأتى عما قليل .

وقال كمال بك ملمحا إلى شىء فى نفسه :

— لم يبق عليه إلا بضعة أسابيع ثم يصبح ضابطا بحق .

فقال محمود أفندى :

— إنه يخشى أن يعين في مركز من المراكز النائية .

فقال كمال في ثقة :

— لا يخش شيئا .

وقالت إجلال وهي تبتسم :

— البركة في عمى كمال بك يعينه في نقطه الزمالك .

وضحكت سنية هانم ، وابتسم كمال بك في اعتداد ، وتغير لون محمود أفندى . أما عليّة فقد رنت إليها رنوة تنطق في وضوح : « اعقلي » .

وسمع وقع أقدام في الخارج فمد محمود أفندى بصره في لفحة وهو يرجو أن يكون القادم حسينا ، ولكنه لمح الخادم مقبلا وبين يديه صينية فانقبض وأخذ يتلفت وهو حيران ، وراح الوقت يمر وانتابهم قور وكثرت فترات الصمت ولم يجئ حسين ، فأحس محمود أفندى بالغضب يستبد به والحق يضغط صدره حتى يكاد يكتم أنفاسه ، ولاحظ أمارات الملل على الوجوه فرأى أن يخرج من ذلك الضيق الذي أرقهه ، فلم يجد أمامه إلا أن يلوذ بتلك الكذبة التي لقنه إياها حسين فقال :

— الظاهر أن حسينا لم يعلم بأمر هذه الدعوة ، لم يأت في الظهر لأنه كان مدعوا عند صديق ، وقد قلت لأمه تقول له ليلحق بي فلعله لم يذهب إلى البيت حتى الآن .

ونظرت إجلال إلى عليّة فألقت مسحة من الكتابة ارتسمت على وجهها ، ونهض كمال بك وهو يقول :

— هيا تناول عشاءنا .

وقاموا إلى المائدة في تناقل ، محمود أفندى يحس قهرا ، وعليّة تشعر بوخزات تخز روحها ، وإجلال ترمق عليّة في إشفاق . إنها حزرت يوم كانت في الزورق معهما أن حسينا يهرب من عليّة ، وأن ما حزرت في ذلك اليوم

أصبح حقيقة واضحة كفلق الصبح . دعت يوم زارته في المستشفى إلى حفلة تقيمها له بعد إيلاله ابتهاجا بشفائه ولكنه غادر المستشفى ولم يفكر في زيارتها ، ودعته الليلة لتقضى على الهواجس التي بذرت بذور الشك في نفسها ولكنه لم يلج في هجره .

وراحوا يتناولون الطعام لا يسمع إلا أصوات الملاعق والشوك والسكاكين وأحاديث مقتضبة بين سنية هاتم وكال بك ، ولم تأكل عليه إلا النزر اليسير ، ولولا الملامة ما جلست إلى المائدة لحظة ، وراح محمود أفندي يزدرد الطعام كأنما يزدرد جمرات من النار .

وفرغوا من الطعام فعادوا إلى غرفة الاستقبال ، ولم يطق محمود أفندي أن يمكث في ذلك الجو الذي ساد المكان فاستأذن وانصرف وفي صدره ثورة وغضب . وقام كال بك وسنية هاتم وغادرا الغرفة .

وأطرقت عليه وفي وجهها أسي ، وأخذت إجلال تنظر إليها وقد هاجت شجونها وساءها أن يمزق قوادها ولما يتفتح للحياة ، وأرادت أن تسرى عنها فدنّت منها وقالت لها :

— لعله يتأهب للامتحان .

فقالت عليه في نبرات حزينة :

— لا يا إجلال ، أصبح يفرمّني .

— لا تدعى مثل هذه الأوهام تتسلط عليك .

— ليست أوهاما ، هي الحقيقة بعينها .

— عليه ، لا تجسمي تصوراتك .

— خدعتني أحلامي ولم أصبح إلا أصبح إلا على صفعات الواقع الأليم . لم يأت لزيارتي قبل أن يكبو به حصانه فأخذت أتمس له المعاذير، فلما أصيب برضوض هرعت إليه خافقة القلب وداعبته فلم يستجب لدعابتي ، ودعوته وانتظرت فلم يأت وتركتني فريسة الشكوك .. وراح قلبي يعذبني فدفعت ألى إلى دعوة عمى ودعوته وها هو ذا يعرض عني ويلقى في وجهي بالحقيقة

السافرة : إنه لا يريد أن يرانى .

فقال إجلال فى إشفاق :

— لا يا علىة ، هذه تخيلات . .

— ألم تلحظى تبدل عمى ؟ ألم ترى تلك الكآبة التى رانت علىه ؟ . عمى

المرح يفقد مرجه ودعابته ويتكلم وهو زائع البصر ، لماذا ؟

فقال إجلال فى رثاء :

— هدى من روعك ولا تفكرى فيه .

فقال علىة فى يأس :

— ليت أمر قلبى يبدى .



وأطرقت عليه وفي وجهها أسي ، وأخذت إجلال تنظر إليها .

دخل حسين على أمه وهي جالسة بالقرب من النافذة تقطع الوقت بمشاهدة الغادين والرائحين . فلما سمعت وقع أقدامه نظرت إليه وراحت تفحص عنه في إيمان كأنما تحاول أن تقرأ ما فعله في ليلته ، ولاحظت أنه يتحامي أن تقع عينها على عينيه فسرى في صدرها قلق وحزرت أنه لم يذهب إلى دار عمه فانقبضت وقالت له في عتاب :

— لم تذهب ..

وأحس غلالة رقيقة من الاضطراب ترفرف في جوفه ، ورأى أن يمزق ذلك الاضطراب قبل أن يتمكن من نفسه فقال وهو يبتسم :

— ذهبت إليها .

فقال في كدر :

— إلى من ؟

— خطيبي .

— أغضبت أباك .

واسترسل في حديثه كأنما لم يسمع قولها :

— وقلت لها إنك ذاهبة لزيارتها يوم الخميس القادم .

فقال في إنكار :

— أنا ؟! مستحيل .. لن أذهب إليها أبدا .. ماذا يقول أهلك ؟ .

— وماذا يهمك من أهلي ؟ سعادتي أبقى من مجاملة جوفاء .

— حسين .. إننا عشنا العمر الطويل نرغب يوم زواجك لتتم بهجتنا ، وإذا

بك تعمل على تقويض حلم من أحلامنا العزيزة التي طالما داعبتنا .
— والله أمر كم عجب ! كنتم تتمنون زواجى .. وهأنذا أتزوج ، فما الذى
تبدل ؟! عروس اخترتموها لى وعروس اختارها قلبى .. إنكم تريدون
سعادتى لا سعادة غيرى .. فماذا يهمكم من أمر العروس ؟
— نريد زواجاً يلم الشمل لا زواجاً يوقع البغض والنفور .
— أنا أدرى الناس بحقيقة شعورى ، إننى أعمل على أن أجنبكم متاعب فى
المستقبل ، أمن الخير أن أمتلككم وأتزوجها ثم أعيش فى جحيم لن ينتهى إلا
بتمزيق أواصر الأسرة ؟ أم أتزوج من أهواها وأجرحهم جرحاً طفيفاً سرعان
ما يتدمل ؟

فقالت أمه فى صوت عميق :

- جروح القلوب لا تندمل ، ستغرس فى قلوبهم يديك المقت البغيض .
- سرعان ما ينسون .
- هيات أن تنسى المرأة من طعن كبرياءها ، عليه لن تنساها أبداً .
- إنها تستطيع أن تتزوج من هو خير منى .
- لن تنسى هذه الإهانة ولو تزوجت أميراً .
- هل من الإهانة أن أدعها حتى لا أحطم حياتها ؟
- هذه تعللات تبرر بها تنكرك إياها لن يصدقها أحد .
- بل هى الحقيقة .
- فى نظرك وحدك ، حتى أنا لا أصدقها .
- صدقوها أو لا تصدقوها ، لن أتزوج إلا من نبض بحبها قلبى .
- لن أستطيع أن أكنم عن أهلك عزمك ، سأقول له كل شيء .
- وقولى له إننى ذاهب إلى أهلها يوم الخميس القادم لأطلبها منهم .
- وتحرك ليغادر الحجرة فغمغمت فى أسى :
- يا لبختى الذى مال ، كنت أطمع فى أن تكون ليلة زفافك من ليالى

العمر السعيدة فإذا بك تجعلها نكدًا وبكاء .

وغاب في غرفته ، وشرد ذهنها وسرى في جوفها اضطراب ، ولم تشعر
بحزن لأن ابنها لن يتزوج ابنة عمه ولكنها أحست رهبة مما قد يقع بينه وبين
زوجها ، باتت تخشى أن يثور زوجها ثورة عاتبة وأن يقابل حسين ثورته
بتمرد فيتصدع كيان الأسرة ويفترق الأب والابن على خصام ، ولا يكابد
غيرها نار الفراق .

وراحت تفكر في أن تكسر حدة زوجها وأن تلقى على نار غضبه ماء
باردا ، لا ليوافق على زواج ابنه من غير ابنة أخيه فما كان لها أن تطمع في
ذلك ، بل لكيلا يخدم النقاش بينهما حتى يبلغ حد النفور والانفصال ، إن
همها أن تبقى الأسباب موصولة لتدوم لها هناؤها . فشبح القطيعة بات يؤرقها
ويقض مضاجعها .

وسمعت طرقا متابعا فنهضت وقلبها يرجف ، وحاولت أن تبدو هادئة
فوقفت خلف الباب لحظات تستجمع قواها ثم فتحتة فألفت الغضب يتطاير
من عيني زوجها ، فتعامت عن غضبه وابتسمت له ، ولكنه دخل كعاصفة
ناثرة مزجرة وراح يهدر :

— أين حسين ؟ لماذا قلت لي إنه سيحضر ؟ لماذا تضعونني في ذلك
الموقف الحرج ؟ لولا أنك أكدت لي ذهابه لا عتذرت لهم أول ما قابلتهم
ولجنبت نفسي ذلك الخجل الذي كان يعتريني بين لحظة ولحظة . والله لا
أدرى لماذا لم يلب دعوتهم ؟ ولماذا يبدى ذلك النفور وتلك القطيعة ؟ إنه
تغير ، تبدلت أحواله ، أصبح حسينا آخر .

وخطر لها أن تقضى إليه بسر ابنها وهو في ثورته ، أن تجبه بالأمر فيرغى
ويزيد مرة واحدة ، وتندلع نار غضبه وتأكل بعضها ، فإذا قابل ابنها في
الصباح لم يكن في صدره إلا رماد ، فقالت في هدوء
— إنه لا يريد أن يتزوج علي .

- بهت واتسعت حدقتاه وقال مأخوذاً :
— هذا عبث أطفال ، إنها مخطوبة له .
— إنه يحتاج بأنه لم يخطبها .
— تتابع زيارته لها دليل رضاه وتوكيد لهذه الخطبة ، إننى لا أقبل هذا العبث أبداً ، أين هو ؟
— نائم ؟
— نائم يغط فى نومه مخلقا لنا التكدر والمتاعب ، لا بد من أن يتزوج عليه .
— إننا لا نملك أن نرغمه أن يتزوج على هوانا .
— لا بد أن يتزوجها .
— لا يمكن أن يجبرك أحد على أن تأكل ما لا تشتهي .
— يا طالما أرغمونى على شرب الدواء لأن فيه شفاى ، سأرغمه على الزواج منها لأنى أعتقد أن فيه صلاحه ، هل يطمع فى أن يجد خيراً منها ؟ عليه جميلة مهذبة غنية ، إنها أفضل منه .
— أمر قلوبنا ليس بأيدينا ، لا نستطيع أن نرغمها على أن تتعلق بهذا وتنفر من ذاك ، إنها مجنونة ليس لنا عليها سلطان ، حسين معذور خرج أمره من يده .
فحدجها بنظرة شرر وقال :
— وماذا جرى له ؟
— أحب ، وسيتزوج بمن خفق بحبها قلبه .
— ومن التى طيرت عقله ؟
— لا أعرفها . قال لى إنها هدى بنت إسماعيل السرورى .
— وأين قابلها ؟
— فقالت فى ارتباك :
— لا أدرى .

— وأين سيقابلها إلا في الطريق ، لن أوافق على أن يتزوج ابني من فتاة من الشارع .

— خير لنا أن نسير معه في طريقه نستقصي له ونرشد له ، من أن ندعه وحده يخط في الظلام .

— لن أسير معه في ذلك الطريق المعوج أبدا ، هذا طيش شباب لا بد من أن يقوم .

— إنه ذاهب بنفسه لخطبتها يوم الخميس القادم .

فقال في غضب شديد :

— ما شاء الله ! تم كل شيء في غفلة مني لتضعوني أمام الأمر الواقع ولكن لا ، والله لو تزوجها لأذهبن إلى الكلية أبلغها أنه طالب متزوج ، فيكون مآله الطرد والتشريد .

شعرت بغصة وبرهة تسرى في بدنها ، وقالت بصوت متكسر :

— إننا نهدم ابنتنا بأيدينا .

— وهو يمزق أواصرنا بعثه ، ماذا أقول لأخى بعد هذه السنين الطويلة ؟

— نبصرهم بأعدار حسين ومخاوفه ، نقول لهم إنه يرى في زواجة من ابنتهم خفضا لها ، وأنه يتوارى من حياتها ليحفظ لها عيشتها الهائلة السعيدة .

فقال في زراية :

— أتحسين هذا القول يرضى أخى ويشرح صدره ؟ إن في نكوص

حسين عن الزواج من علية بعد أن ذاع نبأ خطبتهما تجريحا لهم .

— ماذا نستطيع أن نفعل الآن ؟

فقال في إصرار :

— ينبغي أن يتم هذا الزواج .

وتمدد في فراشه وراح يتقلب في قلق ولم تغمض له عين ، كانت الأفكار تتضارب في رأسه وتتصارع ، إنه يمتنى أن يتزوج ابنة من ابنة أخيه ليسود الأسرة سلام ، ويرجو من كل قلبه أن يسعد ابنه في حياته الجديدة التي بهم أن يضع قدمه على أولى درجاتها وهو حيران ، وود صادقاً أن يهتدى إلى ما فيه صالح حسين .

وأخذ يستعرض عليه في خيالة فألفاها خير فتاة تصلح لوحيده ، فوطن على أن يبذل ما في طوقه لإقرار ذلك الزواج ، وما استقر على ذلك واطمأنت إليه نفسه وبدأ النوم يمس جفنيه حتى همس في جوفه هامس يشككه في حكمه ويتهمة بأنه يميل مع هواه ، فما أدراه أن الأخرى ليست أوفق لابنه من ابنة أخيه . إنه يعرف عليه ويحبها ولكنه لم ير الثانية ولا يعرف عنها شيئاً ، فكيف يقارن بين من يعرف ومن لا يعرف ؟ لعل حسيناً معذور كما قالت أمه ، وجد الغريبة أوفق له من ابنة عمه فمال إليها وتعلق بها فؤاده .

وعادت الأفكار إلى رأسه تتلاطم وهو حيران لا يدري مع أيها يميل ، إذا رجع كفة عليه خشى أن يكون متأثراً في حكمه بعواطفه ورغباته ، وإذا رأى أن يسير على هوى حسين خشى أن يكون ابنه مخدوعاً بعاطفة كاذبة تطفو على سطح قلبه كالحب على سطح الكأس سرعان ما تندلع .. وتقلب في فراشه في ضيق وهو يحس شعور السائر على حبل منصوب في الهواء ، وقد ازداد ذهنه بأفكار متنافرة متناكرة تحاول كل منها أن تقضي على الأخرى لته وحدها على مسرح رأسه ، ولكن هيهات ! .

وبقى فريسة لأفكاره حتى دب الخور في أوصاله وغلبه النوم ، فراح في سبات دون أن يطمئن إلى فكرة بعينها يعمل على إنقاذها في عزم وإصرار ، ومضى الليل بأحلامه وآلامه ، وأقبل النهار فنهض من فراشه وذهب إلى غرفة الجلوس وقد قلعت عن صدره ثورته العاتية ، وانتشرت فيه رهبة وحيرة . وجاءت زوجته تنفرس في وجهه لتستشف خبيثة نفسه فلمحت قلقا في عينيه فحقق قلبها في اضطراب ، وجلست تنتظر ما يسفر عنه لقاء ابنها وزوجها وهي تبتهل إلى الله في صمت أن يمر ذلك اللقاء بسلام .

وفتح باب غرفة حسين ، فرنت إليه رنوة ثم نقلت عينها إلى وجه زوجها فشعرت بقلبها يتنزي رهبة .. أربد وجهه وضافت عيناه واعتراه انفعال يفضح الثورة الهائجة في جوفه .

نظر محمود أفندى إلى ابنه وهو قادم نحوهما فشعر برغبة في أن يفاتحه في الموضوع الذى شغله طوال ليلته . ولكنه كبح جماح نفسه ولزم الصمت ، وجلس حسين ولم ينبس بكلمة فساد الحجرة سكوت وإن كانت الصدور تضيق بالمشاعر الدافقة الفائرة .

والتفت محمود أفندى إلى حسين وقال :

— ماذا وراءك هذا الصباح ؟ .

فقال حسين في صوت خافت :

— لا شيء .

— تأهب لنخرج معا .

وساد الصمت ثانية وسرى القلق في الصدور ، الأم قلقة لأنها كانت تفضل أن يدور النقاش أمامها حتى تلتطف من حديثه إبقاء على كيان الأسرة ، والابن بات يخشى الخلوة بأبيه ، والأب لا يدري حقيقة عواطفه .

ونهض حسين يرتدى ثيابه وهو غارق في أفكاره .. وقد وطن النفس على أن يصارح أباه بمشاعره وأن يعمل على استمالة واستغلال أبوته ، فخبر له أن

يكسب قلبه من أن يوغر عليه صدره .

وانسل محمود أفندى وحسين من الدار صامتين والأم ترقبهما وفي صدرها جناح حمامة يرفرف . صارت تهرب ما قد تسفر عنه هذه النجوى ، وانطلقا وقد أطرقا دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وبلغا ميدان الحسينية وعرجا على طريق هادئ ساكن ، ورأى محمود أفندى أن يبدأ الحديث فقال :

— قالت لى أملك أنك تريد أن تتزوج فتاة قابلتها فى الطريق .

— بل قابلتها فى بيت محترم .

— وأين قابلتها ؟

— عند خالتي .

— وماذا تعرف عنها ؟

— فتاة طيبة . من أسرة محافظة .

— من قال لك ذلك ؟

— لم يقل لى أحد ، ولكنى عرفت ذلك بنفسى .

فقال محمود أفندى فى استخفاف :

— قال لك قلبك !

فقال حسين فى حماسة :

— أجل .. قال لى قلبى .. وما كان قلبى يخدعنى .

— تريد أن تتزوجها لأنك تحبها ؟

— نعم .

— وتعتقد أنك لن تسعد إذا تزوجت غيرها ؟

— نعم .

— إني لا أبغى إلا سعادتك ، وإني أقول لك إن الزواج السعيد ليس من

مستلزماته أن يبدأ بحب عنيف ، بل دلت التجارب على أن الزواج الذى يبنى

على حب جارف سرعان ما ينهار .

فجدجه حسين بنظرة فيها إنكار ، فقال له في ثقة :
— لا تنظر إليّ هكذا ، هو الواقع ، وقد كابدت ما تكابده الآن .
فنظر إليه بعيتين واسعتين لاح فيهما الدهش ، وقال أبوه في هلع :
— كنت في مثل سنك ووقعت عيناى مصادفة على فتاة من جيرانا فحقق
قلبي في شدة ، ولازمني طيقها في الليل والنهار وداعبتى أحلام ، وترادفت
رؤيتي لها فزادت نار الحب ضراما وبت أعتقد أن لا حياة لي بدونها ،
وكاشفت أُمى بما أحسه قلبي والتمست منها أن تطلب لي يد التي سلبت لبي ،
فلما أفضت إلى أبى برغبتى رفض أن يوافق على زواجي من فتاة لا يعرفها . ولج
في الرفض فانتابني الهم واعتقدت أن مآلى البوار ، وزوجوني أمك ولم أرها إلا
ليلة الجلوة ، وألفتها على مر الأيام وأحيتها حبا صادقا وتقضت أيامنا هنية
سعيدة ، وتبخر ذلك الوهم الذى استبد لي كما يتبخر الندى إذا لمست شمس
الصباح .

فقال حسين في حرارة :
— ولكنى أحبها من أعماق قلبي .
— ليست قوة خفقان القلب دليل عمق الحب ، إنه الشباب ، وإن ما
تحسه نزوة من نزواته .

— إننى عازم على الزواج منها استجابة لعقلي وقوإدى .
— هذا وهم خادع ، ففى مثل سنك سرعان ما يخضع العقل للفؤاد .
— لست غرا ولست ممن يجرون وراء عواطفهم ، وزنت الأمر فوجدتها
أوفق فتاة لي .

— وبماذا فضلتها على علية ؟
— زواجى علية مآله الإخفاق ، قد تسعد شهورا ثم تبليج لنا الحقيقة
المرة ، حقيقة اختلافنا في المشارب والأهواء .
— وكيف فطنت إلى ذلك ؟

- من معاشرتي الطويلة لها .
— إية معاشرة ؟ إن ما تعرفه عنها قشور ، معدن المرأة الحقيقي لا يعرف إلا إذا وضعت في بوتقة الاختبار .
— إننى لا أرضى أن أنزلها من نعيمها لتحيا معى في الشقاء .
— إنها تهفو إلى ذلك الشقاء الذى يفزعك أن تهبطها إليه ، فما ألد أن يكافح في الحياة حبيبان .
— قد تنعم بهذه اللذة شهورا وأعواما ثم تنقشع الغشاوة عن عينيها فتجد نفسها تجرد في أثر سراب .
— تخشى أن تفجعها الحقيقة إذا خلقت الأحلام ومشى البلى فيها ؟
— هذا ما يقلقنى ويطير النوم من عيني .
— فنظر إليه أبوه نظرة فاحصة ، وقال له في صوت عميق :
— إنك تهواها .
— فاضطرب حسين كأنما وجه إليه اتهام ، وقال ليدفع هذه القرية في حماسة :
— لا ، لا تحاول أن تخدعنى ، إننى أدرى الناس بعواطفى ، لم ينبض قلبى بحبها نبضة .
— حسين إننى لا أبغى إلا سعادتك ، كنت قد وطنت النفس على أن أدعك تفعل ما تشبهه ، ولكن بعد أن أيقنت أنك تحبها لن أسمح لك أبدا أن تحطم نفسك .
— وأحس حسين دماؤه الحارة تتدفق في عروقه فقال في حدة :
— استلرجتتى فى يسر لتدخلنى المصيدة فى غفلة منى ، ولكن لا لن أصيخ إليك ، إنك تريد أن تنفذ غرضك على أشلائى ، ليس همك سعادتى بل همك أن ترضى أخاك على حساب عواطفى ، إننى أنا الذى سأزوج وأنا الذى أختار من أنزوجها .

— لن أدعك تتخبط كالأعمى في الظلام ، إننى أراك على شفا هاوية ولن أتركك تتردى فيها .

— إننى أحدى الناس بمواطئ قدمي .

— لا زلت صغيرا في حاجة إلى من يأخذ بيدك ويقل عثراتك .

— لست قاصرا ولست فتاة ، وإنما أمرى يدي أفعّل ما أريد وأتحمل نتائج أفعالي .

— أتريدنى أن أنظر إليك مكتوف اليدين وأنا أراك في لحظة من لحظات الطيش تحطم في رعونة آمالنا وآمالك ؟!

— تشفق من أن تتهتك الأحلام التي نسجتموها في السنين الطوال . أما سعادتي فليس لها حساب .

— والله لا أضع نصب عيني إلا سعادتك ، وسعادتك في الزواج من عليّة .

— غاية سعادتي أن أتزوج من أهواها .

— إذن تتزوج عليّة .

— أنا وحدي الذي أعرف حقيقة عواطفى ، سأتزوج من يهفو إليها كبدي .

فقال محمود أفندى في حدة :

— إذا ركبت رأسك فلا تلومنى إلا نفسك ، نصحتك وأخلصت لك النصيح .

وصمت حسين وظلا يجرجران سيقانهما وهما مطرقان ، ودثرهما السكون والقلق الحائر ، واستمرا في صمتهما حتى إذا اقتربا من البيت قال محمود أفندى :

— إذا اخترت أن تسير في طريقك المعوج فستسير فيه وحدك حتى النهاية .

وصعدا في الدرج وفي وجهيهما شجن ودلغا إلى مسكنهما ساهمين ،
راحت الأم تنقل عينيها بين ابنها وزوجها في حيرة ولهفة وتلاقت عيناها بعيني
سسين فغض من بصره وانطلق إلى غرفته وأغلق عليه بابه ، وسار محمود
نندى إلى حجرته وصفق الباب خلفه ، فانهارت الأم على مقعد قريب مبهورة
لأنفاس ، وعلا وجهها سحائب من الكدر والحزن فقد حزرت كل شيء .

انفشع الغضب الذى ران على صدر حسين ولفته راحة ، فقد كشف لأبويه عن عواطفه المذخورة التى كان كتبها يضمنيه ، ولم يقلقه عدم موافقة أبيه على تزويجه ممن يهواها فما كان ينتظر أن يربت أبوه على كتفه لما يعلم أنه سيهجر ابنة عمه ليتزوج غيرها .

وفكر فيما جرى بينه وبين أبيه من جدال فألقى أباه قد سايره فى هدوء ، كان يتصور ذلك المشهد قبل أن يقع فیرتجف ، فما كان يرى أباه إلا نائرا صاخبا مزجرا ويرى نفسه متضائلا أمام ثورته العاتية ، أما الآن وقد انقضى ما يخشاه فقد سرت فى صدره طمأنينة . إن أباه لم يوافق على زواجه من هدى ولكن ذلك لم يعد يقلقه فالأيام كفيلة بجبر ما انصدع ، سيجد أبوه نفسه يوما أمام الأمر الواقع فيغضب ويحنق ويبالغ فى الغضب والحنق مراعاة لشعور أخيه وسرعان ما يقلع غضبه وتنمحي نغمته ليحل محلها حنانه الدافق ، إنه يحبه وما أيسر نسيان إساءات من نحب .

وافى ميعاد الغداء فجلس ثلاثتهم إلى المائدة صامتين كأنما كانوا ثلاثة غرباء جمعهم المصادفة إلى مائدة من الموائد لا يجدون ما يقولون ، وراح حسين يتناول طعامه وهو خافض البصر بينا كان صدره صافيا صفاء السماء فى يوم من أيام الصيف ، وأخذ محمود أفندى يمد يده إلى الصحاف وهو شارد اللب يفكر فى موقفه من أخيه بعد أن يبلغه خطبة ابنة لفتاة غير ابنته فتعاف نفسه الطعام ، ويتجرع الماء ليسخف اللقيمات الواقعة فى حلقه ، أما الأم فكانت تنقل بصرها بين ابنها وزوجها فتحس جمرات من النار تلسع قلبها .

وغادر حسين المائدة وذهب إلى غرفه وأخذ يرتدى ثيابه ، وأحس حركة بالقرب منه فالتفت فألقي أمه ترنو إليه في قلق وتقول في نبرات مضطربة :

— إلى أين تذهب الساعة ؟

فقال في هدوء :

— سأزور صديقا قبل أن أتوجه إلى الكلية .

وخطر لها أنه ذاهب لزيارة هدى فقالت في توسل :

— حسين ، فكر فيما أنت مقدم عليه ، تريث .. إنك تقوض هناءتنا .

— فكرت وأمعت الفكر فوجدت أنني أفعل ما يفعل كل رجل ، من

حقى أن أتزوج من أطمئن إليها فأنا الذى سأعاشرها العمر الطويل .

— أغضبت أباك .

— أيغضبه أنني أبحث عن سعادتي ؟ أيرضيه أن أستكين له وأتزوج على

هواه زيجة لن تعمر طويلا ؟ أقول لكم إنى إذا تزوجت عليه فلن أعيش معها شهرا واحدا . حرام عليكم أن تحطمونا معا .

وأرادت أن تتكلم ولكنها لم تجد لسانها ، عقله ما استولى عليها من حيرة ،

وجعلت تنظر إليه وقد رنقت عيناها بالكدر ، وانسل من جوارها في خفة وخرج .

وسار في الطريق خافق القلب ، حتى إذا بلغ دار خالته زاد وجيب قلبه

وراح يصعد في الدرج متمهلا ، كان يفكر فيما دفعه لزيارتها قبل ذهابه إلى

الكلية ، ويرتب أفكاره وينمق عباراته حتى تنفذ إلى قلبها .

ودخل عليها فنهضت تصافحه وقد لاح الدهش في وجهها ، كان بالأمس

عندها ولم يعتد أن يزورها في مثل هذه الساعة ، وقعد صامتا برهة يستجمع

أفكاره ثم قال :

— جئت إليك في أمر هام .

فاتسعت حدقتها وقالت :

— خيرا .

— عزمت على أن أتزوج هدى وقد طلبت من أمي أن تذهب لتطلب لي يدها ولكنها رفضت حتى لا تغضب أبي وجئت أئتمس منك أن تخطبها لي .

فقالت في صوت خافت :

— آسفة لا أستطيع .

فقال في توسل :

— ليس لي أحد غيرك .

فقالت في نبرات متهدجة :

— هذا يغضب عمك .

— وماذا يهمك من أمر عمي ؟ أفهم أن تحجم أمي حرصا على شعور أبي ، أما أن تغصيني إرضاء لعمي فهذا ما لا أفهمه .

فأطرقت برهة وغام وجهها بسحائب من الكدر ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— لا يا حسين ، لا أستطيع .

فرنا إليها في ذهول وقال :

— لماذا ؟

فنظرت إليه في شرود ، وقالت في صوت كأنما كان منبعثا من واد سحيق :

— كنت مخطوبة على عمك ودامت خطبتنا ستين ، ثم فسخها ليتزوج من سنية هاتم ، فإذا طلبت لك يد هدى حسبوا أنني أثار لما نالني .

فأطرق قليلا ثم قال :

— هذا يهون الأمر .

فقالت في إنكار :

— أتحسب أننى أغتنم هذه الفرصة لأجرهم كما جرحونى ؟ لا يا حسين ، إننى لا أفعل ما فعلوه .

— لا أقصد ذلك ، بل أقصد أنه ما دام عمى قد خطب ثم فسخ خطبته ليتزوج من منية هاتم فإنه سيعذرنى .

فقلت وهى تهز رأسها :

— أنت واهم فلن يعذرك لأنك فعلت مثله ، إنه يرضى عن فعلته ويسخط على ما فعلته .

فقال فى استدراك :

— لم أفعل مثله ، إنه خطب ثم نكص ولكنى لم أخطب ابنته .

— كان من المعروف أنها لك .. حسين ، ابنة عمك أولى بك .

— لا أحب أن أخدع نفسى ، لم أخلق لها ولم تخلق لى .

وصمتت قليلا ثم غمغت :

— الغلبة للنصيب .

ونظر إليها فى استعطاف وقال :

— لن تذهبي لتطلى لى يدها ؟

— أعفنى . .

فقال فى عزم :

— سأذهب لأخطبها بنفسى .

الساعات تمر بطيئة ، إنه ينتظر بصبر نافذ يوم الخميس ليذهب إلى أهلها يخطبها منهم ، النهار يتصرم وهو غارق فى أحلام يقظته ، والليل ينقضى وهو ينتقل من حلم إلى حلم ، حتى إذا استيقظ فى الصباح لم يستطع أن يتذكر ما رآه فى نومه .

وفى يوم من أيام الأسبوع قعد فى فراشه يتمطى وهو يستقبل نسائم

(النقاب الأزرق)

الصباح . ووقعت عيناه على زميله فألفاه يرنو إليه وعلى شفثيه ابتسامة عريضة ، فنظر إليه في استغراب فاعتدل زميله ومال إليه وقال :

— من هي عليّة ؟

فاضطرب وأحس دمه يتدفق حاراً في عروقه ، وقال في صوت مخنوق :

— لماذا ؟

— استيقظت في الليل على صوتك وأنت تنادى في لهفة : « عليّة !

عليّة » .

فقال وقد أشاح بوجهه :

— آه .

وراح يقدح ذهنه ليتذكر ما رآه في ليلته ، فلم يتذكر إلا أنه رآها نائمة

وتركته غاضبة وهو يناديها وهي منطلقة لا تلوى على شيء .

راح يجوس خلال الغرفات وقد شرد بصره وبان في وجهه انشغال البال ،
 وذهب إلى غرفة الجلوس وقعد . وسرعان ما قام واتجه إلى الشباك ومد منه
 بصره ، ثم ذهب إلى الشرفة ووقف يتلفت ، ولم يدم وقوفه طويلا فقد عاد إلى
 غرفة الجلوس وغاص في مقعد وأطرق رأسه وأخذ يعدو وراء ما يجري في رأسه
 من أفكار .

وفطنت أمه إلى قلقه فجعلت ترقبه وقد انتشر في وجهها اضطراب ،
 حذرت أنه مقبل على أمر ذى بال ، وفكرت في أن تذهب إليه تستدرجه
 ليفضى إليها بخبيعة نفسه ، ولكنها أحجمت خشية أن تثير في ذلك الجو الهادئ
 هدوءا مريئا ، زوابع تقتلع الطمأنينة النازلة في جوفها على حذر تنتظر أول
 بادرة لتولى الفرار .

كان اجتماعهم اليوم حول المائدة يسوده التحفز والتحفظ ، الأب ينتظر أن
 ينبس ابنه بكلمة في أمر زواجه ليعاود تحذيره من الإقدام على الزواج من فتاة
 غير ابنة عمه ، فقد فكر طوال الأسبوع وأتعبه فكره ، والابن أطبق فمه فقد
 عزم على أن ينفذ ما استقر عليه رأيه في صمت حتى لا يثير متاعب لن يكون
 لها أثر إلا تكدير النفوس وتحريك الأشجان قبل الأوان ، والأم ترجع بينهما
 لا يشغلها من الأمر إلا نفسها . إنها ترجو أن تمر العاصفة على أى وجه دون
 أن تخلف شقاقا بين الأب والابن حتى لا تقاسى مرارة الفراق . وانفض
 اجتماعهم وما تبادلوا إلا كلمات مقتضبة ، فأحست الأم راحة وإن كانت
 راحة ليس لها قرار .

ودخل غرفته وراح يرتدى ثيابه فى عناية ويمرر أصابعه على شاربه الأصفر
الغزير ويديم النظر إلى نفسه فى المرأة ، والأم ترقبه وفى جوفها قلق . وراودتها
فكرة استدراجه فلم تستطع أن تغلب عليها فذهبت إليه ووقفت صامتة برهة
ثم قالت :

— إلى أين ؟

فقال وهو يصلح هندامه :

— خارج .

فقالت وهى تبتسم لتخفى ما يعتمل به صدرها :

— كأنك ذاهب للقاء عروس .

فقال وهو ينظر إليها فى المرأة :

— هذا حق ، إلى ذاهب للقاء خطيبتى .

— عند خالتك ؟

— لا فى بيتها .

— حسين ؟

— ماذا ؟

— تريث .

— تريثت وفكرت وقلبت الأمر ، وهذا هو قرارى .

وأرادت أن تتكلم ولكنها خافت أن يتطور الحوار إلى جدل يسرى إلى
مسامع زوجها فيقبل يريق على الحديث نارا فتندلع السنة الشقاق الذى تشفق
منه وتخشاه ، فالتزمت الصمت وانسل من جوارها وخرج .

وسار فى الطريق وقلبه يدق وخياله يسبقه ، حتى إذا بلغ دار هدى وقف
يستجمع قواه ويهدئ أعصابه الثائرة ويمد بصره إلى النافذة لعله يلمحها فيشد
ذلك من أزره ، ولكنه لم ير أحدا فتحرك ودلف إلى الدار وراح يصعد فى
الدرج متمهلا مرهف الخواس ، ووقعت عيناه على لافتة صغيرة من النحاس

حفر فيها « إسماعيل السرورى . مصلحة المساحة » فزاد وجيب قلبه ، ووقف أمام الباب يتلفت فى اضطراب . ومد يده إلى الجرس وضغط عليه فرن رنيناً متصلاً أحس رنينه فى نفسه .

وفتحت الباب فتاة صغيرة فيها كثير من ملامح هدى ، العينان السوداوان الواسعتان والبشرة السمراء النقية والغمازتان اللتان تكسبان الوجه روعة ، فلما رآها أحس راحة ورفت على شفثيه ابتسامة وقال فى رقة :

— إسماعيل بك السرورى موجود ؟

فقالته وهى تحديق فيه فى استغراب :

— موجود .

— قولى له زائر يريد مقابلته .

ودخلت الفتاة وقد تركت الباب مفتوحاً ، ووقف ينتظر فعاد إليه قلقه ، ومس أذنيه أصوات وحركة فزاد اضطرابه ، ولح هدى تهرول إلى غرفة من الغرف فراح قلبه يقفز فى جوفه ، وأقبل رجل فى الخامسة والخمسين يرتدى حلة متواضعة وعلى عينيه نظارة إطارها من فضة رفيعة ، وراح ينظر إليه من تحت النظارة بعيون مضغضعة وقال فى صوت هادئ :

— تفضل .

فدخل وهو خافق الفؤاد والرجل يقوده إلى الغرفة التى غابت فيها هدى فزاد قلبه خفقاناً ، فلما ولج بابها أدار عينيه فى المكان فلم يجد أحداً بل وجد فى الغرفة باباً آخر ، إنها أسرع تصلح من وضع الأثاث على عجل ، ثم انسلت من ذلك الباب قبل أن يدخل . والتفت الرجل إليه وهو يشير إلى مقعد فى صدر المكان وقال :

— تفضل .

فقعد وأجال عينيه فآلفى ريشاً بسيطاً ينم عن رقة الحال فهذأت نفسه وشعر بقيمته ، فاعتدل فى اعتداد وقال فى ثقة :

— أنا حسين محمود طالب بكلية البوليس ، لم يبق على تخرجى إلا أسابيع قليلة .

فقال الرجل وهو يرنو إليه من تحت النظارة :

— تشرفنا .

— فكرت فى مستقبلى فوجدت أننى قد أعين بعيدا عن أهلى ، ولما لم يسبق لى أن عشت وحدى فقد رأيت أن أتزوج عقب تخرجى لأجنب نفسى متاعب الوحدة .

فقال الرجل فى صوت هادئ :

— هذا عين العقل .

— وقد رأيت الآنسة هدى عند خالتى فجئت أطلبها منكم .

فقال الرجل فى اضطراب :

— هذا شرف عظيم لنا .

وكأنما فطن إلى أنه قال ما ليس من حقه ، فقام وهو يقول فى ارتباك :

— لحظة واحدة من فضلك .

وانسحب الرجل وقد أغلق الباب خلفه ، وبقي حسين وحده فغاص فى مقعده وقد غمرته راحته وسكنت الطمأنينة صدره . ومرت دقائق وفتح الباب ودخل منه إسماعيل السرورى وخلفه امرأة طويلة فى الأربعين ، عيناها واسعتان وأنفها دقيق وشعرها طويل ، قد لفت سوافها حول أذنيها كواو ، تدلى من أذنيها قرط كبير بشكل هلال أقرب لتلك الأقراط التى يتزين بها فتيات الفجر ، يشع من عينيها بريق قوى ينفذ إلى القلوب ، فلما لمحها حسين نهض وابتسم ابتسامة ترحيب ، فتقدمت منه وفحصت عنه بعينيها فى سرعة وزوجها يقول :

— حسين بك محمود .. زوجتى .

وقعدوا وساد الصمت برهة ، وقالت المرأة :

— أهلا وسهلا .

وقال زوجها في هدوء :

— جاء حسين بك يخطب هدى .

فانبسطت أسارير المرأة وقالت :

— أهلا وسهلا .

واعتدل حسين في مقعده وقال :

— جئت أتمس قبولى زوجا لابتكم .

فقالت المرأة وهى ترنو إليه بنظرة فاحصة .

— هذا يملأ نفوسنا غبطة ، وكان يزيد فى سرورنا لو أن أحدا من أهلك

شرفنا بالزيارة .

فارتبك حسين وبان عليه الاضطراب ، ولكن سرعان ما استعاد هدوءه ،

وقال فى بساطة :

— هذا الزواج ليس على هوى أهلى .

فقالت المرأة وقد ازدادت عيناها اتساعا :

— لماذا ؟

— يريدون أن يزوجوني من ابنة عمى ، وأنا لا أريد أن أتزوج إلا ممن تعلق

بها قلبى .

فقالت المرأة وهى ترفع حاجبها فى دلال :

— الإنسان لا ينام إلا على الجنب الذى يريحه .

ودخلت الفتاة الصغيرة تحمل صينية عليها أكواب الشراب الأحمر ،

وتناول كوبا وراح يشربه فى مهل وقلبه يرقص فى صدره فرحا ، وظل

إسماعيل السرورى فى مقعده صامتا كأن الأمر لا يعنيه ، ونهض حسين ليعيد

الكوب إلى الصينية فأسرعت المرأة إليه وتناولته منه فقال وهو يتسم فى

إشراق :

— دائما . في الأفراح .

— دامت حياتك .

وتحرك في مقعده لينبهما إلى أنه يتأهب للانصراف ، وقال وقد مال إلى
الأمام وأسند كفيه على مسند الكرسي :

— سأعود يوم الخميس القادم لأسمع رأيكما النهائي .

فقال المرأة في دلال :

— إننا نرحب بمن يحبنا ونترله حبات القلوب .

فتوجت شفثيه ابتسامة حلوة وتهلل وجهه الذي كان أشبه بوجوه
الأطفال ، ونهض وصافح المرأة في احترام وصافح إسماعيل السرورى في
حرارة ، وخرج من الغرفة ولمح شبح هدى وراء زجاج باب قريب فقفزت
إلى ذهنه صورتها وقد أسدلت على وجهها نقابها الأزرق المبهف ، فتدققت
دماؤه حارة في عروقه ، وأحس كأنما سكبت في روحه كهوسا من الخمر
فامتلاً نشوة وسرورا .

نظر محمود إلى زوجه وقد ضيق عينيه ثم أشاح بوجهه الباسر في تبرم ،
ونفض يذرع الحجرة كليث حبس في قفص ، زوجه تنرنو إليه وقد انبثق في
جوفها القلق والرغبة ، إنها تدرى سبب ثورته وترجو من كل قلبها أن تتبخر
دون أن تنفجر .

واستمر يغدو ويروح ومشاعر الحنق تضيق صدره ، ولم يحتمل
إحساسات الغضب التي أخذت تتضخم في جوفه فقال وهو يصرف أنيابه :
— هذا عبث أطفال .

فرمته بعيون قلقة ورفرف قلبها رهبة ولم تتحرك شفتاها ، وابتهمت في
سرّها أن يتداركها الله برحمته فتمر هذه الثورة كما مرت سابقتها دون أن تتمزق
أواصر الأسرة ، ولج في غضبه فراح يهدر :

— أخرجني بعثه وجعلني أنزوى أنا الذي لم أنزوا أبدا ، كلمنى كال اليوم
بالتلفون ودعانا لتمضية السهرة عنده فأخذت أعتذر وأنا أتلجلج ، كنت أشعر
شعور المجرم الذي تكاد أن تنكشف جرمته ، لماذا كل هذا ؟ لأن حسيناً الذي
كنت أحسبه عاقلاً ركب رأسه وأعرض عن ابنة عمه ليلتقط فتاة من
الطريق ، لا . هذا لن يكون . لن أقبل هذه الفضيحة أبداً ، سأقاوم هذا
الزواج . سأمتعه ولو كان في ذلك تحطيمه .

فبان في وجهها الملح وأحست يدا قوية تعصر قلبها وراحت تتلفت بعيون
زائغة ، باتت تخشى أن يدخل ابنها الآن فقد وافى ميعاد أوبته فتقع الكارثة
وتتهار الأسرة على رأسها ، واستمر في ثورته فأخذ يقول وهو يضرب كفه

بقبضته :

— سأقسو عليه .

فقال في صوت خافت :

— لا تتعجل ، انتظر ، قد يثوب إلى رشده .

— لا . هذا اللين أفسده .

— قد ندفعه بضغطنا عليه إلى العناد .

— سأقول له اليوم في وضوح : إننا لا نوافق على هذا الزواج فعليه أن يختار بيننا وبينها ، فإذا فضلها علينا فلن أسمح له أن يمكث في بيتي دقيقة واحدة ، إننى لا آوى في دارى من يعصينى .

وتعلقت به عيناها وهو في غلوه ورواحه وقد اضطربت نفسها رهبة فما كانت تخشاه أصبح قريب الوقوع ، إن هو إلا أن يفتح الباب ويدخل حسين حتى يجبه أبوه بثورته ويصرخ فيه أن يفارق الدار فتقع الجفوة التى تحيل هنايتها شقاء . ورأت أن تحتال حتى توهن هذه الثورة المتاججة في صدر زوجها فقالت :

— لا تفاتحه يا محمود في هذا الأمر .

— لماذا ؟

— لأن كثرة الخوض في هذا الموضوع يشجعه على المضى فيه .

فقال في إصرار :

— لا ، لن أترك الأمر معلقا ، عليه أن يختار بيننا وبينها .

ساد المكان سكون لم يعكره إلا رنين الجرس ، فالتفتا نحو الباب وأخذ قلباهما يدقان في اضطراب ، ودخل حسين بقامته الطويلة متطلق الوجه ، فلما رآهما قال في هدوء :

— السلام عليكم .

واسترقت الأم النظر إلى زوجها فألفته مقطب الجبين فأوجست خيفة ،

وانساب حسين إلى غرفته وراح يدل ثيابه ، ونهضت الأم تجهز السفرة شاردة اللب مبهورة الأنفاس .

وقعدوا يتناولون الغداء وحسين يتحدث وأمه تصغى إليه بقلبها وأبوه مطرق لا يفوه بكلمة ، ورفع الطعام ولم تهدأ نفس الأم القلقة ، إنها حزرت أن زوجها قد تريت حتى يتتوها من الطعام ثم يفتح الموضوع الذى أصبح مسلطا عليها كسيف الجلال .

ومر الوقت وهى فى رهبتها ولم ينبس زوجها بكلمة ، ونظرت إليه فخيّل إليها أن سحائب الكدر التى رانت على وجهه قد انقشعت ، ولكنها لم تهدأ بل ظلت فى حيرتها ، ونهض زوجها ودخل حجرتها وقام حسين إلى غرفته وبقيت فى جلستها تجتر مخاوفها .

وانقضت ساعة وبعض ساعة وخرج حسين يرتدى ثيابه وهو بادى التأنيق يلوح فى وجهه البشر ، ودنا من أمه وقال :

— سألبسها اليوم خاتم الخطبة .

فقال وهى تنتفض :

— لماذا تقول هذا ؟

فقال وهو يتسم :

— لأشركك فى أفراحي .

وسار نحو الباب ، وقبل أن يفتحه التفت إليها ورفع يده إلى رأسه يحببها وأشرق وجهه وانبسطت أساريره ، فخفضت بصرها فانساب إلى الخارج وراح يهبط فى الدرج وقد ملأته نشوة .

وأقبل زوجها وأخذ يقلب عينيه فى المكان كأنما يبحث عن شىء ثم قال :

— أين حسين ؟

فقال وقد نمت عيناها عن الخوف النازل بجوفها :

— خرج .

فعاد زوجها إلى غرفته ولم يتكلم ، فأحست كأنما رفع عن صدرها حجر
ثقيل كان يكم أنفاسها فزفرت في راحة .

انطلق حسين يغذ السير يتحسس جيبيه بين اللحظة وأخرى حتى إذا بلغ
دارها صعد في الدرج ثابت الخطو ودق جرس الباب وراح يصلح هندامه
ويعمرر أصبعه على شاربته ، وفتح الباب فوجد أمامه هدى بوجهها الصبيح
وعينها الساحرتين الجذابتين تتطلع إليه في ترحيب ، فأحس ديب التمل يسرى
في بدنه وخفق قلبه سرورا وارتسمت على شفثيه ابتسامة حاملة ، وقال وعيناه
تضحكان :

— إسماعيل بك السرورى موجود ؟ .

ففسحت له الطريق وكانت منبسطة الأسارير يكاد الدم يطفر من
وجنتيها :

— تفضل .

وسارت أمامه وهو في أثرها يتطلع إليها نشوان ، كانت في ثوب من الحرير
الأخضر يفضح مفاتها ، وكانت تتلفت إليه وهى في طريقها إلى حجرة
الجلوس فتشع عيناها بريقا يهر قواده وينوس شعرها الأسود في دلال
فتضطرب مشاعره ، ودلفا إلى الغرفة فجلس وبقيت واقفة تنظر إليه في فرح ،
فقال لها وهو يومئ إلى مقعد قريب :

— تفضلى .

فقالت مستأذنة :

— لحظة واحدة .

وانسلت من الحجرة في خفة الطيف وهو يتبعها بنظرات ولهى ، وغابت
عن عينيه ولم تغب عن خياله فدبت الحركة في نفسه فراح يناجها مناجاة عذبة
انتشت لها روحه ، وظل في حلم يقظته حتى سمع وقع أقدام فالتفت فرآها



.. ونظرت إليه من طرف عينيها نظرة هزت كيانه

مقبلة ونهداها يترجرجان في توافق ، وثغرها كهلال من الدم انفرج عن لؤلؤ
نضيد ، وعيناها تنفثان سحرا ، فأحس كأنما أريقت في جوفه دنان النشوة ،
وتطلع إليها وقد لاحت في وجهه الغبطة ، ودنت منه فملاً عيبرها الفواح
أنفه ، وجلست إلى جواره فجعل ينظر إليها وهو في غمرة من السرور .
ومرت لحظات وهما يتبادلان النظر في صمت كان أبلغ من الحديث ،
ورأى حسين أن يتكلم فقال وقد مشت فيه رهبة :

— جئت اليوم أسمع رأيكم فيما عرضته عليكم . تقدمت إليكم وقلبي على
كفى وهو كل ما أملك ، وأنا أطمع أن يحوز هذا القلب الخافق بحبكم
القبول .

فأطرقت في خفر ونظرت إليه من طرف عينيها نظرة هزت كيانه ، وقالت
في صوت خافت :

— أمي قادمة تفضي إليك برأينا ؟

فقال في حماسة :

— أريد أن أسمعه من فمك .

فقالت وقد أسبلت جفنيها :

— الكلمات تفر مني ، ليتك تستطيع أن تصغي إلى حديث قلبي .

فنظر إليها جذلان وقال :

— هذا يكفيني .

ومس أذنيه حفيف ثوب فالتفت فرأى أمها مقبلة بقامتها المديدة ، كانت
في ثوب جديد بلا أكمام فبدت ذراعاها عاريتين وقد انتشرت المساحيق في
صفحة وجهها ، وصففت شعرها في عناية فائقة وحلت جيدها بقلادة وتدل
من أذنيها قرط طويل ، وبالغت في زينتها كأنما كانت العروس تأهب للقاء
خطيبها .

وتقدمت منهما ، فلما ألقته يتطلع نحوها قالت مرحبة في صوت منغم :

— أهلا وسهلا .

وهب واقفا يستقبلها وصافحها والابتسامة العذبة تتوج شفثيه ، وقعدا وهما يتبادلان عبارات الترحيب ، ثم ساد الصمت وراح على المكان سكون .
وراح حسين يستجمع أفكاره وقد انتشرت في صدره أبخرة من القلق ،
كان واقفا من قبوله زوجا لهدى وعلى الرغم من ذلك لفته رهبة واضطرب ،
رفع عينيه وقال في صوت متهدج :

— ماذا رأيتم فيما عرضته عليكم يوم الخميس الفائت ؟ .

فاعتذلت الأم في مقعدها وقالت وقد أخذ حاجبها يرتفع وينخفض :
— والله لقد تفتحت لك قلوبنا ، وسرنا أنك لم تحاول أن نتحدثنا فأينا أن
نعطيك هدى ونحن مطمئنون .

فقال في تلثم والدم الحار يجري في عروقه :

— أشكر لكم هذه الثقة .

والتفت إلى هدى فألفاها تنظر إليه في هيام ، فخفق قلبه وبدا على شفثيه
ابتسامة عذبة وظل يديم النظر إليها وهو نشوان .

وتحسس جيبيه ، ثم دس فيه يده وأخرج علبة صغيرة من الخمل الأحمر
وفتحها وتناول منها خاتما ، وقام إلى هدى وقلبه يرفرف في صدره يتألق في
عينيه بريق حلو ، وأخذ إصبعها بين إصبعيه وألبسها الخاتم وهي مطرقة في
حياء وأنها تنظر مفعمة بالغبطة ، ولو طاوعت نفسها لأطلقت في الغرفة
الزغاريد مدوية .

ارتبك حسين ولاح في وجهه آى الاضطراب ، وفطت الأم إلى ما اعتراه
فنزطت إلى إصبع ابنتها فوجدت الخاتم واسعا ، فابتسمت وقالت في هدوء :
— لا بأس ، نعيده إلى الصائغ ليضيقه .

وعاد إلى مقعده والخاتم بين أصابعه وقد استولى عليه ضيق ، وحزرت الأم
ما يعانیه فأرادت أن ترفه عنه فقالت وهي تبتسم :

— هذا يرهان على أنك لم يسبق لك أن خطبت .

فقال في ارتباك :

— هذه أول مرة .. وآخر مرة .

— هذا بشير خير .. إن الله سيوسعها عليكما ..

وانبسطت أساريره وظل الخاتم بين أصابعه ، وكأنما شاعت أن ترشده إلى

ما يتبع فقالت له في هدوء :

— جرت العادة أن يطلب الخطيب خاتما من خواتم العروس ليصنع خاتم

الخطبة على مقاسه .

ونفضت لتحضر له خاتما من خواتم هدى فقام مستأذنا ، فقالت في

دهش :

— إلى أين ؟

— ذاهب لزيارة خالتي .

— والخاتم ؟

— سأقّي غدا صباحا لآخذ هدى ونذهب معا إلى الصاغة .

والتفت إلى هدى فألفاها تتطلع إليه وفي عينيها رضا فرقص قلبه طربا ،

وغادر المكان وهو مغمم بالأمل والنشوة .

كانت الشمس تبعث أنفاسها الخافتة قبل أن تتوارى في جوف الأرض
مخلفة الظلام الثقيل ، والنسيم يهب من النيل رخاء يداعب السجف الحريري
في الردهة الخارجية من قصر كمال بك ، والمقاعد خالية إلا من الهواء الذي كان
يلور كأنما يبحث عن وجوه يلمسها في رقة لينعش الأفئدة الهاجعة في
الصلور .

كان اليوم يوم الخميس الذي طالما دبت الحياة فيه في القصر ، ولكن
السكون العميق ران على كل شيء ، فالروح السحرية التي كانت تملؤه حياة
هجرته وتركته بلا روح .

وهتك ذلك الصمت وقع أقدام إجلال وهي ترقى الدرج في تناقل
مطأ طئة الرأس وفي وجهها عبوس ، وسارت في الردهة فلم تجد أحدا فما
عادت عليه تهبط من غرفتها لترقب قدوم حسين بعد أن لج في الهجران ،
وتلفتت فأحست وحشة وانقباضا فوسعت من خطوها وصعدت إلى الطابق
العلوي وقلبا يتزف أسي وحزنا .

وقابلت خالتها فحيتها وقعدت ، وقالت لها :

— أين عليّة ؟

— لا زالت في غرفتها .

ولزمت إجلال الصمت وشرد بصرها ولاح في وجهها سهوم ، فنظرت

إليها سنية هائم مليا ثم قالت لها :

— ما بالك اليوم عابسة ؟

(النقاب الأزرق)

- فقال إجلال في حزن .
— سمعت خيرا أحزننى .
— ما هو ؟
— بلغنى أن حسينا سيتزوج من فتاة أحبا .
فقال سنية هائم في ضيق :
— من قال لك ذلك ؟
— صديقة من صديقاتى .
فبان في وجه سنية هائم القهر وقالت :
— والله لأزوجنها من هو خير منه .
ونظرت إجلال إليها بعينين حاثرتين وقالت في نبرات متهدجة :
— عليه تحبه .
فقال سنية هائم في غيظ :
— وماذا نستطيع أن نفعل ؟
فأشاحت إجلال بوجهها وقالت في صوت خافت :
— لا شيء .
وأطرقتا وخيم على المكان عبوس ، ومرت لحظات ثم رفعت إجلال رأسها
وقالت :
— يجب ألا تعرف .
فنظرت إليها خالتها وفي عينيها حزن وقالت :
— بل يجب أن تعرف .
— سنجرعها كوس العذاب .
— من الخير أن نجرعها الآن لم مرة من أن ندعها للقلق الدائم والضمنى المرير .
— سنجرح قلبها .
— لا زالت صغيرة سرعان ما تندمل الجراح .

فغمغمت إجلال وقد صويت بصرها إلى لا شيء :
— هيات .

وسمعت حركة ، فالتفتنا فألفيتا عليّة قادمة بقوامها المشوق وشعرها
الذهبي وعينها الزرقاوين وقد انتشرت في صفحة وجهها صفرة ، فلما رأت
إجلال ابتسمت واتجهت إليها ، فقامت إجلال تصافحها وهي تحس إبرة تحز
قلبها ، وراحت أمها تتطلع إليها وفي حلقها وقدة نار .
ورحن يتحادثن في قنور وسنية هائم وإجلال تتبادلان نظرات قلقة،
وفطنت عليّة إلى ذلك القلق الجاثم على المكان فغاص قلبها وانتشرت الرهبة في
صدرها ، ونظرت إليهما في تساؤل ثم قالت :
— ماذا هناك ؟

فقالت إجلال في اضطراب :

— لا شيء .

— بل تخفيان عني أمرا .

فقالت أمها في نبرات حزينة وعيناها مسبلتان :

— لا شيء ذا بال ، رأت إحدى صديقات إجلال حسينا في رفقة فتاة .
فأحست عليّة خنجرا يطعن فؤادها ويمزقه ومشاعر الحزن تتدفق في جوفها
حتى تكتم أنفاسها ، وأخذت تنظر إليهما نظرات قلقة حائرة ، وحاولت أن
تتجلد وتبدو هادئة لكن ذلك كان فوق طاقتها فبان في وجهها الأسى
والانزعاج .

وجزعت الأم لتلك الكآبة التي كست وجه ابنتها فقالت لتخفف عنها :
— لعلها رأت شابا آخر حسبته حسينا .

ولكن لم يسر ذلك عن عليّة ، كانت غارقة في أحزانها ، حزر قلبها ما
حاولت أمها أن تخفيه فراح يدمى في صمت ويذرف الدمع على الحب الذي
كفن في الصدر قبل الأوان .

ونظرت إليها إجلال وهمت أن تتكلم ولكن الكلمات ماتت على شفتيها ،
فالخزن الذى تبدى فى وجه عليّة قبض قلبها وعقل لسانها ، وزفرت سنية هائم
فى ضيق ثم قالت فى زجر :
— ما هذه الكآبة ؟ الأمر لا يستحق كل هذا العبوس .

وأحسّت عليّة أن مشاعرهما التى تمور فى صدرها تريد أن تنطلق ، فقامت
مزلزلة النفس ممزقة الأعصاب تحسّ ألسنة النار تلسع روحها ، وانسحبت من
الغرفة وفى رأسها دوار وفى جوفها شجن .

ونفضت إجلال وانطلقت خلفها ، ودخلت عليها حجرتها فألقتها تحمل
رأسها يكفها وقد شردت يبصرها وفى وجهها أعمق الأسى ، فدنت منها
خافقة القلب وقعدت إلى جوارها وربّت على كتفها وقالت فى صوت
متهدج :

— خففى عنك .

وتلاقت العيون فى صمت ، ثم جرت دموع عليّة حارة على خديها وارتمت
فى أحضان إجلال تنشج وتنحب ، فضمتها إجلال إليها وقد ترقّرت دموعها
فى مقلتيها .

عسّس الليل ومد الظلام رداءه الأسود الثقيل يلف الكون ، ونشر الهدوء
 أجنحته فهجع كل شيء في الكلية إلا بعض طلبة أكبوا على استذكار دروسهم
 في ضوء خافت ضعيف ، وتثاءب أحدهم وأحس فتورا فنهض يتمطى واندس
 في فراشه ، وبقي حسين منهمكا في قراءاته حتى شعر بملل ففكر في أن يذهب
 ليسترخ ، واعتدل في مقعده وشرّد بذهنه فرأى هدى تبتسم له فانتعشت
 روحه وانتشت نفسه ، وشعر كأن يدا رفيقة تمسح صدره فتبدد ذلك الملل
 الذي استولى عليه فاستأنف استذكاره في حماسة فقد وطن النفس على أن
 يكون من المتفوقين حتى يعين في عاصمة من العواصم ليجنب هدى العيش في
 أعماق الريف .

واستمر فيما هو فيه ، فلما مشى التعب إليه قام واستلقى في فراشه وهو
 مكدود ، وأغمض عينيه ولكن لم يمّس النوم جفنيه فقد أضاء ذهنه وبدت فيه
 مشاهد حيية .. راح ينظر إليها وهو مسرور .

رأى نفسه وهدى وهما منطلقان إلى الصباغة ليستبدلا بخاتم الخطبة آخر ،
 ورأى نفسه وهو يحادثها خافق القلب يفضى إليها بما عزم عليه وهي تصغى إليه
 وفي عينها سرور ، وأصاخ لصوته وهو يقول لها : « ستزوج يا هدى بعد
 ثلاثة أسابيع ! ، ورن في أذنيه صوتها وهي تقول له وقد اتسعت عيناها في
 دهش : « لم تجهز شيئا من الجهاز بعد » . وسمع صوت نفسه وهو يقول لها :
 « ليس هناك ضرورة لإعداد هذا الجهاز .. إننا لا ندرى أين سنعين فلنؤجل
 أمره إلى يوم نستقر فيه » .

واستمر يسبح في فكره يتذكر ما كان بينه وبينها وهو نشوان حتى غلبه النوم فنام ، وأشرقت الشمس ودبت الحياة في الكلية فراح يسعى مع الساعين .. فلما جاء العصر ذهب إلى النادي يستجم قليلا قبل أن ينطلق إلى قاعة الاستذكار .. ولمح صحيفة تناولها وراح يقلبها يبحث عن الروايات التي تعرضها دور السينما في ذلك الأسبوع فقد واعد هدى على أن يخرجها معا يوم الخميس .

أخذ يقرأ أسماء الروايات فألقى رواية « غراميات كارمن » تستهويه . فقرر رأيهِ على أن تذهب هدى معه لمشاهدة هذه الرواية .

ووافى يوم الخميس فانساب خفيفا في الطرقات المؤدية إلى دارها ، فلما بلغها راح يصعد الدرج قفزا ، ودق جرس الباب وقلبه في صدره يرقص فرحا ، ولم يطق أن يترث حتى يفتح الباب فعاد ودق الجرس وهو ينقل رجله في قلق .

فتح الباب فرأى إسماعيل أفندي السرورى بنظارته ذات الإطار الفضى وشعره الرمادى المبعثر وهو يتسم له ويقول :

— تقضل .. أهلا وسهلا .

وأقبلت ليلي الصغيرة وقد ارتدت ثوبا نظيفا وصفقت شعرها في عناية ، فطن إلى أنها ستذهب معها فلن يسمحوا له أن يتفرد بهدى قبل أن يتي بها ، فأحس رضا يختل جوفه وطمأنينة تسكن صدره .

والتفت إلى ليلي وقال وهو يجذبها إليه :

— سنشاهد الليلة رواية لطيفة .

ونظر إلى الأم فوجدها تنظر إليه منسرحة .. ولما التقت عيونهما قالت وهي ترفع حاجبها :

— أية رواية ؟

— غراميات كارمن .

— رواية مصرية ؟ .

— لا .. رواية بالألوان الطبيعية .

فقالت الأم كأنما فهمت شيئا :
— آه .

ولمح هدى قادمة فحقق قلبه ، وأدام إليها النظر فشعر بنشوة . كانت رائحة
الحسن شديدة الأسر ينبعث من عينيها السوداوين يريق يعرف طريقه إلى
القلوب ، وكانت تتثنى كغصن رطيب داعبه النسيم فأحس كأنما أنجذبت
روحه إليها ، ونهض وفي وجهه أمارات الغبطة وفي عينيه وجد وهيام .
صافحها في حنان وضغط على يدها في خفة ، وعريد السرور في جوفه
فاشتاق إلى أن يأخذها ويذهب بعيدا عن العيون ، فالتفت إلى الأم وقال :
— إننا ذاهبون .

فقالت وهي تبسم :

— ألا تمكت قليلا ؟

— أزف ميعاد السينا .

والتفت إلى ليلي وقال :

— هيا يا ليلي .

وهم بالانصراف ولكنه تذكر إسماعيل السرورى الذى كاد ينساه فذهب
إليه وصافحه ، وانصرف وهدى إلى جواره ولىلى خلفهما كالحارس الأمين .
وركبوا سيارة انطلقت بهم ، ونظر حسين إلى الطريق من خلل الزجاج ثم
التفت إلى هدى وقال :

— يا طالما سرت في هذه الطرقات ولكننى لم أرها جميلة كما أراها الليلة .

إن كل شيء أمد إليه بصرى يبدو جميلا .. ما أجمل الحياة !

ونظرت إليه في وجد واقتربت ثغرها عن ابتسامة عذبة ، ثم أسبلت جفניה
فقال لها في همس :

— ما أجمل الجفون إذا حاولت أن تخفى في دلال ما تبدى العيون !
ووقفت السيارة أمام باب السينما فهبطوا منها وراحوا يشقون الجموع ،
ولح بعض العيون المتطفلة تنفرس فيهما فلم يغضب بل أحس راحة ، فجمال
هدى يجذب الأبصار ، وانطلقوا حتى بلغوا مقاعدهم فجلسوا يتحادثون .
ومر الوقت وهو مفعم بالنشوة . وجاءت استراحة وأضيئت الأنوار فنظر
في البرنامج الذى كان في يده فقرأ : « غراميات كارمن » .. وفكر دون أن
يدرى فيما جعله يختار هذه الرواية . إنه يفضل روايات المغامرة والشجاعة فما
الذى جذبه لمشاهدة رواية غرام ؟

وطفت على سطح ذهنه صورة عليّة وهي بالقرب من المعزف في ذلك
اليوم الذى انهمر فيه المطر وهي تقول له ولأبيه : « امكثنا معنا حتى المساء ثم
نذهب جميعا إلى الأوبرا » ، فيقول أبوه : « ماذا نشاهد هناك ؟ » فتقول
عليّة : « كارمن » .. وشعر بقلق يمشى في جوفه ، وعجب في نفسه لتلك
الذكرى التى خطرت له فجأة فأضرمت القلق بين ضلوعه في لحظة من
لحظات صفوه .

والتفت إلى هدى وجعل يحدثها ليتردد من ذهنه تلك الذكرى المتطفلة
التي لا يدري سببا لإلحاحها على رأسه في هذه الساعة التى ينعم فيها بأسعد
الإحساسات .

وأطفئت الأنوار وبدأ عرض الرواية فراح حسين يشاهد ما يجرى على
الشاشة ولم ينقشع قلقه ، وأخذت المشاهد تمر وهو يتابعها باهتمام وأعصابه
متوترة . إنه يرى ضابطا حديثا يسقط في شرك امرأة من الغجر فيخفق قلبه ،
ويتعلق الضابط بها ويهم بها حبا حتى إنه يرتكب في سبيلها حماقات تدفعه إلى
أن يفر معها إلى الجبال يعيش عيشة قطاع الطرق . وفي يوم يقبل زوجها
وتدور بين الرجلين معركة هائلة مروعة تنتهى بأن يتنصر الضابط ويسقط
الآخر صريعا مضرجا يدمه . يصبح الضابط الذى ضحى بكل شيء في سبيل

من يحب السيد الذى لا يتازع سلطانه أحد ، وتبدأ المرأة النارية التى لا تهدأ تبحث عن حب جديد ، فتضطرم الثورة والغيرة فى صدر الضابط الذى كان ضحية قدره .

زاد نبض حسين وسرت دماؤه حارة فى عروقه وثارت مشاعره فى جوفه ، فراح ينظر وهو مبهور لا يدري سبب ذلك الانفعال الذى استبد به ، واندج فى الرواية حتى خيل إليه أنه يشاهد شيئا وثيق الصلة به ، وأقلقه ذلك الشعور فأراد أن يطمئن نفسه أن ما جرى أمامه إن هو إلا رواية ليس بينه وبينها من سبب ، فمد يده وقبض على يد هدى وراح يضغط عليها فى انفعال ، فحسبت أنه يغازلها فمالته نحوه حتى التصق كنفها بكتفه ولمس شعرها الناعم خده وملاً عبيرها الفواح أنفه ، فلم يفتن إلى ذلك فقد كان غائبا عما حوله بالأثر العميق الذى تخلفه فيه المناظر تتابع أمام عينيه .

وانتهى العرض وأضيعت الأنوار فأحس كأن كابوسا انزاح عن صدره ، ونظر إلى هدى وفى عينيه حيرة ، وخشى أن تفتن إلى اضطرابه فقال لها :

— ما رأيك فى الرواية ؟

— نهايتها بشعة ، قتلها وقتل .

فقال فى انفعال :

— ضيعت مستقبله وحطمت قلبه ، عبثت به وأرادت أن تمرغه فى

الأوحال .

وساروفى صدره بقايا قلق وهدى إلى جواره وليلى تتبعهما ، وما خرج إلى الطريق ولفح الهواء البارد وجهه حتى ذهب قلقه ورد إلى طبعه ، فالتفت إلى هدى مشرق الحيا وراح يتاجيها ، فعادت الغبطة تمرح فى صدره والأمل البسام يتخايل أمام عينيه .

وضع حسين حقيبة سفره مفتوحة على سريريه وراح يغدو ويروح في الغرفة وهو صامت يجمع حوائجه من هنا وهناك يدسها في الحقيبة ، وأمه ترنو إليه في أسى تغالب دموعها التي تترقق في مآقيها . إنه تخرج وعين في الإسكندرية فأصبح عليه أن يفارقها الساعة ليذهب إلى عمله .

راحت ترقبه حزينة كسيرة الفؤاد فما تحقق أمل من آمالها ، كانت تتمنى أن يعين في القاهرة ليكون بقربها فما كانت تطيق فراقه ، وها هو ذا يعد نفسه ليغادرها . وكانت في لحظات فراغها تشرذ بذهنها في مناهات الخيال فتري — وهى مفعمة بالنشوة — ليلة زفاف ابنها التي ستقيمها يوم تخرجه ، وها هو ابنها يسافر دون أن يقام الفرح الذي تراءى لعينها في اليقظة وفي المنام . رفض أن يتزوج ابنة عمه فأغضب أباه وحرّمها أمّيتها الكبرى حرّمها من أن تكتحل عيناها برؤيته وهو إلى جوار عروسه باسم الثغر مشرق الوجه . في ليلة الزفاف .

وأخذ يجاهد ليغلق الحقيبة ، فأحست كأنما أغلقت أبواب الأمل في نفسها وراح قلبها يتنزى حزنا ، ومد يده يحمل حقيته فاضطربت وشعرت بوقدة من النار تلسع قلبها وبرغبة في أن تبقى معها ، فقالت في صوت حزين :

— ألا تبقى حتى يأتى أبوك ؟

فقال دون أن يرفع إليها بصره :

— لا بد أن أسافر الآن .

— تغد معنا وسافر بعد الظهر .

فقال ليخفف عنها :

— لن أغيب إلا أياما ، سأعود يوم الخميس .

وتحرك ليغادرها ، فلم تستطع أن تكتم عواطفها فانطلقت إليه ولفته بذراعيها وضمته إلى صدرها في حنان وأخذت تلثمه وقد جرت دموعها على خديها ، فتحركت عواطفه وخشى أن يتبدى ضعفه فأطرق ثم انسل من بين ذراعيها في خفة ، وسار وهي تنظر إليه من بين دموعها وقلبا يهتف :
— في حفظ الله .

وهبط إلى الطريق ووقف على الطوار ، فلما لمح سيارة أشار إليها ووضع حقيبته فيها وركب ، وانطلقت به ولكنها لم تنطلق إلى المحطة بل اتجهت إلى بيت هدى ، وما مرت لحظات حتى كان أمام الباب يدق الجرس .
انفراج الباب عن هدى في ثوب من ثياب المنزل كان في لون الفيروز طرزت على صدره وردة كبيرة ، وكان شعرها السبط يتهدل على كتفها وعيناها السوداوان ينفثان سحرا ، فلما رآته تهلل وجهها وضمت ثوبها بيدها إلى صدرها فبرز نهذاها في إغراء ، وفسحت له الطريق في ترحيب فدخل وهو يتطلع إليها في سرور .

ولحت الحقيبة الكبيرة في يده فقالت وهي تسير إلى جواره :

— مسافر ؟

— الآن . تعالى معي .

فابتسمت وأسبلت جفניה فاهتز قلبه ، وسار حتى دخلا غرفة الاستقبال فقعدها وهو يأخذها ببصره فهمت بالانسحاب فقال لها :

— هدى !

فنظرت إليه من فوق كنفها وفي عينيها تساؤل ، فقال في حنان :

— إذا كنت أسافر وحدي اليوم فسنسافر معا يوم الخميس .

فانسلت في خفة وهي تهتز فرحا .

وأقبلت الأم وهي ترحب به من بعيد في نبرات منغمة . وصافحته في
حرارة وقعدت في مقعد قريب منه ، ولحت الحقيبة فقالت :

— مسافر ؟

— بعد قليل .

— وماذا ستفعل ؟

فقال وهو يتسم :

— ما يفعله المسافرون .

فقالت وهي ترفع حاجبها :

— وأين تنزل ؟

فاعتدل وقال وهو ينظر إليها :

— لا أدرى بعد ، سأبحث عن مكان ثم آتى يوم الخميس لأخذ هدى .

فقالت في إنكار :

— يوم الخميس ؟ إننا لم نتأهب .

فقال في بساطة :

— الأمر لا يستدعى تأهباً ، ولو طأوعتموني لأخذتها معي الآن .

فقالت وقد اتسعت عيناها :

— دون أن تعقد عليها ؟

فابتسم وقال :

— ما أيسر حضور المأذون .

فقالت كأنما تفر من شبح :

— لا .. لا .. لن يكون ذلك دون إقامة فرح .

— وما لزوم الفرح ؟

فقالت في استغراب :

— ما لزوم الفرح ؟! إنه كل شيء للعروس .. إننى أذكر ليلة زفانى في

ساعات همى فيتبدد كرى ، إنها الذكرى الحبيبة التى تفيض فى لحظات فتغمر ما عداها من ذكريات .. لا أحسب أن عروسا تسعد إذا تزوجت دون فرح .
— وما دخل إقامة الفرح فى السعادة ؟ .. الهناءة الحقيقية فى راحة السر وهدوء البال .

فقال وهى تنظر إليه فى أعماق :

— لن تقيم فرحا ؟

فقال فى هدوء :

— سأحضر يوم الخميس أنا والمأذون ، ثم آخذ هدى ونرحل .

وجاءت هدى فى ثوب بديع يبدو منه منحراها وذلك الأخدود الغائرين ثديها وقد صففت شعرها وأبرزت ففتها ، فشعر بنشوة تنتشر فى جوفه وجعل يتطلع إليها وهو سعيد .

وأرادت الأم أن تشرك هدى معها فى الحديث فقالت :

— إنه يريد أن يأخذك معه يوم الخميس .

فصمتت ولم تحرجوابا ، ورأى حسين أن ينصرف فنفض فقالت له الأم :

— إلى أين ؟

— مسافر .

— لن تسافر قبل أن تتغدى معنا .

— متشكر ، لا بد أن أسافر الآن .

فقال له الأم :

— لن تخرج قبل الغداء .

وتلاقت عيناه بعيني هدى فألفاهما تدعوانه ، فقعده وقد استجاب لدعاء عينيها وإن رفض قبل ذلك أن يمكث استجابة لدعوة أمه التى كانت تشتبى بكل جوارحها أن يبقى معها سويحات .

كانت الشمس تبعث أشعتها حامية تشوى الوجوه والناس يحتمون بالحوائط من تلك الأشعة التي كانت تلسعهم كألسنة من نار وقد تفصد منهم العرق وضائق الأنفاس ، وفي ذلك الهجير وقفت سيارة هبط منها حسين وراح يهرول نحو الدار منبسط الأسارير ، فقد كان مشغولا عن ذلك الحر الذي يكاد يزهق الأرواح بما يعتمل في صدره من مشاعر وما يجري في رأسه من أفكار .

وطرق الباب ففتحت له الخادم الصغيرة ، وما إن سار في الردهة خطوات وارتفع وقع أقدامه حتى هرعت أمه إليه وجعلت تضمه إليها في شوق ، ودخل غرفة الجلوس فألقى أباه قاعدا فذهب إليه وصافحه ، وقعدوا يتحدثون . وانتهى الغداء ودخل الأب غرفته وبقي حسين وأمّه يتناجيان ، فقالت الأم :

— ستبيت عندنا الليلة ؟ .

فقال وهو يتسم :

— سأبيت مع عروسى .

فنظرت إليه في دهش وغمغمت في أسي :

— ماذا تقول ؟ .

— سأخذ المأذون معي الآن ثم أسافر أنا وهدى الليلة بعد إتمام العقد .

فقالت وهي تنظر إليه في ارتياب :

— حسنين !

فقال فى عتاب :

— لماذا لا تأتين معى لتشاهدى فرحى ؟ إن غيابك يحز فى نفسى .
فغامت صفحة وجهها بسحابة من الكدر ، وبان فى عينها الأسى وقالت
فى قهر :

— كنت أعيش وأنا أحلم بهذه الليلة ، ولكن كتب على ألا أراها .
— لماذا لا تستجيبين لرغبة قلبك ؟ إنك تريدان أن تذهبى ، تعالى ودعك
من المجاملات الفارغة التى تخنق النفس ، إن عمى لن يرضى عنك ولو وقفت
فوق السطح وصرخت بأعلى صوت أنك لا توافقين على زواجى من فتاة غير
ابنته .. تعالى .

فقال فى ضعف :

— لا أستطيع .

— لماذا ؟

— لا أريد أن أغضب أباك .

— ولماذا لا يأتى معى أبى ؟

فقال أمه فى يأس :

— كفى يا حسين لا تنكأ جراحات القلب .

وقام وذهب إلى حجرته وتمدد فى سريره والأفكار فى رأسه تتراحم
والمشاعر فى جوفه تمور ، ولم يستطع صبراً على أن يظل هادئاً فى رقدته فنهض
وانطلق إلى الحمام ، وأخذ يدلك جسمه وهو غائب بفكره يفكر فى كتابة
العقد . وخطر له خاطر : ترى أبيض يده فى يد إسماعيل السورى أم فى يد
زوجته ؟ ورأى نفسه يضع يده فى يد تلك المرأة الطويلة التى تتكلم بحاجبها ،
فابتسم لذلك الخاطر الساخر ونفسه صافية لم يكدرها شىء .

وخرج من الحمام ووقف يرتدى ثيابه أمام المرأة وأمه ترقبه نائرة الأعصاب
مضطربة الأنفاس ، وزمجرت عواطفها فى جوفها حتى كادت تعصف بها

إنها لا تستطيع أن ترى ابنها الوحيد يتأهب للخروج للزواج دون أن تذهب معه تشاركه آماله ، وشعرت بأنها تريد أن تثور ، أن تتمرد على هذه الأوضاع السخيفة التي تحول بينها وبين إظهار سرورها لزواج فلذة كبدها ، فانتضبت واقفة وقلبا يرفرف بين ضلوعها .

وسارت إلى غرفة زوجها وقلبا دائب الخفقان ودماؤها تتدفق حارة في عروقها ، واقتربت من سريره وهي تحس ثورة يشوبها قلق ، وشعر محمود أفندى بوقع أقدام ففتح عينيه فألقى زوجه تنظر إليه وفي عينها اضطراب وغضب ، فراح يرمقها وقد سرت في جوفه رهبة وقال وهو يعتدل في فراشه :

— خيرا ؟

فقال في انفعال :

— حسين سيتزوج الآن .

فقال وقد أربكته المفاجأة :

— ماذا ؟

— وسياًخذ زوجه ويسافر إلى الإسكندرية .

وبان في وجهه الكمد وصمت وهو حيران ، ثم غمغم :

— لن أرضى أبدا عن هذا الزواج .

فقال في حنان :

— إنه ابنتا ، فإذا كان قد أخطأ فعلينا أن نغفر له خطأه ، ينبغي ألا نتركه

يذهب وحده .

فقال في حدة :

— ماذا تريدني أن أفعل ؟

— أن تذهب معه .

فقال في ثورة :

— هذا محال ، لن يكون ذلك أبدا .

فقالت في توسل :

— محمود ، إنه ابتنا .

فقال وهو يشير بيده :

— فليذهب وحده .. فليذهب وليتزوج ممن يشاء ، رفض أن يستمع إلى نصحي فليس له عندي إلا الغضب والإعراض .

— أظهرنا استيائنا ولكنه استمر في طريقه وليس هناك فائدة من هذا الغضب ، وعلى كل حال فهي زوجته ومن حقه أن يختارها .. محمود ! إنه ابتنا وسيتزوج الليلة ويسافر وقد لا أراه بعد اليوم ، إننى مريضة وأمنيتى أن أفرح به قبل أن أموت ، فلا تجعل هذا اليوم يوم نكد وعذاب .

فقال وقد أشاح بوجهه :

— لن أوافق أبدا على هذا الزواج .

فقالت في صوت متهدج :

— لا تعذبنا .

فقال في صوت خافت :

— لا تفاتحنينى في هذا الموضوع بعد الآن .

وأطرقت وراحت تنسحب من الغرفة في خطا بطيئة حزينة وقد تفرقت الدموع في مآقيها ، ولم يستطع محمود أن يستمر في قسوته المفتعلة ، وشعر بعواطفه الرقيقة تنبثق في جوفه فنهض من فراشه واتجه إلى الخزانة القريبة من سريره وهو يقول :

— انتظري .

وفتح الخزانة وأخرج رزمة من النقود واتجه إلى زوجته وقال :

— أعطه هذه فهو في حاجة اليوم إلى نقود .

أخذ حسين ينقل عينيه بين المأذون الذى يكتب فى سجلاته وهو غارق فى عمله ، وإسماعيل أفندى السرورى الجالس إلى جواره وقد لج فى صمته وإن بان فى وجهه غبطة ممزوجة باضطراب ، ولىلى الصغيرة التى كانت تغدو وتروح فى الغرفة كفراشة طليقة . ولم يطق حسين أن يقعد ساكنا حتى ينتهى المأذون مما هو فيه فذهب إلى لىلى وضمها إليه وقبلها وهمس فى أذنها :

— أين هدى ؟

فقال الفتاة وهى تشير بإصبعها :

— وراء هذا الباب .

فانطلق إلى حيث أشارت وفتح الباب فى رفق فألقى هدى فى ثيابها المنزلية وإلى جوارها أمها فابتسم لهما فى رقة ، ثم قال وهو ينظر إلى هدى فى هيام :

— لم ترتدى ثيابك بعد ؟ هيا لقد أزف الوقت .

فقال له الأم :

— اقضيا ليلتكما عندنا ثم سافرا فى الصباح .

فقال حسين وعيناه على هدى :

— لا نستطيع ، سنسافر فى قطار السادسة ، هيا يا هدى .

وتحركت الفتاة وألقى نفسه يتبعها ، ودخلت غرفة بها سرير وصوان ووقفت تديم النظر إلى وجهها فى المرآة وهو يرقبها خافق القلب مرهف الحواس ، وتلفت حوله فلم يجد أحدا فدنا منها وضمها إليه وقبلها فى لهفة فأحس خدرا لذيذا يمشى فى أوصاله ، ونظر فى عينيها السوداوين الواسعتين

فاضطربت نار الصباية في جوفه ، فقال في صوت خنقته مشاعره :

— أسرعى يا هدى ، ما عدت أحتمل الانتظار .

وأقبلت ليل تقفز وتقول له :

— تعال ، إنهم في انتظارك .

فانسل في خفة وذهب إلى حيث كان المأذون وإسماعيل السرورى ، ووضع يده في يد الرجل الصامت وراح يردد ما يلقنه المأذون وهو يرجو في قرارة نفسه أن تنقضى هذه الرسميات .

وتم العقد ، ودخلت ليل تحمل صينية عليها ثلاثة أكواب بها شراب وردى ، فتناول الرجال الأكواب وراحوا يشربونها ، ووضع المأذون الكوب ولم يأت على ما به ، فأعاده حسين إليه وهو يقول مفتر الثغر :

— لا بد أن تشربه كله حتى لا تبور ليل .

فقال المأذون بعد أن عب ما في الكوب :

— لن تبور أبدا .. سأكتب عقدها قريبا إن شاء الله .

وخرج المأذون ، ودخلت الأم وقعدت إلى جوار حسين وفي صدرها مشاعر متباينة ، والتفتت إليه وقالت في انفعال :

— إنى أترك هدى وديعة بين يديك .

فقال حسين في حرارة :

— اطمئنى .. سأنزلهما في حبات قلبي .

وأشاح إسماعيل السرورى بوجهه وخلع نظارته ذات الإطار الفضى ومسح بظهر يده دمة سالت على خده ، ثم أعاد نظارته وراح ينظر إلى لا شيء وقد غرق في الصمت .

وتعلمل حسين في مقعده ثم انتصب واقفا واتجه إلى حيث كانت هدى وأمها خلفه ، فلما وقعت عيناه عليها ألفاها تتألى كزنبقة فرف قلبه في جوفه وقال لها وهو نشوان :

— أسرعى يا هدى .
ووقفت تديم النظر إلى نفسها في المرآة وهو يرقبها مفعما بالغبطة ، وفطنت
الأم إلى ما يعتمل في صدره من فرح وسرور فقالت له وهى ترفع حاجبها :
— أريد أن أسدى إليك نصيحة .
فقال وهو يرنو إليها منبسط الأسارير :
— ما هى ؟
— ألا تغار أبدا من المرأة .
فقال فى انشراح !
— إني أغار من الثوب الذى ترتديه .
وأتمت هدى زينتها واتجهت إلى حقيبتها الكبيرة ، فأسرع حسين إليها
ليحملها عنها ولكن الأم قالت له :
— دعها ، سيحملها البواب .

وتأهيا للخروج فمد حسين يده يصافح إسماعيل أفندى وزوجه ، وضم
ليل وقبلها ، وصافحت هدى أباهما وذهبت إلى أمها التى ضمتها فى حنان ،
وفتح الباب وخرجا منه فقامت عينا إسماعيل السرورى بالدمع ، وزغردت
الأم مرة . ولم تتبعها أخرى فقد أحست جمة تقف فى حلقها ووحشة تسرى
فى صدرها فراحت ترقبها فى سهوم ودمعها سرب .

* * *

الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، والنهار يردد آخر أنفاسه الحارة والقطار
ينساب كإرد أسود وسط المروج الخضىر ، والهواء يندفع من النافذة فيعبث
بشعر هدى البسيط فتسويه بيدها وهى ترنو إلى حسين الذى كان يناجها وهو
مغمى بالنشوة يحس إحساس الغارق فى حلم من الأحلام .
وهب الهواء يحمل ذرات الرماد . فأحست هدى شيئا غريبا فى عينيها
فمررت إصبعها على جفنيها ، ثم فتحت حقيبته يدها وأخرجت نقابها الأزرق

المهفاه وأسدلته على وجهها ولفته حول عنقها ، وراح الهواء يعبث به وحسين ينظر إليها وقلبه يرف بين جنبيه .
وافتر ثغره عن ابتسامة رقيقة ولاح في عينيه رضا وصال وجهه ، وقال في صوت حالم :

— يا للذكريات العزيرة التي أحملها لهذا النقاب !
فمالت هدى نحوه وقالت في دلال :
— أية ذكريات ؟

فراح يقول وقد شرد ببصره :
— أسعد ذكريات . إننى أذكر أول يوم رأيتك فيه عند خالتي ما أن اقتحمت عليك الحجرة حتى أسدلته على وجهك ، أحسست ساعتها أن قلبي استيقظ من سبات وانصرفت من عند خالتي وذلك النقاب يحتل أقطار نفسي ، كان يتراءى لى أنبا وجهت البصر وقلبي دائب الخفقان ، ودخلت إلى فراشي وحاولت أن أنام ولكن فكرى كان يجرى وراء ذلك الذى هز الفؤاد ، وما أشرقت شمس النهار حتى خرجت أجوس الحى أبحث عن ذات النقاب .

يا طالما زارنى فى هجعة الليل فى الكلية وما أكثر ما طاف بى فى النهار ! كنت أراه فى صفحات الكتب وفى رقعة السماء وحيثما أمد البصر ، فى النور أو فى الظلام ، كان القبس الذى أضاء حياتى والأمل الذى غمر صدرى والرغبة التى تفتحت لها مهجتي ، وصار على مر الأيام رمزا للسعادة التى ما أفكر فيه حتى تدثرنى نشوة ، وترعى فى جوفى مشاعر دفاقة من الغبطة ، وتتسع أمام ذهنى آفاق الخيال .

وخيم الظلام والقطار يتطلق كالسهم فى الفضاء وحسين يناجى هدى وقلبه عامر بالهيام ، ومالت نحوه ميلان الكتيب ، فأحس دماءه الحارة تسرى فى عروقه كشواظ من نار ، فمد ذراعه ولفها حولها وراح يقبلها فى اشتها من

فوق التقاب .

وبلغ القطار الإسكندرية فهبطا منه ، وانطلقا تلفهما السعادة حتى وجدا سيارة فركباها ، وسارت تخرق شوارع المدينة الواسعة ثم عرجت على شارع ضيق ووقفت أمام بيت متواضع ، فغادراها وراحا يريان الدرج وقد التصق كتفاهما وقلباهما في صدرهما يقفزان ، ووقفا أمام باب مسكنهما ودس يده في جيبه وأخرج المفتاح ووضع في الباب ، وقبل أن يلويه ضمها إليه وأخذ يقبلها في وجد وهيام .

وانفرج الباب فدلقا إلى الداخل وهما ملتصقان ، ومد يده وأدار الزر الكهربي فسطع النور ، وأدارت هدى عينها في المكان فألقت ردهة متوسطة بها مقاعد قليلة من الخيزران ، وسارا إلى غرفة أمامهما كان بها سرير وصوان ، فوضع حسين الحقيبة على السرير وفتحها ، ثم اتجه إلى الصوان وأخذ ينقل ملابسها إليه فأسرعت تعاونه ، وراحا ينضدان الثياب وهما يتبادلان القبلات .

بدل ثيابه ونظر إليها فألفاها قد جلست على طرف السرير مطرقة ، فأنجه إلى الأزرار الكهربية وأدارها فساد المكان ظلام ولم يبق إلا بصيص النور ينبعث من مصباح صغير ، فذهب إليها وراح يعاونها على خلع ثيابها .

انسل ضوء النهار إلى الغرفة على استحياء ، ففتح حسين عينيه المسبلتين اللتين لم تندوقا طعم الغمض طوال الليل ، ونظر إلى وجه هدى الصبيح الذى بدا كهالة من ضياء وسط فحمة شعرها المحلول المبعثر على الوسادة فى فوضى حبيبة ، فأحس غبطة تشيع فى جوفه وتطلقت أساريره ، ومال عليها ولثم شفتيها المطبقتين فى حنان فاهتزت أهداها الطويلة ، ثم فتحت عينها الواسعتين الساحرتين فلما وقعتا عليه وهو يتطلع إليها مسرورا رفعت يديها وأخفت وجهها براحتيها فى دلال ، فمد يده يزج يدها وقد رفت على شفتيه ابتسامة رقيقة ، فاستدارت ودفت وجهها فى الوسادة ، فاعتدل فى السرير ورفعها فى رقة بين ذراعيه وأخذ يقبلها وهو يغمغم :

— تعالى نستقبل أجمل صباح .

— وأريقنت أشعة الشمس من النافذة حتى غرقت الغرفة فى الضوء ، فرفع عينيه عن عينيها وأدارهما فى المكان ، ثم نظر إلى ساعته وقال .

— ما أسرع مرور الزمن .

وأحس أنه أتى حماقة ، فخلع الساعة من معصمه ووضعها بعيدا ثم قال :

— ما أسخف أن يكون معنا رقيب يحصى علينا ساعات الصفاء .

وراح النهار يعدو كالخيال ، وتحسس حسين بطنه وقال :

— أشعر بالجوع .

وكأنما تذكر شيئا لم يخطر له على بال فقال وقد اتسعت حدقتاه :

— نسينا أن نتناول عشاءنا ، وها هو ذا النهار يوشك أن يتتصف .. تعالى

تملاً بطنينا قبل أن تضعف عن حملنا الأقدام .
ودلفا إلى المطبخ وأخذتا يتعاونان على إعداد المائدة ، ثم قعدا يأكلان وهما
يتبادلان النظرات فيشعران بالسعادة تملأ جوانحهما ويتعكس على وجهيهما ما
يعتمل في صدريهما من مشاعر وإحساسات .
وذهبت هدى إلى الصوان وفتحته وأخرجت ثوبا بسيطا من ثياب
الصباح ، وقبل أن تخلع ثوبها رنت إليه في دلال فقال وهو منشرح :
— أخرج ؟ .

فقالته وهى تبتسم :
— لا ، بل أغمض عينيك .
فوضع يده على وجهه وأخذ يحلق من فرجات أصابعه ، فضحكت
وجعلت تبدل ثوبها ، واتجه إلى الصوان وراح يعبث بما فيه فعثر على مجموعة
من الصور فرفعها فى يده وقال :
— وما هذه ؟

فقالته وهى تصلح ثوبها :
— مجموعة صورى .
— لماذا تضعينها هنا ؟
— وأين أضعها ؟
— فى « الألبوم » .
فقالته متألفة العينين :
— ومن أذرانى أن هنا « ألبوما » ولم أمض إلا سواد الليل ؟
ومد يده وأخرج الألبوم ، وقعد على مقعد طويل وأشار لها أن تعالى ،
فجاءت وقعدت إلى جواره والتصق رأسها برأسه ، وجعلتا يشاهدان الصور
وقد توجت شفاهما ابتسامات .
ووقعت عيناه على صورة طفلة عارية توسدت الورود ووضعت إصبعها

في فمها ، فقال وهو يتفرس في الصورة :

— من هذه ؟

فقال في مرح :

— أنا .

— وكيف قبلت أن تظهرى هكذا أمام المصور عارية ؟

فقال وهي تهز كتفها :

— بكيت ، ولكنهم لم يسمعوا ليكأى .

فقال وهو يزفر :

— آه لو كنت حاضرا .

فقال وهي تنظر إليه في دلال من طرف عيناها :

— ماذا كنت تفعل ؟

فقال وهو يدفع إصبعيه في الهواء :

— كنت خرقت عيني المصور .

واستمر في مناجاتها ، والوقت يمر مرور الطيف ، ومالت الشمس

وتأهب النهار ليوذع الكون فالتفت إليها وقال :

— هيا نخرج نسير على الكورنيش .

فقال في إنكار :

— اليوم ؟

— الآن ، لن يأتى أحد لزيارتنا فما نعرف أحدا هنا .

فقال له وقد أسبلت عينيها :

— لم تخرج أمى بعد أن دخلت بيت أبى إلا بعد انقضاء شهر .

فقال لها وهو يمزر يده على شعرها :

— وأمى لم تخرج من دار أبى إلا بعد أن جاءت بى .

فقال وقد افتر ثغرها عن أسنانها :

— فلنفعل مثل ما فعلوا

فقال في فرع :

— نمكث شهورا دون أن نخرج معا ؟

فهزت رأسها موافقة ، فقال وقد اتسعت عيناه :

— فهل ارتكبنا ذنبا نستحق الحبس من أجله ؟

فقالت وهي تشير بيدها في تسليم :

— هذه سنة أهلنا .

فقال وهو ينهض ويمجذبا من يدها :

— مضت أيامهم وجاءت أيامنا .

وارتديا ثيابهما ، وهبطا إلى الطريق وانطلقا وهما يتهامسان حتى لفح هواء البحر وجهيهما فأنعشهما ، وسارا على شاطئ البحر وهما غائبان عما حولهما بنفسيهما ، وتمهلا في السير ثم وقفا واستندا إلى السور ، ونظرا إلى الأفق البعيد هنيهة والناس في غدو ورواح والنسيم الرقيق يداعبهما فتسرى فيهما راحة واطمئنان .

والتفت إليها وغمغم في وجد :

— هدى ، أحبك .

وتلاقت العيون وتحدثت اللحاظ فاهتزت القلوب وتدفقت المشاعر الفوارة بين الضلوع ، فالتصق بها وقال :

— أحسن رغبة في أن أضملك إني وأمطرك قبلات .

فقالت في صوت متهدج :

— حسين ؟

— سأحبك يا هدى دواما .

وأحست حركة خلفهما فالتفت ، فوقعت عينها على امرأة عجوز

قالت :

— حتى إذا ترهل جسمي ومشى الشيب في رأسي ؟

— حبي لك يا هدى لن نخمد له نار .

— أبدا ؟

— أبدا .

انطلق يغذ السير والنسيم يهب من البحر رخاء فقد تأهبت الشمس للرحيل ، وقبل أن يعرج على الطريق الضيق الذى يقود إلى داره وقع بصره على ضابط من ضباط الجيش يجلس إلى نضد من المناضد الكثيرة المبعثرة على الإفريز أمام محل للحلوى ، إنه رآه أكثر من مرة فى غدوه ورواحه ، وقد تلاقت عيناه بعينه فرفع يده محييا وسار فى طريقه .

ودلف إلى داره وصعد الدرج قفزا ، وطرق الباب فى رفق ففتحت هدى والابتسامة تتوج شفتيها ، فقال وهو فى طريقه إلى غرفة النوم :
— آسف ، فقد تأخرت اليوم .

وراح يبدل ثيابه ، ودنت هدى منه وقبلته وغممعت :
— جعت اليوم يا حبيبى .

فقال وهو يرتدى ثوبه المنزلى :

— مضى الوقت ولم أحس به !

فقال فى سخرية وهى تنظر إليه بعينها الواسعتين وقد افتر ثغرها عن أسنانها :

— كنت فى سينما ! .

فلوى شفته السفلى وقال :

— كنت مندجما فى رواية من روايات الحياة .

— رواية طريفة ؟ .

فقال وقد غامت صفحة وجهه سحابة خفيفة من الكدر :

— مأساة .

فقالت وهى تتحرك لتعد الطعام :

— لا أحب أن أسمعها قبل الغداء .

فقال وهو يتبعها :

— تقصدين العشاء .

وقعدا يتناولان الطعام فالتفت إليها وقال :

— لا داعى لانتظارى إذا ما تأخرت .. تغدى إذا وافى ميعاد الغداء .

فقالت وهى ترنو إليه فى هيام .

— لا أحب أن آكل وحدى .

— سترادف تأخيرى تحت ضغط العمل فى موسم الاصطياف .

— سأنتظرك .

— وما ذنبك ؟ .

فقالت وقد مالت عليه ووضعت خدها على خده :

— ذنبى أننى تزوجت ضابط بوليس ظريفا .

فقبلها قبلة خاطفة ، ثم راح يلوك الطعام يشع من عينيه بريق الرضا والسرور . وانتهى الغداء فذهبا إلى الردهة وقعدا ، فمالت برأسها ووضعتها على كتفه وقالت :

— قص على قصة اليوم .

فقال وهو يعبث بيده فى شعرها :

— أتحبين الحكايات ؟

فهمزت رأسها وقالت :

— كنت أصغى إلى أمى ساعات وهى تقص على الحكايات الطويلة

اللذيذة .

— الشاطر حسن وست الحسن والجمال ؟ .

فهزت رأسها ورففت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ولعت عيناها للذكرى
فقال في حرارة :

— حكاياتي ليست لذيدة كذلك الحكايات ، إنها مستمدة من الواقع
الأليم .

فقالت وهي تمط شفتيها المزمويتين لتغريه بالعناق :

— وهل الواقع أليم دائما ؟ .

فقبلها قبلة خاطفة وقال :

— لا يطوف بالأقسام إلا المآسى والأحزان .

— وما رواية اليوم ؟

— إنها مهزلة ، دخل على شاب ناثر صاحب يطلب مني أن أقوم معه من
فورى . ولما كان في حالة هياج شديد قدمت له كرسيًا وأخذت أهدئ من
ثورته ، ولكنه لم يهدأ وظل يلتمس مني في إلحاح أن أذهب معه فقد رأى
زوجته تدخل مع رجل غريب منزلا قريبا من القسم ، فأشفقت على الشاب
ونهضت معه ودمائى تفور في عروقي ، انطلقنا حتى بلغنا الدار فوجدنا الرجل
والزوجة في وضع تجمد له الدماء فنظرت إلى الزوج بعيون زائغة ، كنت
أخشى أن يسقط من هول ما رأى فألفيته قد تسمر في مكانه يحملق في دهش
وذ هول ، فغضضت بصرى وأنا أحس مرارة في فمى ورناء للزوج يملا أقطار
نفسى .

وعدنا إلى القسم وقد عزمت على أن أنتقم لكرامة الزوج المهذرة ،
فرحت أسجل ما رأيت وصدرى في علو وانخفاض وأحسست حركة في
الغرفة فرفعت رأسى عن الورق فرأيت الزوج يذهب إلى الزوجة يتمسح بها
ككلب ذليل ، فنظرت وأنا لا أكاد أصدق عيني ، رأيتها تعرض عنه وتشمخ
بأنفها وهو يمس في توسل : « ساعينا » ، فلا ترداد إلا إعراضا فيتضرع
إليها في خنوع أن تغفر له وتسامحه .

أحسست نارا تسرى في عروقي وانتشرت في جوفي إحساسات الحنق والغضب ، وراحت المشاعر تضغط على صدرى وتضايقنى حتى هممت بأن أقوم وأصفع ذلك النذل الذى راح يتوسل إلى من لوثت شرفه ، واعترتنى رجفة ولكننى كظمت ما بى وجعلت أنظر إلى ما يجرى أمامى وأنا حزين .

وتنازلت وساحته فتطلق وجهه وجاء إلى وقال لى :

« إنى متنازل عن حقى ، أليس ذلك أفضل ؟ » .

فقلت له فى زراية : « الله ستار أمر بالمستر » .

وخرج من عندى ويده فى يد زوجه وأنا أشبعه بنظرة احتقار . وقبل أن يغيب عن عينى خطر لى أن أقوم وأكتم أنفاس ذلك الوغد الذى صفح عما رأى من هول لا تمحوه من الذهن حتى يد المتون .

فقالت هدى وقد رفعت رأسها عن كتفه :

— لعله يحبها .

فقال حسين فى انفعال :

— ليس هذا حبا هذه ضعة ، خير له أن يمزق قلبه من أن يتمرغ برضاه فى الأوحال ، إنى لا أدرى كيف يطبق أن يعيش معها بعد الآن ؟ إن أقل شك يحيل الحياة جحيما فما بالك بمن رأى بعينه ؟!

— لعله معذور .

فاسترسل فى ثورته :

— عذره أن ما يجرى فى عروقه ماء وليس دماء ، ما هو برجل فلو كان رجلا لغار ... لو كانت هذه امرأتى ...

فسارعت هدى ووضعت يدها على فمه وقالت فى فزع :

— لا .. لا .. حسين ! أرجو .

وهدأت ثورته ، وفطن إلى أنه أساء إليها فقال وهو ينظر بعيون مضطربة :

— آسف .. كنت أقصد ..

وحزرت أنه نادم في قرارة نفسه على ما بدر منه فطوقته بذراعيها وقالت في دلال وهي تقرب شفيتها من شفتيه :

— تعال نمح الكلمات التي تراقصت على طرف لسانك .

قام من نومه والكون يسبل جفنه على عينه البصرة فألقى زوجه جالسة إلى المرأة تمشط شعرها السبط وتنشر المساحيق في صفحة وجهها وتقرب رأسها من صقال المرأة ثم تبعد وتديم النظر ، ثم تعود وتقربه لتصلح بعض زينتها . وعجزت عن أن ترى الظلال الخفيفة التي كانت ترسمها على جفنها في ذلك الضوء الخالى الذى سيطر على الحجرة فنهضت وأدارت الزر الكهرى فسطع الضوء ، فعادت إلى جلستها تستأنف ما كانت فيه .

وقعد في فراشه يرقبها ثم قال :

— بدأت أغار .

فقالت وهي منهمكة في تنميق زينتها :

— مم ؟

— من المرأة .

فقالت وقد لاحت أسنانها :

— لم تفدك نصيحة أمى .

— أفادتني ، لفتت نظرى إلى ما كنت في حاجة إلى سنين لأكتشفه

وحدى .

— جعلتك تغار قبل الأوان .

— هذا عيب النصائح .. توقظ في نفوسنا ما كان نائما .

فالتفتت إليه وقالت وفي عينيها حب :

— لن أنصحك أبدا .

(النقاب الأزرق)

فقال لها وهو يدنو منها :

— انصحينى أن أسارع بارتداء ثيائى فقد حان وقت خروجنا .

— لن نخرج معا .

— ولماذا كل هذه الزينة إذا كنا لا نخرج الليلة ؟ .

— سنخرج وحدك .

— وأنت ؟

— عندى ميعاد .

— أين ؟ .

— هنا .

— مع من ؟

— أناس يجب ألا تراهم .

— قولى من ؟

فقالت وهى ترنو إليه بطرف عينيها فى خبث :

— أصدقاء .

واقترب منها ورفع يديه وقال :

— والله إن لم نقولى لأشوهن شعرك وأمسحن يدي وجهك الذى أنفقت

فى تزيينه ساعات .

ومد يده إلى شعرها فنفرت منه وهى تضحك وقالت :

— سأقول . سأقول كل شىء .. قبل ميعاد أوبتك طرق الباب فذهبت

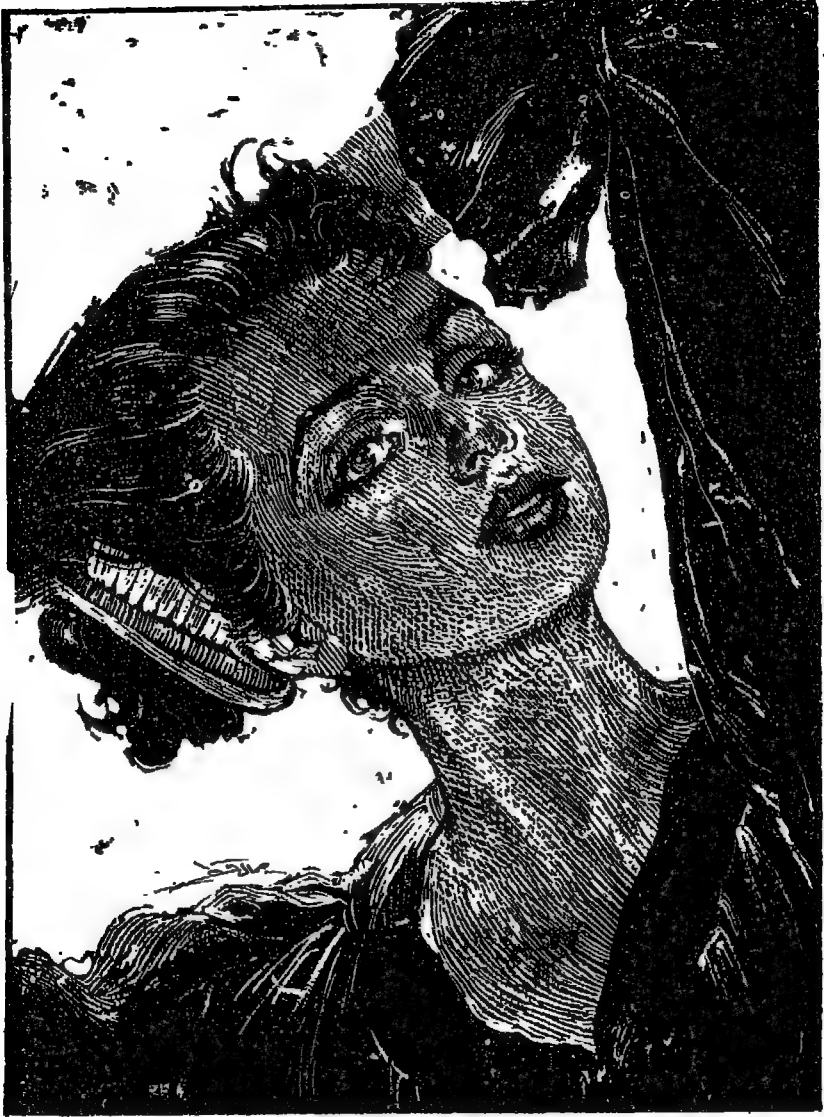
وفتحته ، فوجدت الخادم الصغيرة التى تعمل عند جيراننا تقول لى إن سيدتها

تريد أن تزورنى اليوم بعد خروج البك ، فقلت لها إننى فى انتظارها ولتشرفنا

وقتما تشاء .

— ومن هو البك ؟

— أنت .



فقالت وهي ترنو إليه بطرف عينها في خبث : إنهم أصدقاء ..

فقال وهو شاخ بأنفسه :

— آه .

وراح يرتدى ثيابه حتى إذا وضع طربوشه على رأسه ذهب إليها وهم بتطويقها ، ولكنه جفل كأنما تذكر شيئا وقال :

— لا . لا .

— ماذا جرى ؟

— كدت أقبلك .

— ولماذا لم تفعل ؟

— لا أريد أن أفسد زيتك وأصبغ شفتى بالأحمر .

فدنت منه وقالت :

— أقبلك أنا .

وضمت شفتيها وقربتها من خده فقر منها وراح يحببها من بعيد حتى اختفى عن ناظرها ، وسار في الطريق لا يدري إلى أين يذهب ، واستمر في سيره حتى لاحت لعينه المناضد المبعثرة على الإفريز أمام محل الحلوى ورأى ضابط الجيش يجلس في مكانه الذى طالما رآه فيه ، فخطر له أن يقعد في ذلك المحل ينعم بالهدوء وبالنسيم اللطيف الذى يهب من البحر ينعش النفوس . واتجه إلى المحل ، فلما دنا من ضابط الجيش ألفاه ينظر إليه وفي عينيه ترحيب ، فحياه وقد افتر ثغره عن ابتسامة خفيفة فرد عليه تحيته وقد ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة عريضة . وذهب إلى مقعد قريب وقعد ينظر أمامه في هدوء .

وتلاقت العيون أكثر من مرة وأخيرا قال ضابط الجيش :

— تنتظر أحدا ؟

قال حسين في بساطة :

— لا . أمضى بعض الوقت :

فقال ضابط الجيش وقد نهض من مقعده وأشار يده إلى مقعد بجواره .
— تفضل تقطع الوقت بالحديث فأني أحسن وحشة وحدى .

فقام حسين راضيا وانتقل إلى حيث دعى فقد كانت الوحدة تضايقه . وما
أن قعد حتى قال ضابط الجيش :

— أنا جمال عبد الرؤوف ، يوزباشى فى فرقة الأنوار الكاشفة بوادى
القمر .

— أنا حسين محمود .

وهم بأن يجارى جمالا ويقول « ضابط بوليس حديث » ولكنه أحجم ،
فتياه والنجمة الوحيدة فوق كتفه تنمى عنه .

وقال جمال وهو ينظر إلى عيني حسين الزرقاوين وشاربه الأصفر :

— من الإسكندرية ؟

— لا . من القاهرة .

— من أين ؟

— شارع فاروق ، قرب ميدان الحسينية .

فقال جمال فى انشراح :

— نحن جيران ، إننى من العباسية .

فقال حسين وهو يتسم :

— يربطنا ترام واحد .

فضحك جمال وقال :

— متى جئت إلى هنا ؟

— من شهر .

— إني هنا من ثلاث سنين .

— وحدك ؟

فقال جمال وهو يتسم :

— مع الفرقه .

— أقصد ليس معك أحد من أهلك ؟

— وحيد .

وتبسطا في الحديث حتى إذا خيم الظلام استأذن حسين فصافحه جمال في
حرارة وهو يقول :

— يسرنى أن أراك دائما .

— إن شاء الله .

وعاد حسين إلى داره فلما دخل على هدى أخذ يصفر في مرح ، فدنت منه
وقالت له :

— أين أمضيت هذا الوقت ؟

— في مكان ما .

— مع من ؟

فقال وهو يرنو إليها بطرف عينه :

— أصدقاء .

— من هم ؟

فهز كتفيه وراح يخلع ثيابه ، فدنت منه وقالت :

— والله إن لم تقل ..

— ماذا تفعلين ؟ تشوهين شعري وتمسحين زيتي ؟ هاك شعري وهاك

شاربي .

فقالته وهي تطوقه بذراعيها وتقرب فمها من فمه :

— لا ، بل أكنم أنفاسك .

وترادفت المقابلات بينهما ، كانا يمضيان أمسيتهما فى محل الخلى
يتجاذبان أطراف الحديث حتى إذا أشرفت الساعة على التاسعة عاد حسين إلى
هدى وذهب جمال إلى دار من دور اللهو يقضى سهرته ، وتوطدت الصداقة
بينهما . وفى ليلة من الليالى أخرج جمال من جيبه صورة له فى ثيابه العسكرية ،
فتناولها حسين وراح يتفرس فيها ثم قال :

— رائعة ، أجمل من صاحبها .

فابتسم جمال وقال :

— كنت أظن أننى أجمل منها .

— من قال ذلك ؟ .

— المرأة .

فقال حسين وهو يشير بيده فى زراية :

— بدنها .

وأخذ جمال الصورة وأخرج من جيبه قلما وراح يكتب عليها : « إلى
صديقى العزيز حسين محمود ذكرى لحظات سعيدة » . ودفعها إلى حسين
فدسها فى جيبه .

واستأنفا حديثهما فقال جمال :

— ألا تأتى معى الليلة لتشاهد رواية عظيمة ؟

— آسف لا أستطيع ، إننى لا أذهب إلى السينما إلا مع زوجتى .

— قم نتمش قليلا .

وسارا على الطوار والهواء المنعش يداعب وجهيهما وجمال ينظر إلى البحر
ينفت دخان سيجارته في راحة ، وأقبلت فتاتان جميلتان فأخذ جمال ينقل
بينهما عينيه حتى إذا اقتربتا منه حتى رأسه وهمس :
— أخفض رأسي تحية للجمال .

وولدت على الشفاه الحلوة ابتسامة . فقال جمال في صوت خافت وهو
يتبعهما بنظره :

— جبر الله خاطر كما جبرتما خاطري .

فالتفت إليه حسين وقال في عتاب :

— ما هذا يا جمال ؟

— غزل برىء يا صاح .

— وما فائدته ؟

— يجلو الصدور ويعيد إلى القلوب المهمومة الانشراح .

وأنطلقا على الكورنيش يملآن صدريهما بالهواء ، وجاءت فتاة ممشوقة
القد تخطر في مشيتها في دلال وخلفها جمع من الشبان ، فلما وقعت عينا جمال
عليها قال في صوت مهموس :

— غزال .

فابتسم حسين وقال :

— خلفه ألف صياد .

وابتعد جمال عن حسين قليلا حتى إذا اقترب منها وقف أمامها ودنا صدره
من صدرها والتقت عيناه بعينيها ، فتجنبته في خفة الطيف وقد ازورت
بوجهها عنه ، فراح يتبعها بنظره وهو يغمغم :

— يا للجمال !

فجذبه حسين من يده وهمس في أذنه :

— اعقل .

- عيى أن الجمال يهزنى ، هذا سر ضعفى .
— لن ترعوى حتى تقاد يوما إلى القسم .
فتنظر إليه كأنما أفاق من حلم وقال :
— إذا وجدتنى ذات ليلة أمامك متهما بمضايقة فتاة فماذا تفعل ؟
— ماذا تظننى أفعلى ؟ أتخسب أننى أقدم لك كرسيًا ؟
— لن تقدم لى كرسيًا ؟ فماذا تفعل إذن ؟
— أبيتك فى التخشيع .
فقال جمال فى استعطاف تمثيلى :
— حسين ! أنا صديقك .
— الصداقة شىء والعمل شىء آخر .
— لا . أنت حنبلى ، لن أغازل فتاة فى دائرة قسمك .
— حسنا تفعل .
ودارا على أعقابهما وعادا من حيث أتيا ، حتى إذا بلغا ناصية الشارع
الموصل إلى بيت حسين تصافحا واخرقا وانطلق كل منهما فى طريقه .
ووقف حسين أمام باب مسكنه يطرقه فى رفق فانفرج الباب عن هدى
وقد تألفت فى زينتها ، فهمس فى وجد :
— قمر !
فعضت على شفتها السفلى ونظرت إليه فى زجر ، فقال فى صوت خافت :
— ماذا جرى ؟
فقالت فى صوت لا يكاد يبين :
— لا زالت جارتنا هنا .
ودخل على أطراف أصابعه وذهب إلى غرفة النوم وبدل ثيابه . وأخرج
صورة جمال وأخذ يتطلع إليها ، وشعرت الضيفة بعودة الزوج فاستأذنت
وانصرفت .

لمح هدى قادمة فتظاهر بالتشاغل بالصورة ، حتى إذا تيقن من أنها قد رآته
راح يدهسها في جيبه في اضطراب ، فقالت له وهي تدنو منه :

— ماذا تخفى عني ؟

فقال في نبرات من ضبط متلبسا بجريمة :

— لا شيء .

— رأيته بعيني .

— من ؟

— الصورة .

فقال وهو يتسم :

— إنها صورة صديقة .

— أرني ، أهي جميلة ؟

— جميلة ، ولكنها ليست أجمل منك على أية حال .

ومدت يدها تخرج الصورة ، فوضع يده على جيبه وقال :

— أحضري « الألبوم » أولا .

فذهبت إلى الصوان وهي تنمق ألفاظ السخرية التي ستهبها لصاحبة
الصورة ، وعادت ودفعت إليه بالألبوم ووقفت على رأسه وقد اشرأت
بعنقها . وضعه على ركبتيه وفتح وأخرج الصورة وأخذ يشبها فيه ، وما أن
وقعت عينها عليها حتى خرجت من الغرفة دون أن تنبس بكلمة ، تحس يدا
قوية تعصر قلبها .

وقف حسين أمام المرأة يخلق ذقنه ثم ينظر إلى الساعة المثبتة في معصمه ويهتف :

— هدى ! هيا يا هدى ، حان الميعاد .

ولم يسمع لهاتفه جوابا ، فسار إلى الردهة والصابون على ذقنه فألقى هدى مسترخية في مقعدها قد أسندت رأسها بيدها ، فقال لها :

— أوه ! لم تبدلي ثيابك بعد ؟! ستتأخر .

فقال له في صوت واه :

— اذهب أنت .

— وأنت ؟

— لا أستطيع أن أذهب .

— لماذا ؟

— عندي صداع .

— لا . قومي يا هدى ، هذه أول مرة يدعونا فيها جمال .

وجذبها من يدها فقامت في كسل وسارت غير منشرحة النفس ، وراحت تبدل ثيابها ساهمة تحس قلقا يجتاحها ، وفكرت في أن تعاود الاعتذار ولكنها لم تفعل وراحت تقاوم تلك المخاوف التي تفتحت براعمها في صدرها .

ورنا حسين إليها فألقاها شاحبة ، ففتح فاه يسألها عما بها ولكنه لم ينطق بكلمة ، وخشى إن سألها أن تلج في الاعتذار عن الذهاب وما كان يجب أن

تتخلف في أول مرة يدعوها فيها صديقه .

وارتفع نداء السيارة يدعوها للهبوط فتزلا متمهلين حتى إذا بلغا الطريق وجدا سيارة زرقاء أنيقة إلى جوارها جمال بوجهه الأسمر وحاجبيه العريضين المقوسين كسيفين وعينيه السوداوين اللامعتين ، ولما رأهما احتلت فمه الواسع ابتسامة ، وصافحه حسين ، والتفت إلى هدى وقال :

— هدى زوجتي .

وأشار إلى صديقه وقال :

— جمال .. صديق الأمسية .

وحنى جمال رأسه وقد تلاقت عيناه بعينها ، فاضطربت وأسبلت جفניה وقالت في صوت مخنوق :

— تشرفنا .

وفتح جمال باب السيارة ونظر إلى هدى يدعوها إلى الركوب ، فتقدمت وركبت في الخلف وقبعت في ناحية وقد حملت رأسها بيدها ، وركب جمال وحسين وأسرعت السيارة ، ونظرت هدى إلى الطريق بعيون زائغة منقبضة النفس تحس دوارا . ووقفت السيارة أمام المسرح فهبطوا منها وتقدموا كثلاثة رماح مشرعة ، حتى إذا بلغوا مقصورتهم أخذ جمال وحسين يتحدثان وهدى تنظر إليهما وهي مشغولة عنهما بما يجري في رأسها من أفكار وأوهام . وخيل إليها أن الزمن يتسكع ، وودت أن تنطفئ الأنوار الساطعة في المسرح وأن ينتهى الحفل لينقضى ذلك الاضطراب المستبد بها . وأدارت عينها في المكان لتتشاغل بما يجري في أعماقها ولكنها عجزت عن أن تحول مجرى أفكارها التي كانت تنشر الخوف في أرجاء نفسها .

وأطفئت الأنوار فلم تبدأ بل زادت وساوسها وكثر تلفتها ، ووقعت عينها على عيني جمال في الظلام فخيل إليها أنه ابتسم لها فاضطربت وضاق صدرها وأحست كأنها تختنق ، وخطر لها أن تميل على حسين تهمس في أذنه

برغبتها في الانصراف فالصداع يؤلمها ، ولكنها لم تنفذ ذلك الخاطر بل راحت تنظر إلى المسرح ولا ترى شيئا ، وتمنت أن تضاء الأنوار فالظلام يجثم على صدرها ويحكم أنفاسها ويوقظ أفكارها التي تبذر القلق في جوفها ، وعزمت على أن تركز ذهنها فيما يجري على المسرح فاشترأت بعنقها وأخذت تنظر ، ولكن سرعان ما شغلت عما أمامها بما يقع في مسرح نفسها .

وأضيت الأنوار ، والتفت حسين إلى هدى وقال :
— رواية لطيفة .

فاغتصبت ابتسامة وقالت :
— مذهشة .

ووقعت عينها على جمال فغاضت ابتسامتها وطأطأت بصرها ، وقام جمال ، وقال حسين لهدى :

— تعالى نتمشى في الردهات قليلا .
— اذهب أنت ، إني قاعدة .

وذها وبقيت وحدها تحاول أن تمد الوسوس التي راحت تمرح بين ضلوعها ، وكادت تنجح ولكن ما إن لاح جمال لعينها حتى عادت إليها مخاوفها . قدم إليها قطعة من الشيكولاتة وهو يقول وقد لمعت عيناه ورففت على شفتيه ابتسامة :

— تفضلي .

فتناولتها منه وهي ترنو إليه بعيون قلقة عجزت عن أن تخفي ما يعتمل في صدرها ، وحزرت ما تنطق به عيناه فربت مخاوفها ودق قلبها دقات الفزع . وعادا إلى مقعديهما وقال جمال لحسين وهو يرقب هدى بطرف عينيه :

— غدا الجمعة ، فما رأيك في أن نمضي النهار في العجمي ؟

فقال حسين في حماسة :

— فكرة بديعة ، ما رأيك يا هدى ؟

فقال وأهداها متكسرة :

— أعفنى ، أشعر بتعب .

وأطفئت الأنوار ، وانفردت هدى بوساوسها فأخذت تعبث بها كما تعبث
الرياح بريشة في الفضاء ، وانقضى الوقت وتيدا وتيدا ، وأخيرا انتهت الرواية
وأضيئت الأنوار فأحست هدى لإحساس السجين الذى وجد نفسه خارج
الأسوار ، ونهضوا ورأت أن الواجب يقضى أن تزجى لضيفها كلمة شكر
فقال له :

— أشكر لك هذه السهرة الرائعة .

فقال وهو ينظر إليها وفي عينيه ابتسام :

— العفو .

وساروا وجمال وحسين يتحدثان وهدى صامدة لا تنبس بكلمة تتمنى في
قراءة نفسها أن تغمض عينها لتجد نفسها في البيت ، وركبوا السيارة
وانطلقت عائدة ، وما أن وقفت أمام الدار حتى شعرت هدى براحة وانسلت
منها خفية ، وتبخر قلقها ولم يبق منه في جوفها إلا الرذاذ .

وحنّت رأسها لجمال محبة ووقفت تنتظر حسينا حتى ينتهى من مصافحة
صديقه ، وقال حسين وهو يهز يد جمال :

— سنتظرك غدا لتغدى معنا :

فقال جمال وهو مشرق الوجه :

— إن شاء الله .

وعاد القلق إلى هدى يحتل صدرها وهرع الدوار إلى رأسها .

أخذت هدى تغدو وتروح بين المطبخ والنافذة المطلة على الطريق فقد كانت ترصد قدوم زوجها ، وذهبت إلى المرآة ومررت يدها على شعرها وظلت تدبّر النظر إلى هيئتها ، حتى إذا اطمأنت اتجهت إلى مقعد في الردهة وجلست مسترخية وألقت برأسها إلى الخلف وأطلقت لحياتها العنان .

رأت حسينا وهو يغمرها بحبه ويشملها بعطفه فخفق قلبها وانداحت الغبطة في صدرها وتطلق وجهها وبان فيه الرضا ، ورأته وهو يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره ويقبلها في هيام فأحست خدرا لذيذا يسرى في روحها ونشوة تدغدغ حواسها فأسبلت جفניה تنعم بأحلام يقظتها .

وظلت غارقة في النشوة تحويها السعادة بين جنبيها ، حتى مس أذنيها طرق خفيف على الباب فاستيقظت من أحلامها وهبت خفيفة تفتح الباب لزوجها وتنبأ لضمه إلى صدرها تسمعه دقات قلبها النشوان .

” وفتح الباب وعلى فمها ابتسامة وفي عينيها نداء ، ولكن سرعان ما ذبلت الابتسامة وانطفأ البريق وغامت صفحة وجهها واضطرب في جوفها الاضطراب . لم تقع عيناها على حسين بل وجدت جمالا يتطلع إليها وقد افتر ثغره الواسع عن ابتسامة انقبض لها قوادها ، وارتدت خطوة وهي تنظر إليه في قلق ، وبقي يصوب إليها النظر دون أن يتكلم ، وفطن إلى قلقها وأيقن أنها لن تدعوه إلى الدخول فقال وهو ينقل عينيه بين صدرها ووجهها :

— حسين موجود ؟

فقالته وهي تنسحب خلف الباب لتحمي جسمها من نظراته :

— لم يأت بعد .

ووقف ولم يتحرك ، فحركت الباب في ضيق وهمت أن تغلقه ولكنها تحلمت وقالت :

— تريد أن تبلغه شيئا ؟

فقال والبريق الذى تحشاه يشع من عينيه :

— متشكر ، لا تقولى له شيئا ، سأقول له ما أريد عندما أقابله فى المساء .

وارتسمت على شفثيه ابتسامة هازئة فأحست كأن خنجر اطعن قوادها ، ودار على عقبيه فأغلقت الباب وارتمت فى مقعدها مبهورة الأنفاس .

وراحت الأفكار تنهال على رأسها ، رأت جمالا يوم أقبل يتناول معها الغداء وهو يرمز لها بعينه فى غفلة من حسين ، ورأته وهو يمس لها بمحدث الهوى لما غاب حسين فى غرفته لحظات ، إنها تنتفض رهبة ويعتصرها الانقباض .

وأضىء ذهنها فرأت فى وضوح نفسها وقد جلست إلى المائدة بين زوجها وجمال ، إنها لتتقبض الساعة انقباضا لنظراته الخبيثة التى يصوبها إليها ، وإن القشعريرة تسرى فى بدننا سريانها ساعة أن قرب ساقه من تحت المائدة من ساقها . وراحت تجتر ذكرياتها وهى تمس وخزا يخز روحها .

وصك أذنيها طرق على الباب فانتبهت مرعوبة وقامت وفتحته ، فوجدت حسيناً يمشى لها ويرنو إليها بعينه الزرقاوين فى حب ، فأرادت صادقة أن تبادله الابتسام وأن تضمه إلى صدرها ولكن المهرم الثقيلة النازلة بين جوانحها قامت حائلا بينها وبين ما أرادت .

ودخل حسين ولف ذراعه حول خصرها وقال :

— عدت مبكرا اليوم .

ف نظرت إليه وقد اغضببت ابتسامة كلفتها جهدا ، فقال وهو ينظر إلى ساعته دون أن يفطن إلى ما تقاسى :

— هدى الله المصطفين اليوم فلم يرتكبوا حماقات ، أو بمعنى أصح ارتكبوا حماقات ولم يبلغوا عنها .

وضحك ، وأحست قلبها يغوص في قدميها وطارَتْ نفسها شعاعاً فانسجبت في هدوء ، ورآها وهي خارجة من الغرفة فقال لها :
— إلى أين ؟ .

فقالت في صوت خافت :
— أعد الغداء .

وأخذت تعد السفرة وهي شاردة اللب تفكر في زيارة جمال على غير ميعاد ، ورن في أذنيها صوته وهو يقول في زراية : « لا تقولى له شيئاً سأقول له ما أريد عندما أقابله في المساء » فأحست الأشياء تضطرب أمام عينيها والأرض تميد بها .

وجلسا إلى المائدة وراح حسين يسترق إليها النظر فحيره وجومها ، وأخذت تتناول طعامها وهي شاردة البصر تتأرجح بين أن تفضى إلى زوجها بزيارة جمال وبين أن تكتمها ، وهمت أكثر من مرة أن تتكلم ولكن الرهبة كانت تعقل لسانها .

وأحست غصة في حلقها فازدردت اللقمة التي كانت في فمها ثم عافت نفسها الطعام ، ولاحظ حسين إطراقها وإعراضها عما أمامها فقال لها في رقة :

— هدى ! ماذا بك ؟

فقالت في قلق :

— لا شيء .

— لماذا لا تأكلين ؟

— أشعر بغثيان .

ونفضت وذهبت إلى فراشها وتملدت فيه وهي تشعر بدوامة في رأسها ،
(النقاب الأزرق)

واتجه إليها وقعد إلى جوارها وجعل يمرر يده على شعرها في حنان ويقول في رقة :

— هدى ! كيف أنت الآن ؟ .

ففتحت عينيها وابتسمت له ، فمال عليها وقبلها وهو يربت على خدها ، وفكر في أن يرفه عنها فقال لها :

— ما رأيك أن نمضي يومى الخميس والجمعة في القاهرة ؟

فقالت وهى تنظر إليه فى استغراب :

— الناس يفرون من جحيم القاهرة إلى هنا ، ونحن نترك الإسكندرية

لنذهب إلى نار القاهرة !

وقبل أن يقول شيئاً نهضت من فراشها وذهبت إلى دورة المياه مسرعة وأخذت تقىء ، فأطرق ويان فى وجهه الأسى .

وعادت شاحبة اللون ، فهرع إليها وضمها فى رقة وقال لها :

— فلنذهب إلى الطبيب .

فقالت له فى هدوء :

— إنها وعكة بسيطة :

فقال وهو يرنو إليها بعيون قلقة :

— هدى ! .

فقالت وهى تجاهد لتبدو هادئة :

— إننى بخير .

ولم تهدأ نفسه وصمت على مضض وإن كان القلق يزعج فى جوفه .

قعدت هدى تطالع فى صحيفه وما قرأت أسطرا حتى أحست ثقلا فى جفونها ، إنها تشعر بوخم يجثم عليها فما تغادر فراشها حتى يعود الناس يداعب عينها ، وحاولت أن تقاوم النوم الذى طاف بها فراحت تنوم فى جلستها وسقطت الصحيفه من يدها ، فانتبهت إلى نفسها وتساءبت ثم نهضت واندست فى سريرها .

وغرقت فى النوم وأخذ الوقت يمر ، ومس أذنيها طرق على الباب فخيّل إليها أنها تحلم ، واشتد الطرق ففتحت عينها وملكت حواسها وراحت تلتفت فى الغرفه فألفت ضوء النهار يفيض فيها ، فاضطربت واشتد وجيب قلبها فما كان هذا وقت أوبه زوجها ، إنه خرج إلى القسم على أن يعود فى منتصف الليل .

وقفزت إلى ذهنها صورة جمال وهو يلتمها بعينه التهمتين وعلى شفثيه ابتسامته المازقة التى تطعن كبرياءها ، فارتجفت واتسعت عينها ولاح فى وجهها خوف وامتعاض ، وفكرت فى أن تصم أذنيها ولكن الطرق استمر ، فقامت وارتدت ثوبا طويلا يستر جسدها وتقدمت نحو الباب شاخصة البصر وصدرها فى علو وانخفاض .

وروقت هنيهة تستجمع قواها وتتأهب للثورة فى وجهه إذا ما رماها بنظراته المتطفلة أو حادثها حديث الهوى ، ومدت يدا مضطربة وفتحت الباب فى أناته وقلبها يتزف خوفا ، فلم تقع عينها على جمال بل رأت فتاة زرقاء العينين دقيقه الأنف ذهبية الشعر ترتدى ثوبا أبيض أنيقا أبرز جمال تكوينها ،

وإلى جوارها فتاة سمراء الوجه متناسقة القسمات سوداء الشعر فى عينيها خفة ، فطلعت إليهما وفى عينيها تساؤل ، ولم تمهلها السمراء حتى تسألها عن حاجتهما بل قالت وهى تحديق فى وجهها .

— حسين بك موجود ؟

وأحست هدى يدا تهصر قلبها وقلقا يجتاحها ، وقالت فى صوت مضطرب :

— خرج .

فقال السمراء وهى تنظر إلى رفيقتها .

— حضرتها عليـة ابنة عمه .

فقفز قلب هدى بين ضلوعها واضطربت مشاعرها ، وقالت وهى جامدة فى مكانها فى صوت خافت :

— أهلا وسهلا .

وأفاقت من المباغلة وفطنت إلى اضطرابها فراحت تجمع شتات نفسها ، حتى إذا ملكت روعها فسحت الطريق وقالت وهى تغتصب ابتسامة :

— تفضلا .

وتقدمت عليـة وعلى شفيتها ابتسامة مريـة وفى عينيها انكسار وفى قلبها شجن ، إنها ترى أمامها المرأة التى سلبتها حسينا ، وزاد فى أساها أنها وجدتـها شابة فائنة تستهوى الأفئدة . ودخلت إجلال وتلفتت فوجدت أنثا متواضعا ، فنظرت إلى عليـة ولوت شفتها زراية ، ولكن عليـة كانت مشغولة عنها بالنار التى اندلع لهيبها فى أحشائها .

وفتحت هدى بابا وأشارت إليهما ، فدخلتا إلى غرفة عارية لم يكن بها إلا مقاعد من الخيزران ، وقعدت وعلى الشفاء ابتسامات مزيفة وعليـة تنظر إلى هدى وقد انتشرت فى صدرها أبخرة الحسد .

وحزرت هدى أنهما ما جاءتا إلا لثرياها وتشبعا فضولهما فعزمت على أن

تكمد هما ، فانسحبت من الغرفة مستأذنة وذهبت وارتدت ثوبا رائعا ومشطت شعرها وتزينت وعادت إلى الغرفة تتألق كلؤلؤة ، فأحست عليه غصة في حلقها ويذا قوية تكتم أنفاسها .

وأرادت إجلال أن تجرّها إلى الحديث فقالت لها :

— وكيف حال حسين ؟

فقالت وهي تنظر إلى عليه من بين أهدابها :

— سعيد .

ولاحظت تبديها وسحابة الكآبة التي رانت على وجهها فشعرت براحة وقررت في نفسها أن تتعمد إيذاءها ، وفطنت إجلال إلى ما اعتري عليه فتضايقت ، ورأت أن تنهى هذه الزيارة فقالت وهي تتأهب للنهوض .

— إذا جاء حسين بك فبلغيه أننا نزلنا المنزل الذي كنا فيه في السنة

الماضية .

فقالت هدى :

— سأبلغه .

وتحركت عليه وإجلال للانصراف ولكن هدى قالت لهما :

— لحظة واحدة .

وانسلت من الغرفة في خفة وتركتهما وحدهما ، فأدارت إجلال عينيها في

المكان الخاوي وانفرجت شفتها في زراية وقالت في صوت خافت :

— والله لا أدري لماذا فعل حسين هذا ؟

وافترغر عليه عن ابتسامة حزينة وغامت عيناها بالدمع ولم تنبس بكلمة ،

وشعرت بمخالب حادة تنهش قوادها وإبرا تخز روحها .

وساد الغرفة هدوء قلق ، وصلك آذانها وقع أقدام هدى قادمة فشخصا

بأبصارها نحو الباب فرأياها مقبلة وبين يديها صينية عليها أكواب ملئت

شرابا ، فانقبضت عليه وتدفقت دماؤها حارة في عروقها وضابت عيناها من

القهر ، ولو طاولت نفسها لقامت وحطمت الأكواب وانفجرت باكية .
ولكنها تجللت وإن كانت تقاسى في جوفها ثورة عاتية .

وقدمت هدى إليها الصينية وهى تبتسم ، كانت تحس في قرارة نفسها أنها
سيدة الموقف ، فمدت عليه يدها وتناولت كوبا وقد سرت في بلدنها رعدة ،
وقدمتها إلى إجلال فأخذت كوبا دون أن ترفع إليها بصرها حتى لا ترى في عينيها
حزنها الدفين ، ووضعت الصينية على نضد وأمسكت كوبا بين أصابعها
ورفعت في رشاقة وهى تقول والابتسامة مشرقة على وجهها :
— تفضلا .

وراحت عليه تتجرع الكوب غصة بعد غصة تحس شواظا من نار يسرى في
حلقومها ، وهدى ترصدها من طرف خفى وهى راضية ، وهمت عليه
بإعادة الكوب بعد أن رشت منه رشقات فأسرعت هدى إليها وتناولته منها
وهى تقول :
— هنيئا .

فتحركت شفتا عليه ولم تخرج من بينهما كلمة .
وقامت إجلال وتبعها عليه ، وسارتا وهدى خلفهما حتى إذا بلغن الباب
صافحتهما وهى تقول :
— خطوة عزيزة .

وهبطتا في الدرج وهى ترقبهما ، كانت عليه مطرقة يلوح في وجهها
الأسى فقد نكئ جرح قلبها ، وإجلال يأسرة الوجه تحس ندما لأنها أشارت
على ابنة خالتها بهذه الزيارة التى جرحت نفسها وحركت أشجانها . وقالت
هدى قبل أن تبعدا عنها فى صوت حاولت أن يكون رقيقا :
— سأبلغ حسينا أنكم نزلتم نفس المنزل الذى كنتم فيه فى السنة الماضية ،
أرجو أن تتكرر هذه الزيارة .

وظلت واقفة حتى اختفتا عن ناظرهما ففاضت الابتسامة المرترمة على

شفتيها ، ودخلت حجرتها وسرعان ما سرى في جوفها قلق فرؤيتها لعلية أيقظت مخاوفها ، وتمددت في فراشها ولم تغمض عيناها ، كانت صورة عليّة بشعرها المسترسل كأسلاك من ذهب وبشرتها الناصعة وعينيها الزرقاوين الصافيتين صفاء السماء في يوم صائف تحتل أقطار رأسها ، وتحركت عقارب الغيرة في جوفها فراحت تنهش قوادها .

وظلت تتقلب في فراشها لا تذوق النوم إلا غرارا ، وأخذ الوقت يمر وهي فريسة لأفكار قلقة كانت تضنيها ، ومررت يدها على رأسها أكثر من مرة تمسح الرؤى البغيضة التي احتلت ذهنها ، وتقضى الوقت ويثدا لا يشغل تفكيرها إلا هذه الزيارة التي لا تجد لها سببا يريحها .

وانتصف الليل ونام الكون وهداً كل شيء والأفكار تنمو في خيالها ، ومس أذنيها صوت مفتاح يدور في قفل الباب فجلست في فراشها . وأضاءت نور الغرفة وراحت ترقب دخول زوجها وقلبا يرفرف بين جنبيها .

ودخل حسين ، فلما ألقى نور غرفة النوم ساطعا وسع خطاه فوجد زوجته تنظر إليه وعلى شفتيها ابتسامة ، فقال لها وهو يرنو إليها في تساؤل :

— لم تنامي حتى هذه الساعة ؟

فقالت له في دلال :

— كنت أنتظرك .

فرفت على شفتيها ابتسامة وقالت له وهو يبدل ثيابه :

— أتدري من زارنا اليوم ؟

فالتفت إليها وقال :

— من ؟

— احزر .

— لا أدري من ؟

— أقاربك .

— ليس لى أقارب فى الإسكندرية .
فقالآ وهى آمدقه بنظرها لآسآشف وقع كلامها فى نفسه :
— علىة .

وأآس قلبه ىدق فى صدره فى قوة ودماعه آآدق حارة فى عروقه ومشاعر
من الآنان آنبق فى آوفه ، واعتراه اضطراب ، وفطن إلى ما طرأ علىه من آبدل
فآشى أن آلآظ ذلك فمد ىده وأطفأ النور .
وآقدم منها وقلبه دائب الآفقان . ولفها بذراعه وضمها إلى صدره فى قوة
وآلبها آبة طويلة حارة أذاب فىها روجه ، فأسبلآ آفنىها فى راحة وأقلع
قلقها ونزلآ سآينة بفؤاآها ، ولو قرأت ما كان ىآرى فى ذهآه فى هذه
اللآظة آمزق قلبها ونأت عنه آآفى وآهها براآآها ، فقد كان ىرى نفسه بآىن
آىاله ىضم علىة فى وآد وىلآمها فى هيام .

أشرقت شمس اليوم التالى وهما يغطان فى نومهما ، وسقط الضوء على وجهه ففتح عينيه ، فلما وجد أن الغرفة غارقة فى النور غادر فراشه وقعد مسترخيا فى مقعد قريب من النافذة ، فأخذ هواء البحر الرطب يداعب شعره وينعش نفسه .

واستيقظت أفكاره فشرد ببصره وغرق فى ذكرياته ، فرأى نفسه وعلية وهما ممددان على الرمال تحت مظلة يتطلعان إلى البحر الذى غص بالأجساد ، ورآها مقبلة عليه تحادثه وقد صوبت عينها الزرقاوين إلى وجهه واقر ثغرها الحلو عن أسنانها البيضاء ، فأحس يدا حنونا تعبت بأوتار قلبه وينابيع الحب تتفجر فى نفسه ومشاعر الشوق تنسكب فى جوفه ، فانبسبت صفحة وجهه ولعت عيناه بيريق أخاذ .

ولج فى الذكريات فرآها وهى تسير إلى جواره على الكورنيش وقرص الشمس المتوهج يغوص فى البحر ، وقد انتشرت الحمرة حوله فى اللجة والسماء فى توافق عجيب نشرتها يد أقدر فنان ، فخفق قلبه وهفت نفسه إلى تلك الأيام .

لم يكن يفكر فيها وهو فى مقعده كما كان يفكر فيها قبل أن يتزوج هدى ، فما عادت عليه تلك الفتاة التى كان يتضاعل أمامها بل أصبح يراها فتاة رائعة الحسن نابضة الحياة تبعث ذكرها الدفء فى أوصاله وتعيد إلى القلب ثورات الغرام .

وهفت روحه إليها وشعر برغبة جامحة فى أن يراها ، فى أن يديم النظر إلى

وجهها الدقيق وعينها الزرقاوين الصافيتين اللتين يراها في كل مكان ترنوان إليه في هيام ، فخطر له أن يقوم من فوره ليذهب إلى ، « جليم » يبحث عنها تحت مظلتها ، إنه ليلمحها بعين خياله وهي ممددة في ثوبها الأبيض البسيط تنحدر إلى إجلال ، فيشتد وجيب قلبه وتنساب في جوفه إحساسات الوجد والهيام .

وقر عزمه على أن يذهب إلى هناك ، فالتفت إلى زوجه الراقدة في فراشها وهتف :

— عليّة !

وخفت صوته وماتت الكلمة على شفثيه ، واتسعت عيناه وراح قلبه يقفز في فزع وارتسم في وجهه سهوم ، وبقي مدة ينظر إلى هدى قلقلها ، حتى إذا أفرخ روعه وهدأت نفسه ذهب إليها وأخذ يهزها في رفق ويهتف :

— هدى ! هدى !

وفتحت عينها في تناقل وقالت في نعاس :

— إيه .

فقال لها وهو يدنى وجهه من وجهها :

— قومي نتناول الفطور .

فقال وهي تطبق جفونها :

— كل أنت ودعنى أنام .

— إني خارج .

وارتدى ثيابه ، وألقى على زوجه النائمة نظرة ثم انسل من جوارها وخرج وفي جوفه ذلك الاضطراب الذى يحسه المحب الذاهب لأول مرة للقاء حبيبة الفؤاد . واستقل الأتوبيس وصورة عليّة تحتل تفكيره ، إنه يراها وهي تحدثه في انشراح ، وهي تتطلع إليه وفي عينها ذلك البريق الأخاذ الذى يحقق له القلب خفقات الحب الفوار .



فقالت وهي تطبق جفونها : كل أنت ودعني أنام .

وبلغ الأتوبيس محطة « جليم » فهبط منه وقد استيقظت مخاوفه ، وسار يتلفت وفي صدره مشاعر نائرة تمور فوارة تتدفق ، فوقف برهة يفكر فيما دهاه ، وسرعان ما أفلت منه زمام أمره فألقى قوة عاتبة تسوقه إلى حيث اعتادت عليه أن تغرس مظلتها ، فتقدم وهو مذهول ليس له على نفسه سلطان .

ووقف في مكان يشرف على الشاطئ ، ومد بصره وهو مضطرب الأنفاس ينقب عن مظلتها فلم تقع عليها عيناه فأحس أسي ينتشر بين جوانحه ، وانطلق إلى المكان وهو قلق وراح يبحث عنها في حماسة من يبحث عن شيء عزيز ضال .

وانطلق يجوس خلال الشاطئ يخوض بين المظلات والأجساد العارية ورأسه يدور في كل اتجاه . إنه يهفو إلى النظر إليها من بعيد ، يشتهي أن تكتحل برؤيتها مقلته ، وفكر فيما يفعله لو وجد نفسه فجأة أمامها وجها لوجه فذكر قلبه في رهبة وشعر بجفاف في حلقه ودثره اضطراب ، ولكنه ظل ينقب عنها في لهفة واشتياق .

وقطع الشاطئ ولم يعثر عليها فأحس ضيقا ، وفكر في أن يعود من حيث جاء ولكنه لم يركن إلى يأسه ووقف يدير عينيه هنا وهناك ، لمح أناسا قاعدين في الكازينو يشرفون على الشاطئ من بعيد في وقار فراح يقترب منهم في حذر ، ووقعت عيناه على علية وإجلال وعمه وامرأة عمه فقفز قلبه في رعونة حتى كاد يفر من فيه وتخلخلت مفاصله ، وأخذ ينظر وقد سربله الاضطراب .

وثبت ناظريه عليها وقلبه يدق في شدة ودماؤه تتدفق حارة في عروقه وقد استيقظت بين جوانحه مشاعر الحب الجبار ، وخطر له أن يتقدم منهم يصافحهم ولكنه فزع من ذلك الخاطر وبقي في مكانه يرنو إلى علية في هيام . وعبث الهواء بشعرها الذهبي فرفعت يدها في رشاقة ومررتها عليه فرفرف

قلبه ، وفيما هو يمد إليها بصره في وجد شرد ذهنه فوجد نفسه وعليه وحيلدين
على الشاطئ ، فتقدم إليها وقد رقت على شفثيه ابتسامة ترجمت عما يكنه
القلب الولهان ، وقابلته متهللة الوجه وفي عينيها الزرقاوين نداء ، فضمها في
شوق وقبلها في اشتها .

وأفاق إلى نفسه فتلفت حوله فألقى نفسه غريبا على الشاطئ ، كان في
ثيابه الرسمية بين أجساد تجردت من ثيابها فأحس حرارة تنبعث من وجهه ،
فراح يتعد رويدا رويدا وهو يتلفت وقلبه يطفو ويغوص ونار الصباية تتأجج
بين الضلوع .

الأفكار تتوافد على رأس حسين فلا يخفى مشهد إلا ليقوم مكانه مشهد آخر ، وكانت جميع المشاهد تدور حول عليه . إنه يجتر حياته معها منذ كانا طفلين حتى تزوج هدى ، وفي صدره مرارة وأسى . وإن الحوادث التي طالما فكر فيها وانقبض لها لتبدو اللحظة لعين خياله مجلوة ، إنه يحن إلى ذلك اليوم الذى سحبه فيه من يده حتى بلغا الحميلة المنعزلة فى قصر الزمالك ، وإنه يحس طعم القبلية التى طبعها على شفثيه باقية فى روحه ، ويتذكر يوم سارا معا فى حديقة الحيوان يتحدثان فيخفق قلبه ، وقفز إلى ذهنه صورتها يوم عادته فى مستشفى الكلية فاختلجت جوارحه وراحت مشاعر الحب الدافق تراق فى جوفه .

واستسلم لأفكاره فراح يسبح فى بحور خياله وهو مطيق جفنيه ، حتى إذا استنفذ ذكرياته سمع وسوسة تنبعث من أغوار نفسه ، تهمة بأن فى انقياده وراء ذكرياته وحنينه إلى ما انقضى من أحداث بينه وبين ابنة عمه خيانة لزوجة . وأصاخ السمع إلى ذلك الصوت الزاجر ف شعر بحرارة تشع من أذنيه ووجهه ، وعزم على أن يطرد تلك الذكريات إذا ما ألحت على ذهنه فما فى نبش الماضى وانطلاق العنان للنفس المتقلبة التى تهفو دواما إلى ما لا تملك إلا النكد وجلب المتاعب والأشجان .

وسمع حركة فى الحجرة فالتفت فوجد هدى تنهض من فراشها منقبضة الوجه ، وتهتف فى صوت متخاذل :

— حسين .

فاضطرب وانتشرت في صدره رهبة ، وأحس كأنما حزرت ما يجري في رأسه فقال وعينه لا تثبتان على شيء :

— ماذا ؟

— أشعر بغيثان .

فقال لها في رقة مكفرا عن إساءته المسترة التي وقعت في أعماقه :

— لا بد أن نذهب إلى الطبيب الآن .

وذهب إليها وضمها إليه فألقت رأسها على صدره وقالت :

— ليس هناك ضرورة .

وبقيت مستكنة بين ذراعيه فمال عليها وجعل يقبلها صادقا ليظهر نفسه مما وقع في خياله ، وراح يسأل نفسه عن شعوره إذا تيقن من أنها تفكر في رجل آخر كما فكر في امرأة غيرها فانتفض ، وشعرت برجفته فتظرت إليه بعينها السوداءوين الواسعتين وقالت :

— ماذا بك ؟

فقال وهو يحاول أن يغتصب ابتسامة :

— لا شيء .

وتقلص وجهها وضافت عيناها وغادرت هرعته وهرعت إلى دورة المياه وهو يتبعها بعينه وفي وجهه تساؤل . وسمعها وهي تقيء فأطرق وبان في وجهه سهوم ، وأقبلت شاحبة اللون فنهض إليها وقال :

— لا بد أن نتوجه إلى الطبيب .

وارتديا ثيابهما وانطلقا إلى عيادة طبيب قريب من منزلهما ، وقعدا ينتظران وقد لاح في وجهه القلق فما كان يدرى ماذا جرى لهدى في الأيام الأخيرة ، وجعل يرتب أفكاره ويفكر فيما يقوله .

ودخلا على الطبيب وكان شابا سمح الوجه فقابلهما متطلق الحيا فهدأت نفس حسين واطمأن إليه . وأشار إلى مقعد وهو ينظر إلى هدى وقال :

— تفضلى .

وقعدت هدى وقال الطبيب :

— خيرا ؟

فقال حسين :

— إنها تشعر بنعاس وغثيان وقد لشهوة الطعام ، وإذا تناولت طعاما

قائه .

فوجت شفتى الطبيب ابتسامة وورنا إليه رنوة لم يفهم معناها ، وقال لهدى

وهو يشير إلى مقعد طويل عال :

— تفضلى .

وتمددت هدى ، وأخذ يفحص عنها وحسين يشيح بوجهه يلفه قلق

وضيق ، والتفت الطبيب إليه وقال وهو يتسم .

— مبارك .

ولم يفهم حسين شيئا وقال فى براءة :

— ماذا وجدت يا دكتور ؟

فانفرجت شفتا الطبيب حتى لاحت أسنانه وقال :

— ستصبح أبا !

واضطرب قلب حسين وأخذت مشاعر الحنان تنبثق فى جوفه ، وفاض

فرحه فانبسطت أساريره ولعت عيناه ، ونهضت هدى وقد أسبلت جفניה ،

وأخذ ينظر إليها نشوان ولولا وجود الطبيب لضمها إلى قلبه الفرحان .

وسارا فى الطريق الموينى وهو ينظر إليها فى وجد بين خطوة بخطوة ،

حتى إذا دلفا إلى مسكنهما قال لها فى صوت متهدج وهو ينظر فى عينها :

— هدى !

ثم ضمها إليه وجعل يغمغم :

— إنى سعيد .

فضغطت على كتفيه وقلبا يخفق كجناح حمامة وترقرقت دموع الفرح في
مقلتيها ، وبقياً مدة وهما غائبان عن الوجود بما يعمل في جوفيهما من مشاعر .
ثم أخذت هدى تبدل ثيابها وذهبت إلى الفراش فراح يعاونها على التمدد في
رفق .

وقعد إلى جوارها يحادثها فأعارته السمع وتفتح له القواد ، ومر الوقت
وفر النهار ووافى ميعاد ذهابه إلى القسم ليقضى نوبته الليلية ، فقال لها وهو
ينهض : .

— لو طاولت قلبي ما غادرتك .

فقالت له مفترة الثغر :

— اذهب في حفظ الله .

وانطلق منشرح الصدر يغذ السير ويملاً رئتيه بالهواء ، وأشرف على محل
الحلوى فلمح صديقه جمالاً جالسا وحده ترصدا للغاديات الرائجات ،
فذهب إليه وقال له وهو يصفاحه :

— أما كلت عيناك ؟

فقال جمال وهو ينظر إليه في استغراب :

— أيتعب النظر التحديق في الجمال ؟!

وقعد وبقي حسين واقفا فقال له :

— ألا تجلس ؟

وأراد أن يفضي إليه بالنبا وينصرف فقال :

— ذاهب إلى القسم فقد تأخرت عند الطبيب .

— ولماذا ذهبت إليه ؟

— كانت هدى تشعر بتعب .

— وماذا وجد عندها ؟

فقال حسين في زهو :

— سأصبح أبا .

فقال جمال وهو يصافحه مرة أخرى :

— مبارك .

وهم حسين بالانصراف فقال جمال وقد انفرج فمه الواسع :

— أتحب أن يكون ولدا أو بنتا ؟

فأطرق حسين برهة ثم قال :

— كل ما يهب الله لنا فهو خير .

— وإذا جاء ولدا ؟

فقال وهو مشرق الوجه وفي عينيه بريق :

— أدعوه جمالا .

فانفرج فم جمال الواسع وقال :

— وإذا جاءت أنثى .

— أدعوها عليّة .

وانتبه إلى ما قال فاضطرب وزحفت المشاعر المتباينة إلى صدره ، وخيل

إليه أن وجهه يعكس ما في نفسه فاستأذن وانصرف تراوده رؤى وأفكار .

إنه يوم من أيام أغسطس القائظة ، وحسين في القسم منهمك في عمله وعرقه يجري على وجهه وينساب إلى عنقه فيخرج منديله ويحففه ثم يستأنف ما هو فيه من إرهاق ، ومس أذنيه صوت حبيب إلى نفسه فرفع عينيه عن الورق مشرق الوجه منبسطة الأسارير ، فقد رأى أمامه أباه بقامته الطويلة وشعره الرمادي المنفوش من تحت الطربوس ، فنهض منشرح الصدر وصافحه في شوق وقدم إليه مقعدا ثم قعد وهو مقبل عليه وقال له وقلبه عامر بالحب :

— كيف حال أمي الآن ؟

فقال محمود أفندي وهو يتطلع إلى ابنه في حنان :

— بخير .

— أما جاءت معك ؟

— قلت لها تعالى نزر حسينا قالت ياليت ، إنني لا أستطيع أن أغادر البيت

إنني مريضة ، دعوني أموت في بيتي بسلام .

فقال حسين في قلق :

— تشكو شيئا ؟

فقال أبوه وهو يتسم :

— أبدا ، ألا تعرف أمك ؟! إنها تستغيث بالموت إذا أرادت أن تفعل شيئا

وتخشى ألا يوافقها عليه أحد ، أو تمتنع عن فعل شيء يلح عليها فيه أحد .

وراح يحاكيها : « دعوني أفعل كذا وكذا قبل أن أموت .. لا أستطيع أن

أفعل كيت وكيت ، إننى مريضة ، إننى أموت .

فابتسم حسين وقال :

— لو لم تكن مريضة ما تأخرت عن المجيء .

— إنها تهاب أن تغادر البيت ، اعتادت أن تمكث فيه فأصبحت فكرة البعد

عنه تقلقها .

وصمت برهة ثم قال :

— إنها عاتبة عليك .

— ولماذا ؟

— مرت شهور دون أن تذهب لرؤيتها .

فقال وهو يدير عينيه في المكان :

— إننا مرهقون بالعمل ، نعمل في الصباح وفي العصر وفي المساء ،

ونقضى الليل هنا في انتظار الذين لا يحلو لهم إلا أن يعيشوا في الظلام .

وراحا يتجاذبان أطراف الحديث حتى إذا وافى موعد الانصراف غادرا

القسم ، والتفت الأب إلى الابن وقال :

— أقابلك غدا .

وهم بالانصراف فأمسك به حسين وقال له :

— إلى أين ؟

— إلى حيث أبيت .

— لن تبيت إلا عندى .

فقال أبوه وقد ازور بوجهه عنه وحاول أن يسير :

— مستحيل .

ولما كان حسين يعلم رقة قلبه فقد قال في انكسار :

— إننى في حاجة إلى عونك .

— نتحدث في ذلك غدا .

ووقف وقد أرهف سمعه ، فقال حسين في صوت خافت :
— هدى مريضة .

فقال محمود أفندى وهو ينظر إليه في اهتمام :
— ماذا عندها ؟

فقال في ارتباك :

— ستصبح جدا عما قريب ، أمرها الطبيب أن تلزم فراشها ، إننى
أغادرها في الليل والنهار وهى في حاجة إلى من يؤنس وحدتها .
فخفق قلب الأب ولكنه قال متظاهرا بالعناد !
— إنك لست في حاجة إلى ، إنك في حاجة إلى امرأة ترعاها وترعى
بيتك . ابعث إلى أمها .

وفطن حسين إلى أنه قد لان فقال وهو يجذبه من يده :
— والله لتأتين معى .

فقال الأب وقد انطلقا في طريقهما :
— مستحيل .

ووقفا أمام الباب ، وأخذ حسين يطرقه في رفق حتى انفرج عن هدى في
ثوب منزلى بسيط ، فنظر إليها الأب نظرة سريعة فوجدها حلوة رشيقة على
الرغم من الشحوب المنتشر في صفحة وجهها ، وقرأ حسين في عينها تساؤلا
فقال في نشوة :

— بابا .

فافتر ثغر هدى عن ابتسامة ترحيب وقالت في انشراح :
— أهلا وسهلا .

ودخل الأب وتلفت فوجد مسكنا ضيقا ، فما كان إلا غرفتين وردهة
ودورة مياه وقد أثت بأثاث متواضع ولكنه نظيف ، وقعدوا يتحدثون وما
انقضى قليل وقت حتى صفا قلب الأب ورد إلى طبعه فراح يحدث هدى

متلهل الأَسَاريِر ، قال لها :

— كيف وجدتَ حَسينا ؟

فقالت وهي منشِرحة وفي عَينِها بَريق :

— رائِعا .

والتفت إليه أبوه وقال في رقة :

— أَصبحَ رَجَلا ، وغدا يَصبحُ أبَا .. إِيه ! كَبَرنا وصَرنَا جُلُودا .

ونَظرَ إلى هَدى فأَلفاها مَطرَقة ، ولَمَحَ في وَجْهها غِبطَة فقال في صَوت

شَحن حَنانا :

— إذا جاءَ المَولود ذَكَرا سَندعوه مَحمُودا .

وخطَرَ لَه أن قَد يَكونَ فيما قاله أَنايَة فقال :

— أو إِسماعيل .

فقالت هَدى في تَمَلُّق :

— سَنسَمِيه مَحمُودا .

وابتَسم ورَنا إلى ابنه متَأَلِّق العَينين ، وأَرادَ أن يَتحدَّثَ فأَلْفَى نَفسه يَعود

إلى المَاضى ، إِنَّه يَحنُ إِلِيه دَواما ، قال وهو يَنتَظرُ إلى هَدى :

— كانَ زَوجُكَ كَثيرَ البَكاءِ وهو صَغير ، كانَ يَكي أَحيانا مِن كَلمَة

عَارِضة سَاعات .

فقال حَسين :

— لا أَذَكرُ أَننى كَنتُ بَكاء .

فالتفتَ إِلِيه أبوه وقال :

— أَتَذكُرُ يَومَ عَدتِ إلينا مِنَ المَدرَسة تَيكى لِأنَ مَدرَستِ الحِسابِ ضَربَكَ ،

فذهَبتِ إلى المَدرَسة وَأَنا نائِثُ أَعتَزمُ أَمرا .

فقال حَسين وهو يَبتَسم لِلذَكرى :

— أَذَكرُ .

وقالت هدى :

— وماذا فعلت يومها يا عمى ؟

— أخذت أبحث عن ذلك المدرس ، ولكن من حسن حظّه أنه كان قد

انصرف .

وضحكت هدى واضطرب حسين ، فقد قفزت إلى ذهنه صورة عليّة

وهي تعابث عمها وراحت تتخايل أمام عينيه فنهض وانسحب خافق القلب

مضطرب النفس خشية أن يقطنا إلى ما اعتراه .

دخل حسين على زوجه قبل أن يخرج فوجد أباه يحادثها وهى تصغى إليه
باسمة الثغر ، فشعر براحة وتقدم منها وقال :

— ماذا تتغدى اليوم ؟

فأطرقت هدى تفكر وقال أبوه :

— دعوا لى أمر غدائكم .

فقال حسين كأنما لم يسمع ما قاله :

— سأبعث لكما سمكا .

فقال له أبوه فى زجر :

— لا تبعث شيئا ، سأتكفل أنا بأمر الغداء .

وقال حسين وهو يسير نحو الباب :

— لا تنتظرانى ، إننى أتأخر حتى العصر .

فقال أبوه وهو يتسم :

— بل سنتظرك .

وذهب حسين وأخذ محمود أفندى يقص على هدى ذكريات الشباب وهو
نشوان ، حتى إذا ما أوشكت الشمس أن تحتل كبد السماء نهض وخرج
يتولى أمر الغداء .

وعاد يحمل كيسا من الورق به لحم وطماطم وبطاطس ، ودخل إلى
المطبخ وتناول وعاء وضع به اللحم وأخذ يقشر البطاطس ، وأقبلت هدى
فلما رآته ابتسمت وقالت له :

— دع هذا لى .

فقال لها وهو يعمل :

— لن يطبخ اليوم أحد غيرى .

وأخذت سكيناً وتقدمت تعاونه ، فقال لها :

— اذهبى إلى فراشك ولا تجهدى نفسك .

— ليس فى تفشىر البطاطس إجهاد .

ومدت يدها وأخذت واحدة ، وقبل أن تعمل فىها السكين مد يده

وأخذها منها ، ثم التفت إليها وقال لها وهو يشير إلى مقعد فى المطبخ :

— إذا أردت أن تبقى معى هنا فاجلسى على هذا الكرسى .

ولم تجد مفراً من أن تنفذ أمره فقعدت تنظر إليه ، وراح يقشر البصل

فجرت دموعه على خديه ، فابتسمت وقالت له :

— لماذا كل هذه الدموع يا عمى ؟

— أغسل عيني .

وراح يدعك البصل بالملح والتوابل ، فقالت له مداعبة :

— طباخ لا بأس بك .

فقال فى زهو :

— إننى طباخ ماهر .

وشرد ببصره وعاد بذاكرته إلى الماضى فرفت على شفثيه ابتسامة حاملة ،

وقال فى انشراح :

— إننى أذكر يوماً دعوت فيه أناساً للغداء ، وفى صبيحة ذلك اليوم

مرضت زوجتى وعجزت عن مغادرة الفراش فلم أفرع ، دخلت فى هدوء إلى

المطبخ وأخذت أعمل ، وما وافى ميعاد الغداء حتى كان على السفرة عشرة

أصناف ، وجاء أصحاب وأكلوا وهم يشنون على الطعام .

— أتطبخ يا عمى كل شىء ؟

فقال وهو يهز إصبعه في الهواء :

— إلا ورق العنب والكرنب .

فأشرق وجه هدى وقالت :

— لماذا ؟

— حاولت أن أطبخهما مرة فانتشر الأرز في الوعاء وبقي الورق فارغا .

فابتسمت هدى جذلي وقالت :

— وأنا يا عمى لا أتقن طبخهما .

فرنا إليها وقال وهو يهز رأسه :

— الطباخ الماهر لا يحسن طبخهما ؟

فقالت وقد ألقت برأسها إلى الوراء في غبطة :

— الطباخ الماهر مثلنا .

وجهاز محمود أفندي السفرة ، وأقبل حسين فجلسوا يأكلون . وما تناول

حسين لقيمات حتى قال متملقا والده :

— طعام لذيذ يذكرني بطعام أمى .

والتفت إلى هدى وقال :

— تعلم أى من أمى طهو الطعام ولم أتعلم منك كيف أسلق بيضة .

فقالت هدى وهى تلوى شفتها السفلى :

— ليس الذنب ذنبى . بارك الله فى القسم الذى يلتهم كل وقتك .

وقال محمود أفندى فى بساطة :

— الحقيقة أننى أنا الذى علمت زوجتى .

فقال هدى وقد اتسعت عيناها :

— حقا ؟

— كنت فى صغرى أعاون أمى فى المطبخ ، حتى إنها كانت تتمنى لو كنت

بتنا .

فقال حسين في فزع :

— كفى الله الشر .

ونظرت إليه هدى من طرف عينها وابتمت ، وقال محمود أفندى :
— أصبح الطهى هوايتي ، فلما تزوجت علمت زوجتي ما تعلمته من
أمي .

وراحت الأيام تمر ومحمود أفندى وهدى يتسامران في الليل والنهار ، فلما
جاء يوم رحيله شعرت هدى بشيء من الأسى وقالت تترجم عن عواطفها :
— ستترك فراغا كبيرا في البيت ، اعتدت أن أراك وأصغى إليك . سأشعر
بعد ذهابك بوحشة ، ليتك تبقى يا عمي معنا .

فنظر إليها وفي عينيه رضا ، وربت على كتفها في رفق وقال في حنان :
— كان بودي أن أبقى ولكني لا أستطيع .

وانصرف محمود أفندى وذهب معه حسين ، وبقيت هدى ترقبه وقد
انتشرت في جوفها سحابة خفيفة من الحزن ، كان يؤنسها في الليل إذا بات
حسين في القسم ويملا البيت مرحا بالنهار ، ينعش روحها وينزل الطمأنينة
بقلبها .

انطلقا إلى المحطة وفي الطريق قال حسين لأبيه :

— ما رأيك في هدى يا أبي ؟

فانبسطلت أسارير محمود أفندى وقال وفي عينيه رضا :

— طيبة ، بنت حلال .

كانت هدى تحيك ملابس صغيرة لوليدها المرتقب . وكانت ترفع الملابس بين يديها وتديم إليها النظر فتنتشر في جوفها إحساسات الغبطة والحنان ، ويخفق قلبها فتضم الثوب الصغير في وجد إلى صدرها وقد انعكست على وجهها أمارات النشوة ، فقد كانت ترى بعين خيالها نفسها وهي تطوق بذراعيها طفلها الذى ما زال فى بطن الغيب .

وسمعت صوت مفتاح يدور فى الباب فقفطنت إلى أن زوجها قد عاد ، فأخذت تجمع الثياب الصغيرة وتخفيها تحت السرير ، ودخل حسين ولحها وهي تدس لفافة فى عجلة فقال فى عتاب :

— ماذا تخفين عني ؟

فقالت وقد طأطأت بصرها :

— لا شيء .

— وهل تخفى الزوجة شيئاً عن زوجها ؟

ومد يده وأخرج اللفافة فسقط ثوب صغير ، فخفق قلب حسين ومال والتقط الثوب فى رفق وبسطه بين يديه ونظر إليه وقد لمعت عيناه ببريق الفرح ، وقال وهو يهزه فى نشوة :

— أهذا شيء يخفى !

فقالت هدى وقد هزتها فرحة :

— خشيت أن تسخر مني لأنى أصنعها قبل الأوان .

— أسخر منك ؟ ما هذا الذى تقولين يا هدى ؟ إننى أعد الأيام الباقية على

هذه المناسبة السعيدة وأنا مقعم بالأمل ، إننى كلما سرت فى الطريق قلبت
عيني فى اللافتات أبحث عن مولدة حتى إذا جاءت الساعة المنتظرة هرعت إليها
أتمس عونها .

وصمت وشرد ببصره وقلبه دائب الخفقان ، وراحت تسعد
بإحساساتها ، ومرت لحظات وهما يتبادلان النظر ثم ذهب إليها ولف ذراعه
حولها وقال فى صوت يتهدج حنانا :

— أتلرين ماذا حدث هذا الصباح ؟

— ماذا ؟

— رأيت سيارة الروضة أمام بابنا وقد غصت بالأطفال ، فخطر لى أن
سيكون لى فى يوم من الأيام ابن بينهم فأحسست جناح حمامة يرفرف فى جوفى
وينابيع الحب تتفجر فى صدرى ، فأخذت أتطلع إليهم وقد رنقت عيناى
بدمعوع الفرح .

فقالت هدى فى صوت حالم :

— أتريده ذكرا أم أنثى ؟

— إنى أَرْضى بما يعطينه الله .

وساد الصمت بينهما وأطلقا لخيالهما العنان فغابا عن الوجود مدة ، ولما انتبه
حسين إلى نفسه قال :

— أوه ! كدت أنسى .

فتحت هدى عينيها المسبلتين وقالت :

— ماذا ؟

— قابلت جمالا وقد دعانا لتمضى الغد على شاطئ البحر .

خفق قلب هدى فى شدة وأقلعت نشوتها ليحل مكانها قلق ، إنها تضيق
بالسويغات التى تجمع بينها وبين جمال ، وخطر لها أن تعنثر لزوجها عن تلبية
دعوة صديقه ، أن تدعى أنها مجعدة ، ولكنها وأدت ذلك الحاطر وهى

مضطربة .

وظلت في قلقها ورهبتها حتى دخلت فراشها وساد الحجر ظلام دامس
فراحت أفكارها تنمو في الظلام ومخاوفها تتزايد ، واشتدت ضربات قلبها
حتى خيل إليها أنها ستوقظ زوجها الراقد إلى جوارها .

وانقضى الليل وما تامت إلا غرارا ، وأشرقت الشمس فنهض حسين
نشيطا وقامت هدى وهي تحس كأن مطارق تدق رأسها فدلكت رأسها بيدها
وتشاءبت في نعاس ، فقال لها زوجها .

— هيا يا هدى . أزف الميعاد .

— عندي صداع .

— لا بأس . سينعشك هواء البحر .

وأخذتا يتأهبان للخروج ، وصك آذانهما صوت نغير سيارة جمال فهرع
حسين إلى النافذة واضطربت هدى وهرب الدم من وجنتيها وراح قلبها يقفز
رهبة ، وعاد حسين إليها وقال :

— أسرعى .

وهبطا في الدرج حسين يقفز في مرح وقد ملئ نشاطا وهدى تنزل في بطء
زائغة البصر يرفرف قلبها رهبة بين ضلوعها . واستقبلهما جمال وقد ارتسمت
ابتسامة ترحيب على فمه الواسع وتألقت عيناه بريق الغبطة والسرور .

وانطلقت بهم السيارة حتى بلغوا شاطئاً هادئاً فغادروها وساروا وهم ينظرون
إلى مياه البحر التي تغسل رمال الشاطئ ثم تنحسر عنها لتعود لتغسلها ،
ووقفوا يملئون صدورهم بالهواء ، ثم راح جمال ينشر مظلة الزاهية الألوان
وتقدم حسين يعاونه وبقيت هدى تنظر وما سكنت الطمأنينة صدرها .

وقعدا على الرمال تحت المظلة واستنشق حسين الهواء في قوة وقال :

— ما أجمل أن يحيا الإنسان حراً لا تكبله القيود ولا تثقل صدره الهموم .

وابتسم جمال وقال :

— إنك اليوم طليق فار من القسم .
فقال حسين وهو يزفر الهواء في شدة :
— لا يعرف قيمة الراحة إلا من حرم الراحة ، إننا نهفو إلى ساعة من هذه
الساعات إذا ثقل علينا العمل المضني الشاق .
وصمت قليلا وشرد بصره ، ثم قال :
— تراودني فكرة مجنونة .
فقال له جمال :
— ما هي ؟ .
— أفكر في أن أقوم وأعدو في الفضاء حتى أسقط على الرمال من الإغياء .
— هيا حقق ما تهفو إليه نفسك .
وتلاقت عينا حسين بعيني هدى فألفاها تنظر إليه في عتاب ، فهبطت
حماسته .. كانت تخشى أن يقوم ويعدو كالأطفال ويتركهما وحيدين وهي
ترتجف فرقا من فكرة الانفراد بجمال .
راح حسين يتلفت في مرح ، والتفت عينا جمال بعيني هدى وكانا يتقدان
شررا فاستيقظت مخاوفها وغضت من بصرها وأخذ قلبها ينزف إحساسات
الرهبة حتى ملأت جوانحها .
وساد الصمت ولم يكن يسمع إلا النسيم ولطمات الموج للشاطئ ورأى
حسين أن يدير الحديث فالتفت إلى جمال وقال :
— لماذا لم تتزوج ؟ .
فقال جمال وقد تلاقت عيناها بعيني هدى وارتسمت على شفتيه ابتسامة
هازئة :
— قسمة .
وارتجفت هدى وتدفقت دماؤها حارة في عروقها وودت لو أن زوجها
يسكت ، ولكن حسينا قال :

— حاولت وأخفقت ؟

فقال جمال وهو ينقل بصره بين حسين وزوجه :

— عرفت فتاة رشيقة ممشوقة سوداء الشعر واسعة العينين ، ودامت صداقتنا مدة ثم افترقنا .

راح قلب هدى يقفز في صدرها لى جنون حتى خيل إليها أنه سيفر من فيها وبان في عينيها فزع ولو أن زوجها التفت إليها لفطن إلى ما اعترأها ، ولكنه أقبل على صديقه وقال له :

— ولماذا لم تتزوجها ؟

— لم أكن أحسب أنها تستطيع أن تكون زوجة .

— لماذا ؟

— كانت كل القرائن توحى بأنها لا تصلح إلا أن تكون رفيقة .

— لعلك ظلمتها .

— إني ظلمت نفسي ، اكتشفت بعد فوات الأوان أنني أهواها .

خفق قلب حسين وصمت ، وساد السكون وأطرق كل منهما يفكر في أمره ، وكانت هدى تنتفض وتلتقط أنفاسا مضطربة ، وراح جمال يرنو إليها وفي عينيها لوعة .. ولاح لحسين خيال علية ، إنه يرى طيفها يخطر في ذهنه فتندفق دماؤه الحارة في عروقه ويشتد وجيب قلبه ، ويشغل عما حوله بالدنيا القائمة في رأسه التي تشتهجها ويهفو إليها فؤاده .



إني ظلمت نفسي ، اكتشفت بعد فوات الأوان أنني أهواها

(النقاب الأزرق)

وتقصت الشهور وحسين يعطف على هدى ويغمرها بخنانه ويحدثها عن المستقبل حديث الأمل .. كان يرضى عن نفسه كلما حذب عليها ، وما كان يكدر صفو الليالي إلا خيال عليه الذى كان يلح على ذهنه فيتنباه قلق ويدثره اضطراب ، وكان يزيد فى قلقه أنه يسترسل فى متابعة ما يجرى فى رأسه من أفكار .

كان يفرغ إذا طافت صورة عليه برأسه فيأخذ قلبه يدق فى رهبة ، ويحاول جاهدا أن يطرد صورتها وهو يتفرع يحس فى قرارة نفسه إحساس المقبل على ارتكاب جريمة لأول مرة فى الظلام ، واعتاد على مر الأيام أن يعيش معها فى فكره لحظات ينعم بلذيق الإحساسات ، حتى إذا ذهب أحلام اليقظة هب ضميره يزجره فيأخذ قلبه فى الخفقان وصدرة فى الانقباض .

ويحس وجود هدى الراقدة إلى جواره فيتودد إليها تودد من يشعر بأنه ارتكب فى حقها ذنبا عظيما ، ويغمرها بعطفه ويغرقها بخنانه ولا يدعها إلا بعد أن يقلع قلقه ويتنشر فى صدره راحة واطمئنان .. وتمر الليالي والأيام هادئة رتيبة ، حتى إذا عاد طيف عليه الزائر ليحتل رأسه لحظات ثم يولى الأدبار فى دلال ، عاد زجر الضمير وعاد التودد إلى هدى وإغراقها بالعطف والحنان .

وراح جمال يزورهما فى البيت يمضى عندهما أمسية الشتاء يلتهم هدى بعينيها النهمتين . وكانت تغض من بصرها كلما تلاقت عيناها بعينيها منقبضة الصدر فما كانت ترتاح إلى زيارته المتكررة التى تقلب طمأنيتها قلقلًا وتزلزل نفسها

وتبذر في جوفها بنور الرهبة والاضطراب .
وفي ليلة من الليالي عاد حسين من عمله فألقى هدى تتلوى في الفراش ،
فهرع إليها وقال لها في لهفة :
— ما بك ؟

فقالت والدموع تجري على خديها :
— أحس كأن مطرقة تدق في ظهري .
وتلفت في حيرة ، لم يكن يدرى ماذا يفعل وحده في الليل الهاجع وامرأته
تتلوى في الفراش كثعبان ، وخطر له أن ينطلق لاستدعاء مولدة ولكن لم
يطاوعه قلبه أن يتركها وحيدة فبقى إلى جوارها وقد اشتد وجيب قلبه وراح
ينظر شارد البصر .

وأنت أنة شعر بها كخنجر يمزق نياط قلبه ، فهب من جوارها وذهب
يهول إلى جيرانه يطرق عليهم بابهم . صك الطرق أذنيه رهيبا فوقف يرتجف ،
ومر الوقت بطيئا وفتح الباب عن رجل في ثياب النوم يفرك عينيه وفي وجهه
هلع ، فلما رأى حسينا أمامه نظر إليه في تساؤل المدهوش فقال حسين في
صوت متهدج :

— آسف لإزعاجكم في هذه الساعة ، زوجتي تضع وليس عندي أحد .
وغاب الرجل عن عينيه دون أن ينبس بكلمة ، ومرت لحظات خالها
حسين دهرا ، وأخيرا أقبلت جارته وقد وضعت على كتفها معطفا منزليا
وهرعت إلى زوجته فأحس شيئا من الراحة ، فلن يكون وحده مع زوجته
التي تعض الفراش وتصرخ صرخات تزلزل كيانه .

وبقى يغدو ويروح في الردهة مضطربا لا يجزؤ على أن يقتحم عليها
حجرتها ، فما كان يطيق أن يراها وهي تكن من الألم وترنو إليه بعيون زائغة
بللتها الدموع ، ولمح جارته قادمة نحوه فاضطرب فرقا ونظر إليها قلعا ،
وسمعا تقول له :

— لا يمكن أن نتظر طلوع النهار ، لا بد من استدعاء الطبيب .
غادر المكان دون أن يتفوه بكلمة وهبط الدرج وهو مشغول باضطرابه ،
وانطلق في جوف الليل يغذ السير ، وخيل إليه أنه لا يقطع أرضاً فراح يعدو
ويلتقط أنفاسه حتى إذا بلغ دار المولدة أخذ يطرقة وصدره في علو وانخفاض .
ولمح سيارة قادمة فأشار لها وطلب من سائقها أن ينتظره ، واستدعى
المولدة وما دخلت في السيارة حتى طلب من السائق أن ينطلق إلى داره .
كانت الشوارع خالية فراحت السيارة تنهب الأرض وهو يحث سائقها على
الإسراع ، كان يتمنى أن يغمض عينيه ليرى نفسه إلى جوار زوجه التي
يتجاوب أنيتها في أصداء نفسه .

ووقفت السيارة وهبط منها والقلق يتردد بين جنبيه ، وراح يصعد في
الدرج وهو يحس روحه تكاد تفر من فيه فقد كان فريسة للمشاعر الثائرة
المتباينة التي أخذت تمور في صدره ، ودخل شقته ووقف ينظر إلى المولدة وهي
تنساب إلى حيث رقدت هدى وقلبه يطفو ويغوص ، وبقي مدة يمد بصره من
بعيد ، ثم ذهب إلى مقعد وارتقى فيه مرهف الحواس مبهور الأنفاس .
وخرجت جارته من الغرفة فرف قلبه ونهض وهو يتطلع إليها في قلق ،
وقرأت حيرته في عينيه فابتسمت له مشجعة ، فلم يهدأ قلقه وسألها في صوت
خافت مرتجف :

— كيف هي الآن ؟

فقالت له في رقة :

— بخير .

وذهبت إلى المطبخ ووضعت وعاء به ماء على النار ، ثم عادت إلى غرفة
هدى وأغلقت خلفها الباب .

وارتفع صراخ هدى فأحس ونخزا يخز قلبه فنهض من مقعده وراح يقطع
الردهة جيئة وذهوبا وقد ارتسم في وجهه الألم ، وجعل يضرب كفه بقبضته

يمرر يده على شعره في حيرة ويقضم أظافره بأسنانه ثم يرتقى في مقعده ، وما يستقر فيه لحظات حتى يقوم ويجعل يغدو ويروح وقد عقدت في صدره عقدة ضيقته وكنمت أنفاسه .

وراح الزمن يمر وتبدل بغیضا ، إنه يحس مرور الثواني واللحظات ويسمع ديب النمل ويتحلب قلقه في مرارة ، وكاد ينفد صبره ويقرع الباب يسأل عن زوجه التي خفت أنينها ولكنه عاد وارتمى في مقعده وقد دفن وجهه في راحتيه .

وارتفع صراخ الوليد وهو يبكي ومس الصوت الملائكى أذنيه . فانتفض سرورا وقد أقلق قلقه وأحس عواطف جديدة من الحنان تسكب في جوفه ، ودنا من الباب مرهف السمع وقلبه يخفق في هيام .

وفتح الباب وخرجت جارته تهرول وتقول في انشراح :
— مبارك .. مبارك .

وغابت في المطبخ ثم عادت تحمل طستاً به ماء ساخن ، ودخلت الغرفة وأغلقت خلفها الباب .

سكنت الطمأنينة صدره وانقشع قلقه وانبسبت أساريره ، وفكر في أنه أصبح أبا فرفرت على شفثيه ابتسامة عذبة ، وهفا قلبه إلى رؤية صغيره الذى كان عويله يفجر في نفسه ينابيع الشفقة والحنان .

وفتح باب الغرفة ولاحظ جارته فأسرع ليدخل على هدى ، ولاحظت المرأة لهفته فقالت له وقد افتر ثغرها عن ابتسامة شحنت حنانا :
— تريث قليلا حتى تنتهى من لفه .

راح يمرر يده على وجهه في هدوء كأنما كان يمسح ما تحلف عليه من القلق والفرع ، وأقبلت المولدة متلهلة الوجه وقالت وهى تشير إلى حيث ترقد هدى :

— تفضل .

وتقدم خافق القلب حتى إذا التقت العيون لمعت عيناه وأخذت مشاعر
الوجد تنتشر في جوفه ، فمال عليها وقبلها قبلة أودعها الإحساسات المتدفقة
في صدره ، والتفتت إلى طفلها الراقد إلى جوارها ثم نظرت إليه في حب
وقالت له في سرور :

— انظر إلى محمود .

فرنا إلى الوليد وهو فرحان .

. المنحني على الطفل وأخذ يداعبه وهو منشراح الصدر غارق في النشوة يحس إشراقا في نفسه وخلدرا لذيذا يسرى في روحه ، وراح يديم النظر إلى وجه الصغير وقلبه ينبض في حنان ، وقال لزوجته وهو يعيثر بإصبعه في خد ابنه وهو جذلان :

— أما لاحظت شيئا ؟

فقالت وهي ترنو إلى ابنها في هيام :

— مثل ماذا ؟

— عينيه .

فقالت وقد أشرق وجهها بابتسامة :

— آه ، لإنهما مثل عينيك .

فقال في فرح :

— هذه العيون عيوننا .

فقالت وهي تتطلع إليه في حب :

— العيون الزرق .

ومال عليها وأخفى وجهه في شعرها الفاحم وغمغم :

— ورث عنك هذا الشعر الأسود ، سيكون رائعا : عيتان زرقاوان وشعر

كالخمل الحالك السواد .

تألفت عيناها بيريق جذاب وقالت له مداعبة :

— أتجبه يا حسين ؟

فقال فى انفعال وهو يشير إلى ابنه النائم كملاك :

— ما كنت أحسب أنتى سأحب شيئاً فى الوجود حى لهذا الشىء .
واستيقظت أبوته فراحت مشاعر الحنان تتدفق فى جوفه ، فقال وهو شارد
البصر وقد ارتسمت على وجهه الانفعالات التى ترسم على وجهه الغارق فى
حلم بهيج :

— ما ألد أن يصيح الإنسان أباً .

فقالته هدى فى انشراح :

— إنه ذوب روحينا .

قال حسين وهو ينظر إليه مفتتح القواد :

— كبير محمود .

فقالته هدى وقد افتر ثغرها عن أسنانها البيضاء :

— نعم كبير ، أصبح عمره سبعة أيام .

— سبعة أيام ؟ سنحتفل بذلك .

— وماذا نفعل ؟

فقال لها وهو يمرر يده على شعرها :

— ماذا كانت أملك تفعل لو كانت الليلة هنا ؟

فضحكت هدى وقالت :

— كانت تدق له الهاون وتضع شمعة منيرة طوال الليل عند رأسه .

— ولماذا تدق له الهاون ؟

— ليعتاد الجلبة ، فإذا سمع ضوضاء لا يفزع .

— وما الحكمة فى وضع الشمعة عند رأسه ؟

— لتتبر له الطريق إلى السعادة .

فقال وهو منطلق إلى المطبخ :

— سأدق له الهاون ، وأنير له الشمعة .

وعاد وهو يحمل الهاون ويدقه في رفق فينبعث منه رنين خافت ، ودنا من ابنه فألفاه يتشعب فانطلق يدق الهاون في مرح وهدى تتطلع إليه متلهة الوجه ، وفاضت سعادتها فقالت له :

— ألا توصيه ؟

— وبماذا أوصيه ؟

— قل له : اسمع كلام أمك ، اسمع كلام أهلك .

وأغرقت في الضحك ، فقال حسين وهو يتسم :

— سأقول له وإن كنت على يقين أنه لن يفعل .

وجعل حسين يدق الهاون ويوصي ابنه وصلره يعلو ويهبط كرجل ينشد في ذكر ، وارتفعت جلبته المرحه ودوت في الغرفة وهدى ترمقه بعينها الواسعتين وقلبا يرقص في جوفها طربا .
وأصاحت إليه ثم أشارت له أن يكف ، فقال لها وهو مستمر في دق الهون :

— ماذا جرى ؟

— أسمع طرقا على الباب .

فوضع الهاون وذهب ليرى من الطارق في هذه اللحظة التي أدبر فيها النهار ، وما فتح الباب حتى علا ترحييه :

— أهلا وسهلا .. أهلا .

ومدت هدى رأسها وهي في فراشها فلمحت جمالا وهو يلج من الباب وتحت إبطه صندوق كبير ، فأحست عدم راحة وجعلت تسوى غطاءها حتى لا يبدو منها شيء . ودخل عليها وقد انفرج قمه الواسع وقال لها وهو يقعد على كرسي قريب منها :

— حمدا لله على السلامة .

فغمغمت بكلمات لم يتبينها ، ودفع إليها بالصندوق فوضعه على ساقها من فوق الغطاء . ودق قلبها في صدرها وزاغت عيناها ولم تمد يدها لتفتحه ، ونقد صبر حسين ققام وراح يفك الربط الحريرية ، ورفع غطاء الصندوق فوق بصره على مجموعة من الثياب الصغيرة فأخذ يرفعها قطعة قطعة وهو مسرور ، والتفت إلى جمال وقال له :

— شكرا لك على هديتك الرائعة ، ترد لك في الأفراح .

فقال جمال وعيناه تجوبان في وجه هدى :

— إنها هدية متواضعة .

وقام حسين ليقدم لصديقه شيئا ، وغادر الغرفة وتركهما وحيدين فمال جمال نحوها وقال وقد ضيق عينيه :

— هذه الهدية تعيد إلى ذهني ذكرى .

ورمقها بنظرة فاحصة فخيل إليه أنها تضطرب ، فقال في صوت خافت :
— كنت في يوم من أيام سعادتي أسير في شارع قواد الأول أنا وصديقة ، ووقفنا أمام معرض للأزياء ننظر ، وخطر لي خاطر فالتفت إلى صديقتي وقلت لها : « ستعلن ترقيتي بعد يومين ، فماذا تحبين أن أهدي إليك في هذه المناسبة ؟ » فرمقتني بعينها السوداوين الواسعتين في تساؤل كأنما لم تصدق قولي ، فأكدت لها أنني أنوى أن أهدي إليها شيئا في هذه المناسبة ، فأشارت إلى ثوب من الثياب المعروضة .

وترقيت ولم أف بوعدي بل ذهبت ولم تقابل ، وبعد سنوات التقينا وكشفت بعد فوات الأوان أنني خسرت كثيرا ، ومن ذلك اليوم عزمت على أن أهدي إلى أصدقائي ثيابا كلما جاءت مناسبة لعلى أكفر عن خطأ ارتكبته قوض سعادتي .

واضطربت هدى وانتشرت الرهبة في صدرها ، ولم تقو على أن تتلقى نظراته الحارة فأسبلت جفניה ، ورماها بنظرة والهة وقال :

- ليتنى لم أذهب ، ليتنى لم أقطع بغرورى حبل الوداد .
فقال هدى فى صوت خافت مضطرب :
— لعل ذهابك كان من حسن حظها .
فقال فى مرارة .
— ولكنه كان من سوء طالعى .
— لماذا تنبش الماضى ؟ دع الماضى فى أكفانه .
— كيف لا أذكره وقد طعنت فيه قلبى بيدي .
ومس أذنيه صوت حركة فالتفت خلفه فرأى حسينا مقبلا يحمل صينية
عليها فلجان يتصاعد الدخان منه ، فقال له :
— لماذا هذا التعب ؟
— إنه فلجان من المغات .
وتناول جمال الفلجان ، وقبل أن يرفعه إلى شفثيه نظر إلى حسين وقال :
— كنت أذكر لهدى طرفا من غرامى الفاشل .
وارتجفت هدى واتسعت عيناها رعبا ، ولو وقعت عينا حسين عليها
لفطن إلى الرهبة التى لاحت فى وجهها ، ولكنه قال لجمال وهو يتسم :
— لعلك قصصت عليها قصة مثيرة زخرفها خيالك .
فقال جمال وقد لوى شفثه السفلى :
— إنها قصة قلب احترق بلا نار .
فقال حسين وهو يرمق صديقه فى دهش :
— كيف احترق بلا نار ؟
— ترك دون أن يغذى بالحنان حتى تعفن .
فقال حسين همسا :
— لو احترق قلبك ما قفز فى رعونة كلما شم رائحة فتاة .
فقال جمال وقد رفع الفلجان إلى فمه :

— إنه يقفز طلباً للنجاة .

وتبادل الصديقان النظرات وابتسما ، على حين بقيت هدى مطرقة تقاسى
وخز الإحساسات التى انطلقت تزجر فى جوفها كإرد جبار ، كانت تحس
كأن يدا قوية تعصر قلبها ، وتكتم أنفاسها .

وأستأذن جمال وانصرف وبدأ القلق . الذى ران على هدى ينقشع ، وقام
حسين وأخرج شمعة كبيرة ، فقالت هدى وهى تنظر إليه فى عجب :

— من أين جئت بها ؟

— اشتريتها ، اتحسين أنتى لم أذكر أن اليوم هو السابع لمولد محمود ؟
وأحضر قلة ووضع الشمعة فى فمها ، وذهب وأطفأ جميع الأنوار ثم عاد
وقدح عود ثقاب وأضاء الشمعة ، فانبعث ضوءها يبدد ظلام الغرفة وينير
لابنه طريق السعادة .

الناس يغلدون ويروحون على الكورنيش فقد جاء الصيف وهرع المصطافون إلى البحر يغرقون فيه المتاعب والهموم ، وسار حسين وجمال يتحدثان وينعمان بالهواء الذى يهب رخاء ينعش النفوس .

ولمح جمال فتاة رشيقة لا يكاد ثوبها الأبيض الرقيق يخفى مفاتها فراح ينظر إليها ويتبعها بعينه حتى اختفت فى الجموع المتلاطمة المتدفقة على الكورنيش ، فالتفت إلى حسين واستأنف حديثه ، وما سارا خطوات حتى لمح شابة ناهدة الصدر حلوة جذابة فأخذ يتبعها النظر . وقد التمت عيناه بهريق وارتسمت على فمه الواسع ابتسامة ، وجعل حسين يرمقه ثم قال له :

— ما بال صاحب القلب المتعفن يهفو إلى الجمال ؟

فقال جمال وهو يحدق فى فتاة :

— أمتع عيني .

— وقلبك ؟

— مكفن فى جوفى .

— بل يرقص فى رعونة الشباب .

فقال جمال وقد شرد ببصره :

— يخيل لى أن قلبى استنفد حيويته .

— أوهام .

— لم تعد له القدرة على الخفقان ، إنه ينبض لحظات إذا وقعت عيناي على

جمال وسرعان ما يعود إلى الاستكانة والهدوء .

— هذا حالك في الطريق ، فما حالك إذا انفردت بنفسك في الليل ؟

فقال جمال وقد رمى بصره إلى البحر :

— ما أسبل جفني حتى تتابع في ذهني حياقي التي عشتها في القاهرة وياخذ قلبي يرف بين جنبى ، فما عاد يخفق إلا للذكريات .

— وتحتل فكرك فتاة بعينها ؟

— فتاة قابلتها مصادفة في الطريق ، فلما تلاقت أبصارنا قرأت في عينيها نداء ورأيت على شفيتها ابتسامة ترحيب ، فسرت إلى جوارها أحادثها همسا . وما قطعنا أمتارا حتى كنا نتجاذب أطراف الحديث كأنما كان كل منا يعرف الآخر من سنين . وترادفت مقابلاتنا وتكررت سهراتنا ، وفي يوم من الأيام أحسست رغبة في أن أفر منها ، أن أهجرها بعد أن ملأنتى بالنشوة ، كنت كالملكئط الذى يفر من مائدة عامرة تشتهى النفوس . ومرت ثلاث سنين وفي ذات يوم رأيتها أمامى تسير فدق قلبي في قوة وهفت إليها روحى ، وما خلوت بنفسى حتى كانت صورتها تحتل أقطار رأسى وراح طيفها يزورنى في الليل والنهار ، وبرح لى الوجد فعزمت على أن أعود إليها أبثها حبنى وأتمس منها الوصال لأطفىء اللهب المتدلح بين الأحشاء .

قابلتها فأعرضت عني ، حاولت أن أبثها لواعج نفسى فلبجت في الصد ، فراح قلبي ينزف أسى حتى نحمد وكفنه اليأس المرير .

— لعلها خشيت أن تلعب بها كما لعبت بها من سنين ، لو أنك طلبت يدها لجاءت إليك تنفخ بأنفاسها الحارة جمرات قلبك فتأجج نار الصبابة في الضلوع .

فقال جمال وقد أطرق برأسه :

— تزوجت بعد أن هجرتها .

— أكنت تريدها أن تنتظر حبيباً فر بعد أن عب الكأس !

— ليتنى اكتشفت أنى أحبها قبل أن تتزوج .

فقال حسين في صوت عميق :

— إننا لا نشتهي الشيء إلا بعد أن يتسرب من أيدينا .

واضطرب وأحس قلقلًا عيشي في جوفه ، وخشى أن يستسلم لذلك القلق الذى راح يزحف في نفسه فالتفت إلى جمال وقال :

— أكنت تتزوجها لو لم تكن متزوجة ؟

— ما في ذلك شك .

— على الرغم من أنك عرفتها في الطريق ، وعلى الرغم من أنك كنت تمضى الليالى معها ؟

— على الرغم من كل شيء .

— حتى ولو كان لها ماض .

— وماذا يهمنى من ماضيها ؟ إننى أطلب الحاضر . كل ما أبغيه أن تكون لى وأن أحبها وتحبنى .

فقال حسين في فزع :

— هذا مجرد كلام تقوله في سهولة لأنك على يقين من أنك لن تتزوجها ، أما إذا كنت تعلم أنك ستزوجها فما كنت تتفوه بلفظ من هذا ، ما أبشع أن يكون للزوجة ماض .

فقال جمال في هدوء :

— هذه أنانية ، كلنا له ماض فلماذا لا ندع للزوجة ماضيها ؟

فقال حسين وهو يشير له بيده أن يسكت :

— كفى أرجوك ، إن هذا الحديث يهيج نفسى .

فنظر إليه جمال وقد ضيق حلقه وقال :

— ألم تحب قبل أن تتزوج ؟

وانتفض حسين وخفق قلبه في جنون ، وتدفقت دماؤه في عروقه وراحت تجرى في شرايينه كنهز يتدفق من نار ، وقال في ارتباك :

— أبدا .

فغمغم جمال وقد طأطأ بصره :

— مستحيل .

وسارا صامتين . كان كل منهما مشغولا بما يثبت في ذهنه من ذكريات ،
جمال يفكر في ليالى القاهرة وحسين يفكر في عليّة والزمالك والخميلة وجزيرة
الشأى والقناطر الخيرية ، واحتلت رأسه عيناها الزرقاوان وشعرها الذهبى
وابتسامتها الرقيقة فحقق قلبه في قلق وهفت روحه إلى تلك الأيام ، وانطلق
يجتر الذكريات وفي صدره اشتاء .

وقفز إلى مسرح خياله صورة ابنه فأشعت ضياء مشرقا بدد الظلام الذى
ران على كهف صدره وولدت إحساسات حنان بهرت ما عداها من
إحساسات ، فرفع رأسه وقد انبثق من عينيه الحنان ورفقت على شفثيه ابتسامة
شحنت رقة وانشراحا .

وقف يدق الباب دقات متتابعات ، ثم تذكر أن معه مفتاحاً فمد يده في جيبه وأخرجه ، وقبل أن يضعه في الثقب انفتح الباب ولاحت هدى وعلى ذراعها محمود ، فمد يديه وحمله ودخل هو منبسط الأسارير ، وراح يدور بابنه في الردهة وهو يقول في فرح :

— ظهرت حركة التنقلات ، سنغادر الإسكندرية بعد أيام .

فقال هدى في لهفة :

— وإلى أين نذهب ؟

فقال وهو يضم ابنه إليه ويدور به في مرح :

— إلى القاهرة ، فقد نقلت إلى بندر الجيزة .

فصمت هدى وأخذت تجول بعينها في المكان وقد تجهم وجهها ،

فالتفت إليها فعجب لدوئها فقال في استغراب :

— مالى أراك ساهمة ، كأن هذا الخبر لا يسرك ؟

فقال هدى في صوت متهدج :

— كنت أتمنى أن تعود إلى القاهرة ، وكنت أنتظر اليوم الذى تزف فيه إلّى

بشرى العودة إلى أهلنا ، ولكن ما إن سمعت منك أننا سنغادر هذه الدار حتى

انقبض صدرى .

إننى أحبيتها ، أصبحت بضعة منى ، إنها عشت سعادتي ومسرح ذكرياتي ،

عزيز على أن أهجرها .

وسارت مطرقة وهو في أثرها ، حتى دخلت غرفة النوم فأدارت عينها في

(النقاب الأزرق)

المكان وقالت :

— إن قلبي ليهفو إلى كل قطعة هنا ، هذا الكرسي وهذا الصوان وهذه النافذ ، إني لأحمل لكل منها أمتع الذكريات ، فيا طالما قعدت في سكون الليل إلى هذه النافذة أرصد مقدمك وقلبي يدق في وجد وفكري يجرى وراء الرؤى العذاب ، ويا طالما وقعت عيناى على ما أمامى من مشاهد حتى ألفتها ، يخيل إلى أنى لا أطيق أن أعيش بعيدة عن هذا الجو الذى ترتاح إليه نفسى .

فذهب إليها ولف ذراعه حولها وضمها ومحمودا إليه ، وقال لها في رقة :
— إننا بطبعنا نحن إلى ما نحن فيه ونخشى المجهول وإن كان فيه نصرنا .

فقال له وقد افتر ثغرها عن ابتسامة :

— إننى لا أخشى شيئا ما دمت إلى جوارى ولكتنى أحن إلى أرض سعادى ، لن أنسى أبدا أن هنا تفتح قلبي مرتين .

فقال حسين فى استغراب :

— مرتين ؟

فقالت وهى ترنو إليه فى دلال :

— أجل ، مرة لك ومرة لمحمود .

فقال حسين وقد شرد ببصره :

— ما أسرع مرور الزمن ! مرت سستان .

فقالت هدى فى رقة :

— تقضتا كحلم جميل .

وصمتا وراح كل منهما يسعد بالذكريات التى أخذت تطفو على سطح ذهنه ، ومد حسين ببصره إلى الباب وقال فى صوت خافت .

— إنى أرى نفسينا ونحن نلج هذا الباب لأول مرة ، كان الظلام يلف كل شيء ، وكان صدرانا ملتصقين وقلبان يقفزان فى وجد وراحت شفتاى تبثشان عن شفتيك ، وإننى لأرى ليلتنا الأولى فى خيالى واضحة وضوح

النهار ، وإننى لأحس كل عاطفة أحسست بها فى تلك الليلة الرائعة .

ورفع بصره ونظر إلى سقف الغرفة وغمغم :

— ألا ما ألد الذكريات ! .

فقال هدى فى وجد وهى تلور بعينها فى المكان :

— يحز فى نفسى أن أغادر الماضى الحبيب .

— سيأتى يوم يصبح فيه المستقبل ماضيا نذكره فى شوق كما نذكر الآن

ماضيئنا .. من يدرى يا هدى ما ينتجته لنا الزمن فى طياته من سعادة وهناء ؟

وسمع طرقا على الباب فدفع ابنه إليها وهو يقول :

— جاء جمال .. تواعدنا بالأمس على أن نتقابل هنا .

ودخل جمال وذهب إلى غرفة الاستقبال المتواضعة وهو يسأل حسينا

بصوت عال :

— كيف حال محمود اليوم ؟

— بخير .

وأقبلت هدى ومحمود على ذراعها ، فلما وقعت عيناها على جمال أوامأت

له برأسها فرد عليها تحيتها بابتسامة ، ونهض وذهب إليها وأخذ منها ابنها وجعل

يداعبه وهى واقفة ترنو إلى صغيرها الذى أشرق وجهه بابتسامة كانت ندية

على قلبها .

ولم يطق حسين أن يصبر على الإفضاء بالخير الذى شغله طول يومه ،

فنهض وسار حتى وقف إلى جوار صديقه وقال له :

— أبلغك الخبر ؟

فقال جمال وقد اتسعت عيناه :

— أى خبر ؟

— ظهرت حركة التقلات .. وقد نقلت إلى الجيزة .

فقال جمال وهو يدفع محمودا إلى أمه :

— مبارك !

وقعدوا ، وأطرق جمال لحظة ثم قال فى أسى :

— إن هذا النقل يسعدكم إلا أنه يسوءنى .

والفتت عيناه بعينى حسين فرأى فىهما عطفًا ، فغض من بصره وقال فى صوت خافت فىه رنة حزن :

— إننى سيئ الحظ .

والفتت إلى هدى واضطربت أهدابه وقال فى مرارة :

— إذا هبطت على السعادة فررت منها ، وإذا هبطت على السعادة فرت

منى ، عشت هنا وحيدًا أفاسى الكآبة والسأم ، حتى إذا مستنى يد الرحمة وعرفتكم تبددت كآبتى وسكنت الطمأنينة صدرى وأصبحتم سعادتى ، وكأنما عز على زمنى أن أهدأ وأسعد فدبر نقلكم إغاظة لى .

وأطرقت هدى ، وتشاغلّت بمداعبة ابنها وإن كان الاضطراب يلفها .. وأحس حسين عطفًا نحو صديقه فقال مواسيا :

— يعز علينا فراقك ، إنى لأحس فى أعماقى أننا ستتقابل قريبًا فى القاهرة .

ورنا جمال إلى هدى فألفاها تشييح بوجهها عنه ، وحزر أن هذا الحديث يضايقها فقال لينهى الحديث :

— ومتى تسافرون ؟

— يوم الخميس .

— سأمر عليكم لأحملكم إلى المحطة .

وتركهم وانصرف وهدى تتبعه بنظرها وهى تحس لأول مرة راحة لتركها الإسكندرية .

وجاء يوم الخميس وأقبل جمال فى سيارته وحملهم إلى المحطة ، ووقفوا إلى جوار القطار يتحدثون حتى إذا وافى ميعاد الرحيل صافح جمال حسينا فى حرارة ومد يده إلى هدى ، فلما وضعت يدها فى يده ضغط عليها فى وجد

والتمعت عيناه بيريقي أخاذ ، ومال على محمود وطبع على خده قلبية .
ووقف حسين وهدى في النافذة ، وتحرك القطار فأخذ جمال يهز لهما يده
في الهواء مودعا وحسين يرد عليه تحيته يهز يده ، وأشرق وجه هدى بابتسامة
هادئة فقد شعرت كأن كابوسا انزاح عن صدرها .

انسابت السيارة فى شارع الملكة نازلى وفلول النهار تنسحب مدحورة
ومصاييح النور تزاحم بقايا الضياء الذى كان ينقشع عن الأرض قبل أن
يتركها لظلمة الليل ، وحسين ينظر من النافذة وهو يحس راحة ، فقد كانت
عودته تسره وتهز مشاعر الحنان فى نفسه .

والتفت إلى هدى فألفاها تضم محمودا إليها وقد شرد ذهنها وانعكست على
صفحة وجهها آى الغبطة ، فقال فى انفعال :

— أتذكرين يا هدى يوم خروجنا فى مثل هذه الساعة لنسافر إلى
الإسكندرية لا ندرى ما ينتظرنا فى غدنا ؟

فقال هدى وهى تبتسم فى رقة :

— إن مشاهد ذلك اليوم تحتل رأسى وتتابع فى ذهنى فى رقة تفتح لها
نفسى .

— ذهبنا اثنين وعدنا ثلاثة .

فقال وهى تمرر خدها على خد ابنها فى هيام :

— عدنا بالحبيب .

وهنا قلبه فحملة ووضع على ساقه وراح يداعبه وهو نشوان ، ومحمود

ينظر إلى اليمين وإلى الشمال ، فقال هدى :

— إنه يتلفت كالغريب .

فقال حسين وهو يدلك أنفه بأنف ابنه :

— أصبح غريبا مثلنا .



فالتفت إلى هدى فألفاها تضم عمودا إليها ، وقد شرد ذهنها

— لسنا غرباء .. إننا في حيننا .

— يا طالما خطر لي أننا في الأرض غرباء نهم على وجوهنا .

فقال في ثقة :

— ما كان ينبغي أن يخطر لك مثل هذا الخاطر بعد أن جاءنا محمود ، النور

الذى يضيء لنا الطريق .

فرنا إليها وقد أشرق وجهه بابتسامة عذبة ، وظل ينقل عينيه بينها وبين ابنه
وهو غارق في النشوة لا ينبس بكلمة .

ووقف السيارة وهبطا منها ، ورفع حسين بصره وهو خافق القلب ونظر
إلى زوجه ففطن إلى قلقها ، فقال لها :

— ماذا بك ؟

فقال في صوت متهدج :

— مضطربة قليلا .

— ولماذا هذا الاضطراب ؟ لن يأكلوك .

فابتسمت وقالت :

— أنا على يقين من ذلك .

— ما رأيك في أبي ؟ .

— رائع .

— ومتعجبك أمي .

فقال وقد لمعت عيناها :

— يا طول سعادتي لو كانت أملك مثل أبيك .

فقال متظاهرا بالجد :

— بالطبع ليست أمي مثل أبي .

فحدقته بعينها الواسعتين فقال :

— أمي قصيرة بدينة ، وليس لها شارب .

فانفجرت شفتاها عن أسنانها البيضاء وتبخر قلقها وراحت تتقدم في ثقة وهي تصلح ثياب ابنها وتمرر يدها على شعره في رقة .
ودق الباب وقلبه يدق في فرح ، وما مرت لحظات حتى انفرج عن أمة ،
وقعت عيناها عليه فهتفت في حب :

— حسين :

وضمته إلى صدرها العامر بالحنان ، ورأت زوجه فتركته وذهبت إليها
وضمتهما في شوق وقبلتها في حرارة ، والتفتت إلى محمود وقالت وهي تحمله :
— أهلا .. أهلا .

وراحت تمطره بقبلات حنان وتديم النظر إليه في وجد وتغمغم في نشوة :
— هذا يوم النى ، هذا يوم السعد .

وساروا إلى غرفة الاستقبال ، ولم تستطع الأم أن تنتظر حتى تدخلهما
وتذهب لتزف إلى زوجها بشرى حضور ابنها ، فهتفت بصوت عال كله
فرح :

— حسين هنا . حسين جاء .

وأقبل محمود أفندى في ثيابه المتزلية يهرول ، فلما رآته هدى رفت على
شفتها ابتسامة ترحيب ونهضت تستقبله فصافحها متהל الوجه ، ولح
محمودا يعبث في وجه جدته فهفت إليه نفسه وشعر بعواطف رقيقه تتفجر في
صدره وبقلبه يتفتح كزهرة بللها الندى فأخذه من زوجه وقبله وراح يرقصه
وكل خالجه من خوالجه يتسم في انشراح .

وقامت الأم وانسلت من الغرفة خفية ، وغابت بعض الوقت ثم عادت
تحمل صناديق صغيرة مختلفة الحجم ، ودفعت بالصناديق إلى هدى وهي
تقول :

— كنت أشتري لمحمود لعبة في كل مناسبة وأحفظها عندي حتى يجيء ،
وها هو قد جاء .

وراح حسين وزوجه يفتحان الصناديق ويشاهدان اللعب ويتبادلان النظر في غبطة وسرور ، وذهبت الأم إلى حفيدها وعلقت في صدره حلية من الذهب وهي تقول :

— اشتريتها له يوم مولده ، وفكرت يومها أن أبعث بها إليكم ولكنني اشتيت أن أعلقها له بنفسى .

صمتت قليلا وهي ترنو إليه ، ثم قالت :

— جاء كما كنت أتصوره في خيالى .

فقال محمود أفندى وهو ينظر إلى هدى :

— إنه صورة من حسين : العينان الزرقاوان والأنف الدقيق والوجه

المستدير .

وقالت الجدة فى تأكيد :

— لو كنت قابلته فى الطريق قبل أن أراه لدلتنى قلبى على أنه ابن حسين .

والتفت حسين إلى زوجه وقال فى صوت خافت رقيق :

— انتهى الأمر ، ليس لك فيه شىء .

وشغل الجدان بمداعبة الطفل . فمالت هدى على زوجها وقالت همسا :

— انتظر حتى نذهب إلى بيتنا ثم يصبح كله لى .

وابتسما وجعلا يتبادلان النظرات فى وجد ، وراح محمود أفندى يرقص

حفيده مفتر الثغر ويقول :

— أعاد إلّى شبائى ، يخيل إلى أننى أداعب حسينا ، عدت إلى الوراء

سنين .

فقالت زوجه وهي تبتسم :

— ليست سنين كثيرة .

فقال حسين وهو يرمق أباه بطرف عينيه ويتسم فى خبث :

— ليست كثيرة ، خمس وعشرين سنة فحسب . .

فقال محمود أفندي وهو يعبث بذقنه في خد حفيده :
— ما أشبه اليوم بالأمس ! .

وراحت الذكريات الحبيبة تطفو على سطح ذهنه ، فاعتدل في مقعده
ليقص عليهم كما هي عادته تتفا من ذكرياته ، ويشيع بينهم الغبطة والسرور .

الليل يسدل ستوره والهدوء يدثر الزمالك ، وعلية تغدو وتروح في الغرفة
ثم ترتدى في مقعد من المقاعد الكثيرة المتناثرة وما تستقر فيه لحظة حتى تهب قلقة
مضطربة ، وتأخذ في الذهاب والإياب ضيقة الصدر تحس قهرا .

ومررت يدها على وجهها ، وانطلقت إلى النافذة ومدت بصرها إلى النيل
الخاشع وتشاغلت بمراقبة أضواء المصابيح الخافتة المنعكسة على صقال الماء ،
ولكنها عجزت عن أن تحصر فكرها فيما تقع عليه عيناها ، كانت صور معينة
تلح عليها في إصرار وعناد فتضايقها وترهقها .

وارتمت في مقعد قريب من النافذة واستسلمت لأفكارها ، فرأت نفسها
مع إجلال يوم ذهبنا لرؤية تلك التي فضلها حسين عليها ، واحتلت صورة
هدى بقامتها المشوقة وعينيها الواسعتين وشعرها الحالك السواد أقطار رأسها
فأحست قلبها ينزف مقتنا ، وثارت في صدرها عوامل الحقد وفاضت حتى
كادت تكتم أنفاسها فتململت في ضيق ، وأخذت تحاول جاهدة أن تتخلص
من ذلك الكابوس الجاثم على رأسها ولكن هيهات ! فالصور البغيضة تتوافد
على ذهنها توافد الموج النائر المزجر فلا يسعها إلا أن تستكين لها استكانة
الشاطئ الذي يتلقى اللطمات في ذل ، ينتظر في لهفة أن ينحسر الموج عنه .

رأت هدى قادمة تحمل صينية عليها أكواب الشراب ، ورأت نفسها وهي
تناول كوبا وتجرعه فشعرت بغصة وبوخز يخز روحها ويدموع تبلل
مقلتيها ، وبشعة من نار تسربت في حلقها وانتشرت في جوفها فحرقت
أحشاءها ، ولم تستطع أن تصبر على النار المندلعة بين ضلوعها فهبت نائرة

وجعلت تدور في الغرفة وهي تعصر راسها براحتها .
وخطر لها أن ذلك الظلام المسيطر على المكان يعاون خفافيش ذكرياتها أن
ترتع في ليل نفسها ، فانطلقت إلى الرز الكهربي وضغطته في انفعال ، فأنقذت
الثريا وغرقت الغرفة في الضوء الذي بهر عينها وقصر عن أن يهتك السواد
الذي كان يغذى أفكارها وتتفجر منه مشاعرها ، فقد ظلت فريسة للرؤى
الكريهة التي تنكأ جراح نفسها وتذل كبرياءها .

واحتلت ذهنها صورة الزورق وهو ينساب في النيل وحسين إلى جوارها
وإجلال قبالتها تنظر إليهما ، ورأت نفسها وهي تقدم تفاحة إليه ثم تميل
وتقضمها وهي في يده ، ورأته وهو يعد يده في فزع فأحست تضاًؤلاً
وتكورت في ناحية من المقعد وارتفعت حرارتها وتقصد منها العرق .

ووضحت في خيالها صورته وقد ازور عنها فشعرت كأن يدا قوية راحت
تلطمها في قسوة ، فأنت أنه خافته مكلومة خيل إليها أن روحها ذابت فيها ،
فقامت تذرع الغرفة جيئة وذهوباً تلتقط أنفاسها من ثقب إبرة . أحست أنها
لم تعد عليّة التي ينبض قلبها بالحب والحنان ، إنها امرأة أخرى تعفت نفسها
وراح الصديد يجري في عروقها وتلبسها شيطان يهفو إلى الضراوة فشعرت
برغبة شديدة في أن تحطم كل شيء ، أن تقسو على الناس كما قسا عليها الناس .
وعادت صورة هدى وهي مقبلة بالصينية وعليها الأكواب تحتل رأسها
فأخذ صدرها يرتفع وينخفض في غضب ، ورأت نفسها بعين خيالها وهي
تناول الكوب في ثورة وتلقى بما فيه في وجه المرأة التي سلبتها حبها ثم تحطمه
في عنف وتنصرف غاضبة ، فلم ينفس ما جرى في خيالها عن الإحساسات
الأيّمة التي كانت تتصدع لها كبدها فراحت تقبض يديها في انفعال وتصرف
أنيابها في حقد وغيظ .

وبلغ سمعها صوت أقدام تقترب ، فأصلحت ثيابها وتناولت كتاباً وفتحته
وتظاهرت بالقراءة ولكن كل خالجة فيها كانت تنبئ بالثورة العاتية التي

تقاسيها ، ودنا وقع الأقدام ولم ترفع عينها عن الكتاب ، وبلغ أذنيها صوت
إجلال وهي تقول :

— مساء الخير .

فوضعت الكتاب ونظرت فألقت ابنة خالتها متطلقة الوجه مفترية الثغر في
عينها كلام ، فحاولت أن تبدو هادئة ولكن وجهها كان يعكس انفعالاتها
النفسية ، وفطنت إجلال إلى ما تعانیه فاقتربت منها وقالت لها في رقة :

— ماذا بك ؟

فقالت عليّة وهي تسبل عينها وتطرق برأسها :

— لا شيء .

فقالت إجلال وهي تهز رأسها :

— قرأت كل شيء في عينيك ..

فقالت عليّة في صوت خافت لترفه عن نفسها :

— ماذا قرأت ؟

— أمضيت ليلة مسهدة لم تلذوقي فيها النوم ، كنت فيها فريسة لذكريات

عذبتك وأضنتك .

وانقبض صدر عليّة وسكتت ولم تتكلم ، فقالت لها إجلال :

— أليس كذلك ؟ .

فهزت عليّة رأسها موافقة وغمغمت في صوت حزين :

— وما أدراك ؟

— عاد حسين فتكأت عودته جرح قلبك وجددت أشجانك .

قفز قلب عليّة في جنون ورمت يبصرها بعيدا حتى لا ترى إجلال ما في

مقلتيها من شجن ، ومرت لحظات ثم قالت في صوت متهدج :

— ساعني أن عمى استقبلها في داره ، كان يقسم أنها لن تطأ له بيتا أبدا .

— عمك معذور .

فقال عليّ في انفعال :

— كيف !؟

— لا يستطيع أن يغضب ابنه إلى الأبد .

وأطرقت عليّ حزينّة ، فوضعت إجلال يدها على كتفها وقالت لها في

إغراء :

— تعالى أقص عليك قصصا عجيبّة .

فنظرت إليها عليّ في إنكار وقالت :

— عن ماذا ؟

فقال إجلال وهي تبتسم :

— عن تلك التي تزوجها ابن عمك .

وقامت عليّ وسارت نحو النافذة ، وراحت إجلال تروي قصصها وعليّ

تصغى إليها وقد اتسعت عيناها من الدهش لا تكاد تصدق أذنيها .

حسين منهمك في عمله ، فقد غص القسم بعملائه المتجددين الذين لا ينقطع لهم سيل ، ودخل عسكري ودفع إليه برسالة فوضعها أمامه حتى ينتهي من الرجل الذي كان يشرح شكواه في إسهاب وتفصيل .
واستدار الرجل وخرج ، فمد حسين يده وفض الرسالة وراح يقرأ :
عزيزى حسين ..

ترددت كثيرا قبل أن أخط رسالتى هذه أقصرها على التهنئة بعودتك وأتريث حتى أبعث إليك برسالة ثانية أهرك بها لتستيقظ من سباتك وتفتح عينيك لترى ما أنت غارق فيه ، أم أمهد لرسائل القادمة حتى لا تدوى فجأة في أذنيك فتهب من نومك مذعورا . ولما كنت لأحب إزعاجك فقد آثرت أن أهبطك لتلقى ما سأبعث به إليك من حقائق مريرة ، لن أجبهك بها مرة واحدة بل سأجرعك إياها قطرة قطرة ، فإننى أشفق عليك .

ماذا تفعل اليوم والشمس غاربة والنسيم يهب لطيفا ينعش القلوب ويجدد الحياة ؟ ستمكث في البيت ويا طالما مكثت فيه ! فماذا عليك لو أخذت زوجك وانطلقتما إلى الجزيرة وطففتا بمحادثاتهما كعاشقين ، ثم ركبنا زورقا يتهادى بكما في حنان . إنه سيبعث الذكريات الحبيبة في نفس زوجك وما أكثر ذكرياتها عن النيل والجزيرة ! ويجعلها تنفعل . وإن ذلك الانفعال هو الوخر الذى سيوقظك من نومك العميق ، وهو الضياء الذى سيبدد الظلام الذى تعيش فيه .

وإلى رسالتى القادمة أرجو أن تنقشع الغشاوة التى رانت على عينيك

ستين .

* * *

وطوى الرسالة وهو يحس قلقا وراح يتلفت زائع البصر ، وانقبض صدره واستولى عليه ضيق وراح يفكر فيمن بعث إليه هذه الرسالة التي أطلقت عقارب الغيرة في جوفه فأخذت تنهشه وتنضيه ، فلم يهتد إلى أحد فأطرق ولاح في وجهه الأسى العميق .

وهب الشك يعذبه فرأى بعين خياله هدى في زورق في النيل وإلى جوارها عشيق ، فارتجف وأحس خنجرا يطعن قواده ونارا تشوى كبده ، فراح يتلوى من الألم ويزفر في كرب ، ولم يستطع أن يصبر على مشاعر الغضب والضيق والشك والألم التي ضاق بها صدره فقام وغادر مكتبه .

وراح يضرب في طريق ساكن وهو هائج ، وضايقه استسلامه لعواطفه فأخذ يفكر في أمره فألقى نفسه قد ثار لأن مجهولا كتب إليه يتهم زوجه ، فما أدراه أن ما جاء في هذه الرسالة صحيح ؟ لعل شائتا ساءه أن يسعد فكتب له ما كتب ليكدر صفوه وينغص عيشه ويقوض عشه ، وإنه باستسلامه لأوهامه يمكنه مما يريد .

وقاوم الإحساسات التي كانت تمور في جوفه وسلط عليها ضوء عقله حتى كادت تنقشع وتهدأ نفسه ، وفكر في كاتب الرسالة التي بذرت في نفسه بذور الشك فوجده خبيثا سدد إليه سهما مسموما . لو كان يعرف عن زوجه شيئا لكتب به إليه بدلا من أن يدعه فريسة للحدس والتخمين وما تركه يخبط كالغريق . إنه كتب ما كتب في لياقة لا لأنه يشفق عليه بل إمعانا في عذابه ، فما أقسى أن يتركة حائرا لا يدري أين يميل .

خطر له أن يمزق هذه الرسالة الحائرة التي جاءت تسليه هناءته ، فأخرجها من جيبه وهم بتمزيقها ولكنه عاد ورأى أن يحتفظ بها ، فأخرج حافظه نقوده ووضعها فيها وقفل راجعا إلى القسم وقد عزم ألا يفكر في هذه الرسالة التي

(النقاب الأزرق)

أخذته على غرة منه فجعلته يغضب ويثور .

ووافى ميعاد أوبته فركب الأتوبيس ، وما انطلق به حتى ألغى نفسه يفكر في الرسالة وتتحرك عقارب الغيرة فيه ويأخذ الشك يحزّه ويضنيه ، فنزف قلبه مقتا وقلقا وصرف أنيابه في غيظ وضيق .

وتهب عليه نسائم من الرحمة فيأخذ في إقناع نفسه أنه يستسلم لأوهام وإن العقل يدعوه إلى عدم تصديق شيء ما لم يقم عليه برهان ، فكّم من وشاية خربت بيوتا ، وما يكاد يطمئن إلى هذا المنطق ويبدأ حتى تثور فيه زوايع الشك فتقتلع من نفسه ما يخرسه العقل من طمأنينة وهدوء .

ووصل إلى البيت وقد وطن النفس على ألا يلقي إلى هذه الوشاية بالا ، وقعد يتناول غدائه ، وهدى قاعدة أمامه ، وفكر أكثر من مرة في أن يداعبها ولكنه عجز عن أن يخرج ما فكر فيه إلى حيز التنفيذ . ورفع الطعام وبقيا صامتين وهدى تنظر إليه في إنكار ، وأراد أن يقول شيئا ليخرج من ذلك الصمت الثقيل فقال :

— ما رأيك في أن نخرج لتمشى قليلا .

— هيا ، ثم نمر على بيتنا نحضر محمودا .

وخرجا وإذا بقوة تدفعه إلى الذهاب إلى الجزيرة ، فانطلق وفي جوفه قلق ، وركبا سيارة انسابت في شوارع القاهرة وهو سارح الخيال ، وأحس هواء منعشا يداعب وجهه فأفاق إلى نفسه ، والتفت فرأى السيارة تدرج على جسر قصر النيل فأمر السائق أن يقف ، وهبطا وسارا متمهلين هدى تملأ صدرها بالهواء وهو يتفرس في وجهها وقلبه يرتجف .

عرجا على اليسار وانسابا في الشارع الهادئ المطل على النيل ، وما قطعاه فيه خطوات حتى وقعت عيناهما على شاب وفتاة مال رأساهما والتقيا جسماهما ، وسارا خطوات فألغيا تقى وفتاة قد قعدا على السور المنخفض وكل منهما ينظر في عيني رفيقه في هيام ، فصوب حسين إلى زوجه نظرة فاحصة وقال في

صوت مضطرب :

— هذا طريق العشاق .

فانفرج فم هدى عن ابتسامة هادئة أوحى إليه أشياء ، فاشتد وجيب قلبه
ودثره قلق ، واستمر في السير حتى بلغا مكانا رست عنده زوارق صغيرة
فالتفت إليها وقال لها :

— تعالى نركب زورقا .

تريثت قليلا فقال في مرارة :

— أو لعلها ليست لنا ، إنها زوارق العشاق .

وأحست في صوته رنة غريبة لم ترتج لها ، فنظرت إليه وقد اتسعت
عينها ، ثم سارت خلفه حتى إذا بلغا الزورق انتقلا إليه وقعدا في ناحية
والرجل في الناحية الأخرى قد ولاهما ظهره ، وجعل يجذب المجذافين في قوة
فينساب الزورق يشق الماء ، فالتفت حسين إلى هدى وقال لها وقد ضيق
عينيه :

— ما أمتع النزهة في النيل !

وتلفت حوله وقال في صوت يفضح ما يعتمل في جوفه من مشاعر :

— ألا يبعث هذا الزورق الذكريات في نفسك ؟

ورمقها بطرف عينيه فخيّل إليه أنها اضطربت وغاض لونها ، فانقبض
وثارَت شكوكه واستيقظت غيرته وراحت تنهش قلبه ، وسمعها تقول :

— أية ذكريات ؟

فصور له وهمه أنها قالتها في فرع فزاد أساه ! وخطر له أن يقول :
« ذكريات الهوى ، » ولكنه أمسك لسانه ، لم يشأ أن يتورط في شيء قد
يندم عليه فقال لها وهو ينتظر أمامه :

— ذكريات الصبا ، إننى أذكر لما كنت طالبا في المدارس الثانوية جئت
وصديق لى إلى هنا ، وأخذنا زورقا وجعلنا نجذف حتى كلت أيدينا

فقال وعيناها لا تستقران على وجهه :

— لا أذكر أنني ركبت زورقا قبل الآن .

وغاص قلبه في جوفه وثار مشاعره واستولى عليه حزن ، خيل إليه أن صوتها تهدج . إنها تكذب فيما تقول وهو على ثقة من ذلك ، فما كان الأمر ليختلط عليه وقد اعتاد أن يسمع أكاذيب الناس .

وأطرقا ، وشغل كل منهما بأفكاره وإحساساته وقد اتحدت في القلق والاضطراب ، ودار الزورق وراح يدنو من الشاطئ وقد انطوى كل منهما على نفسه ، حتى إذا ارتطم به في رفق قاما كمن استيقظ من حلم بغيض .

ومر يومان وهو في حيرة لا يدري أحقا اضطربت زوجته لما سألها عن ذكرياتها أم كان فريسة لأوهام استبدت به فجعلته يرى ما يوحيه إليه الخيال ، وراح يفكر في حاله فألقى نفسه يحمل المتاعب بيديه ويضعها فوق رأسه ، إنه يصغى إلى همسات الشك ثم يحيلها وهمه إلى رؤى مفزعة تزلزل كيانه وتزعزع ثقته في زوجه وتضرم نار البغض في جوفه . لو أنه وأد هذه الوسوس وما أطلقها ترعى في وجدانه لما أصبح مطية ذلولا لشكه يقوده حيث يقوده .

عزم على أن يستمع لصوت عقله ، إنه يهتف به أن يرحم نفسه من عواطفه التي تثيرها أوهام لا يؤيدها برهان ، ماذا عليه لو تريت قليلا حتى تنبلج لعينه الحقيقة فيسير وهو يعرف إلى أين يهدف لا ينجب في الظلمات كشمم يترنخ ؟ وبدأت سحائب الاضطراب تنقشع عن نفسه وأبحر الغضب تنطلق من صدره ، وراحت الطمأنينة تداعبه في رقة استراح لها ، فذهب إلى عمله وقد رد إلى طبعه وملك زمام أمره .

وراح يصرف عمله وهو هادئ ، وما أن رأى الجندي يدخل عليه وفي يده رسالة يدفعها إليه حتى اضطرب واتسعت عيناه في فزع ، واشتد وجيب قلبه ، ومد يده وتسلم الرسالة وهو يتنفض ، وتريت قليلا يجمع شتات نفسه التي ذهبت شعاعا ، كانت كل خالجة فيه ترتجف ، وفص الرسالة وأخذ يقرأ وهو زائف البصر وصدره في علو وانخفاض :

عزيزى حسين ..

ستقام الليلة حفلة رائعة في « حلمية بالاس » ، فإذا كانت هذه الحفلة لا تعينك فإنها تهم زوجك ، فلطالما أمضت ليالى ساهرة تسعد بالرفيق في ذلك الجو الشاعري الفاتن الذى يحرك المشاعر .

خذها الليلة إلى هناك لتعيد إلى رأسها ألد الذكريات ، وإن وجودك إلى جوارها بثيابك الرسمية سينشط ذهنها ، فما كانت تذهب إلى هناك إلا فى رفقة ذوى النجوم اللامعة على الأكتاف .

وما أسعد زوجك الليلة ! ستملاً رثمتها بالهواء الذى تحبه وتحيا ثانية فى الجو الذى تشتبه ، ستحس إحساس السمك الذى عاد إلى الماء بعد أن خرج منه ، والطير الذى اهتدى إلى عشه بعد طول طواف .

شيء واحد قد يعكر مزاجها ، أنها اعتادت أن تنطلق إلى الحلمية فى سيارات فاخرة ولكنها ستذهب هذه المرة فى الأتوبيس أو فى « تاكسى » على أكثر حال ، ولكن لا بأس فما ينتظرها من مباحج كفيل بأن يحو ما عكر المزاج .

وإلى رسالتى القادمة أتمنى لك سهرة ممتعة تحرك فيك أرق المشاعر وأبهج التصورات .

وكور الرسالة بين أصابعه وأخذ يعصرها فى غضب وقد تقلصت عضلات وجهه ولاح فيه غاية الألم ، إنه يشعر بسخرية الرسالة كأنها إبر تحز روحه وسيياط تمزق جلده ولطومات تنهال على خدبه يثور لها دمه فيتدفق كحمم البركان فى عروقه ، ومرر يده على شعره ثم أخذ يجذبه فى عنف وهو يزفر زفرات حارة من صدر محموم .

وأطرق وقد طاش ليه وملأت المرارة نفسه وأقلت منه زمام عواطفه فصار لها فريسة سهلة ، استسلم للدغات غيرته ولسعات النار التى راحت تكويه ، وأصاخ سمعه إلى الطنين المتبعث فى أعماقه كأنين الكلب الجريح .

وضاق بالمشاعر القاسية التى انفجرت فيه ، فخطر له أن يتطلق إلى داره

يدفع إلى هدى بهذه الرسالة التي زلزلت نفسه وعذبت روحه يسألها عما جاء بها من اتهام بغیض ، وهم بأن يقوم ويعلمو كالمجنون ولكن هامسا من أغوار نفسه هب يزجره وينهاه ويدعوه إلى التريث وإن كان في ذلك عذابه وضنائه ، فبقى في مكانه ضيق الصدر يصرف أنيابه في غيظ شديد .

وفكر في كاتب هذه الرسالة فتحرك مقتته وطغت ثورته وود لو يعرفه ليحطم له وجهه انتقاما لما ناله على يديه من عذاب وقلق وضيق ، ورأى نفسه بعين خياله يسدد الضربات إلى شخص مجهول ويقبض يده من حديد على رقبته ليكتم أنفاسه ويستل روحه ويمزق قلبه المريض ، فجعل يشهق ويزفر في صوت مسموع وقد انبثق العرق من وجهه وضابت عيناه وانعكست على صفحة وجهه أى البغض الدفين .

وانقضى النهار وفي جوفه أتون نار ، وما أتى المساء إلا كان هو وهدى يذرعان الطريق الهادئ المقفر الموصل إلى « حلمية بالاس » وانطلقا صامتين هدى تلتصق به وهو مشغول عنها بظلمة نفسه التي كانت أشد حلكة من الظلام الدامس الذي يلف الكون ، فقد كانت ليلة لم يظهر لها نجوم .

ومرت سيارة ثم تبعها سيارة ، فالتفت إلى زوجه وقال لها بصوت حاول أن يلدو هادئا ولكنه خائنه وتهدج :

— لو كانت لنا سيارة ما قطعنا على الأقدام هذا الطريق الطويل . .

لم تنبس بكلمة وخيل إليه أن عينها التمعتا في الظلام ، واستمر في سيرهما حتى إذا لاحت لعيونهما الأضواء الحمراء قالت هدى في صوت خافت :

— أما كان الأفضل أن نمضي هذه الليلة في بيتنا ؟ ما الذي دعاك إلى التفكير

في هذه السهرة ؟

أحس كأن تيارا كهربيا سرى في جسمه فارتجف ، ما كان ينتظر أن تسأله هذا السؤال ، خيل إليه أنها فطنت إلى أن هناك شيئا فقال في صوت مضطرب :

— قال لى صديق إنك ستجدين هنا متعة فائقة .

وكانا قد بلغا النور فالتفت كل منهما إلى الآخر وفي عينيه قلق ، وضيق من خطوه ونظر في حيرة ، لم يسبق له أن جاء إلى هذا المكان ، وألقى هدى تتقدم فراح يتبعها ، كانت تعرف إلى أين تسير . وأيقن أن هذه ليست أول مرة تطأ فيها قدمها الحلمية فأخذ قلبه ينقبض وينبسط في قوة ، وسرت شعرة من النار من حلقه حتى بلغت صدره .

وقعدا إلى نضد وهو يتفرس في وجه زوجه يحاول أن يقرأ فيه انفعالاتها ، ووقعت عيناه على صدرها فتمنى لو يستطيع أن يفتحه ليرى ما يمكنه من أسرار ويستريح مما هو فيه من شك وحيرة ، وأقبل رجل في ثياب فاخرة ووقف أمامها وانحنى ورفت على شفثيه ابتسامة وهو ينظر إلى هدى ، فدوى قلب حسين في جوفه دويا ، فقد رمقها الرجل بنظرة ترحيب ، إنه يعرفها ! رآها قبل ذلك من غير شك فقد رنا إليها رنوة من رأى شخصا يعرفه بعد طول غياب ، وثار قلقه وكاد ينغمس في تصورات له لولا أن سمع هدى تسأله :

— ماذا تطلب ؟

فقال للرجل الأنيق الواقف أمام زوجه :

— « كاساتا » .

وأدار عينيه في المكان فألقى شاين يلتفتان نحوهما ويتهامسان فخيّل إليه أنهما يتحدثان عنه ، عن الزوج الذى سحبت زوجه إلى أماكن لهوها وهو غارق في بحور الاطمئنان ، فأحس حقا يملؤه وود لو يغادر المكان . وأطفئت الأنوار وانبعث الأنغام الموسيقية عذبة ولكنها كانت في أذنيه أشبه بالعويل ، خيل إليه أنها تنعى إليه زواجه الذى قام على خداع .

أقلعت طمأنينتها واستولى عليها اضطراب وبان في وجهها سهوم ! صار زوجها يلوح لها بالماضى ويخزها من بعيد ، وإن ذلك الوخز يحز في روحها ويزلزل الأرض تحت قدميها ويضخم مخاوفها فيجعلها تنتفض إذا وجه إليها نظرة أو كلمها كلمة وهو يشيح عنها ، باتت قلقة أرقه تخشى ما ينتظرها في غدها ، كانت كالجالس على بركان لا يدري متى يثور .

إنها على يقين من أن زوجها بلغه شيء عنها ولكنها لا تدري ماذا بلغه ، ليته يفتحها في هذا الموضوع لتدافع عن نفسها وتكشف له عن حبا وتزع من صدره بلور الشك قبل أن تمد جذورها فيه .

وفكرت في أن تقول لزوجها إنها لاحظت ذلك الوجوم الذى ران عليه وإنها حزت سبب ما طرأ عليه من تبدل . إن عينيه تنطقان بالشك وحديثه يتسم بالتجريح فماذا عليه لو صارحها بما يظنيه ؟ لو كشف لها نفسه لتكشف له نفسها وتستريح . كانت عازمة على أن تفضي له بكل شيء ولكنها تذكرت طبيعه فأحجمت وقد لفها أسى مرير .

وراحت تفكر فيما بلغه فاهتدت إلى أن ما رفع إليه اتهامات غامضة لا يدعمها دليل . فلو أنه كان على يقين مما بلغه لما بدا في هذه الحيرة ! وأشفقت على نفسها من مفتريات الشائتين فسرى في جوفها حزن ثقیل .

وسمعت طرقا على الباب فقامت في تناقل وسارت وهى تمرر يدها على وجهها ، وفتحت الباب فرأت أمامها علىة تبسم فى انشراح وإلى جوارها إجلال وعلى شفيتها ابتسامتها المازئة ، فامتعضت ولم تحاول أن تخفى

امتعاضها ، ورأت خلفهما فتاة سمراء ما إن تبينتها حتى اضطربت وأحست رأسها يدور ، وفطنت لإجلال إلى المزة التي اعترتها فنظرت إلى عليه وقد انفجرت شفتاها والتمعت عيناها بيريق كان أفصح من حديث .
وسرن إلى غرفة الاستقبال ، عليه هادئة وإجلال نشيطة والفتاة السمراء تتلفت بعيون زائغة ، وتلاقت عيناها بعيني هدى فغضت من بصرها ولاح عليها الارتياك .

والتفتت لإجلال إلى الفتاة السمراء وقالت :
— عديلة هاتم .

ثم التفتت إلى هدى وقالت في رنة ساخرة :
— هدى هاتم .

وامتقع لون هدى ، فأحست عليه راحة وقالت وهي تبتسم :
— أظن أنكما تقابلتما من قبل ؟

ولم تستطع هدى أن تخفى قهرها فقامت دون أن تستأذن وغادرت الغرفة ، والتفتت عديلة إلى إجلال وقالت في غضب :
— قلت لي إننا سنذهب لزيارة صديقة .

فقالت لإجلال وقد اتسعت عيناها ولوت شفتها في استغراب :
— أو ليست هدى صديقة ؟

— لو قلت لي إننا سنذهب إلى هدى ما جئت .

— ما كنت أقول لك ذلك ، كنت أريد أن تراك معنا .

فقالت لها عديلة وهي ترمقها في زراية :
— نلت بغيثك فافرحي .

ورنت ضحكة لإجلال طليقة ، رددتها جنبات الدار وصكت أذن هدى فكان لها وقع النار التي تلمع فؤادها فتململت في غضب ، ثم عادت وهي تحمل صينية عليها أقذاح القهوة باسرة الوجه يضيق صدرها بإحساسات

الحق الشديد .

ورفعت إجلال القدح إلى شفيتها ورشفت منه رشقة ، ثم قالت وهى تنظر

إلى عليّة :

— رأيت هذا الأسبوع فى السينا رواية لطيفة ، شاب كان يعرف فتاة ، كانا يعملان معا فى محل واحد وكانا فى الأمسية يخرجان معا ، وفى يوم قابل فتاة ثانية أحبها وتزوجها وعاش معها ، وذات ليلة قابل صديقه الأولى فاستيقظ حبه واكتشف أنه لم يكن يهوى غيرها ، فترك زوجته وعاد إليها . وأطرت عليّة وبان فى وجهها وجد واستيقظت فى جوفها إحساسات الحب ، وأحست هدى غيظا وتدفت دماؤها حارة فى شرايينها ، وساءها أن تسخر إجلال منها فراحت تجمع شتات نفسها وقالت متصنعة الهدوء :

— هذه الدنيا عجيبة . لى صديقة تزوجت شابا كانت تطمع فيه أخرى ، وراحت صديقتى تعيش هائلة تحسب أن غريمها سلمت بهزيمتها . ومرت الأيام وإذا بصديقتى تكشف أن زوجها قد تبدل ، انتابه قلق وحيرة ، فراحت تبحث حتى اهتدت إلى علة قلقه : إن غريمها لم تستكن للهزيمة ! تحرك حقدنا وهبت غريمتها تدفعها إلى تقويض سعادة منافستها لعلها تشيد على أنقاضها سعادتها ، فراحت تنفث سمومها محاولة تلطيخ سمعة الزوجة ، فما كان من صديقتى إلا أن كاشفت زوجها بماضيها ، لم يكن فيه ما يشين ! كانت كل جريمتها أنها خطبت لرجل قبله ثم فسخت هذه الخطبة ، فأقلق قلق الزوج وانقضت سحائب الكدر ، ورفرف على الزوجين الحب الصافى ، وبقيت غريمتها للغيرة ذلك الغول البغيض الذى أخذ ينهش أحشاءها ويمزق قلبها .

وتجهم وجه عليّة وضاق صدرها وشعرت بقلبها يدمى مقتا ، وخشيت أن تفصح عيناها خبيثة نفسها فأسبلت جفניה أما إجلال فقد ابتسمت ابتسامة هازئة وقالت فى سخرية :

— إن منافسة صديقتك ساذجة ، لعبت لعبتها ولم تكن في يدها الأوراق
الراجعة .

فقال هدى في انفعال :

— لم يكن معها إلا البغض والحقد والغيرة .
— هذه أدوات لا تكفى لإيقاظ زوج غارق في الخديعة ، لا بد من أدوات
أخرى .

فقال هدى في لهفة :

— مثل ماذا ؟

فقال إجلال وهي ترميها بنظرة فاحصة عميقة :
— كان عليها أن تقوض دعوى الزوجة بأن الرجل الذى كان يعشقها كان
خطيبها يوما ، وأن يكون في يدها برهان ماضى تدفع به إلى الزوج الغارق في
سباته .

فقال هدى وهي تنظر نظرات شاردة :

— ما أصعب الحصول على برهان ماضى .

وفطنت إجلال إلى اضطرابها فاعتدلت في راحة ، وقالت وابتسامتها
الهازئة على شفيتها :

— ما أسبر ذلك على من يبحث .

فقال هدى في انفعال :

— والله إنها حرب دنيعة .

فقال إجلال في هدوء قاتل :

— الحرب حرب ، والويل للمغلوب .

وارتفع بكاء طفل فهرعت هدى إلى ابنها وراحت عديلة ترمقها وهي
تهرول وفي عينها شجن ، وطفى ضيق عليه حتى إنها لم تعد تطيق أن تبقى ،
كانت تشعر باختناق فالتفتت إلى إجلال وقالت لها :

— هيا ننصرف .

وهبت وواقفة يلدو الانفعال فى حرركاتها ، فقالت لها إجلال فى هدوء :

— تريشى حتى تعود .

وقعدت عليه وجعلت تعبت فى أصابعها فى انفعال لتشاغل عن النار التى راحت ترعى فى جوفها ، وأقبلت هدى تضم إليها محمودا وقد اكتسى وجهها رقة ، فما أن وقعت عليها عين عليه حتى أحست عقارب الغيرة تتحرك فى جوفها فتململت فى غضب ، ودنت من إجلال فلما وجدتها ترنو إلى ابنها فى تشوف قالت إمعانا فى الكبد :

— إنه صورة من حسين .

ونظرت إجلال ولاحت المزيمة على وجهها ، ولكنها قالت وهى تلوى شفيتها :

— لا يشبه كثيرا .

فقالت هدى وهى تتجه إلى عليه :

— أظن أن نظرة عليه هاتم أصدق .

وهبت عليه كمن لدغتها أفعى ، وغادرت الغرفة غاضبة ، وإجلال فى أثرها ، أما عديلة فقد ذهبت إلى هدى وصافحتها وضغطت على يدها وغمغمت :

— آسفة ، لم أكن أدرى .

وانسلت من الغرفة وهى مطرقة يلوح فى وجهها الأسى والندم .

الليل ساج والهدوء شامل والكون غارق في النوم العميق ، وهدى جالسة إلى جوار سرير ابنتها غائبة عما حولها بالدنيا المضطربة القائمة في خيالها . كانت تفكر في خديث إجلال وتمثلها وهي تبسم في استخفاف ويمشى الخوف في أوصالها ويدق قلبها رهبة ، إنها لتحدث في ثقة من يملك الأوراق الراجعة ، ترى ماذا قالت لهما عديلة ؟

وترأت لها عديلة وقد اتسعت عيناها من الدهش لما تلاقت عيونهما ، ورأتها وهي تسبل جفניה كلما نظرت إليها ، وعاد إلى ذهنها ذلك المشهد الذي حيرها : منظرها وهي مقبلة نحوها وقد ارتسم على وجهها الأسف ، ومصافحتها إياها وضغطها على يدها وهي تغغم : « آسفة ، لم أكن أدري » . وفكرت في كل ذلك فحزرت أن صديقة صباها جاءت وهي لا تدري أنها مقبلة للقياء .

وتدفقت دماء حارة في عروقها وارتفع نبضها فقد راحت تفكر في أن تدافع عن كيانها ، إنها لن تستسلم أبدا للمؤامرة عليه وإجلال ، لن تسمح لهما أن تهدما سعادتها ، إنها تحب زوجها بكل جوارحها ، ستحمل كل شيء في صبر ولن تسمح أن يفلت حبيبها من يدها .

وفكرت فيما تفعله لتقوض ما يريدان ولكنها لم تهتد إلى شيء ، لم تكن تدري ماذا قالت لهما عديلة ، آه لو عرفت ما يعلمان من ماضيها إذن لأمكنها أن تبيع زوجها لتلقى ما يدسانه إليه دون أن يثور ، وأحست أنها في ضباب تفكر دون أن تطمئن إلى رأى ، فملمت في حق وراحت تعصر رأسها

بيدها لعله يرحمها ويجود لها بفكرة .

إن عليّة تعرف شيئا عن أيام الحلمية وقد دست إلى حسين ما تعرف وأوحت إليه بالذهاب إلى هناك ، ولكن ما هو هذا الشيء الذى تعرفه على التحديد ؟ لو كانت تعلمه لدافعت عن نفسها دون أن تفضى إلى حسين بأشياء لا يعلمها فتكون كمن فضح نفسه وهو يحاول أن يدفع عنها شيئا يسيرا .

ولإنها لتعرف أخبار الجزيرة وقد حرضت زوجها على أن يأخذها إلى مسرح ذكرياتها ، ورن في أذنيها صوت حسين وهو يقول : « ألا يبعث هذا الزورق الذكريات في نفسك ؟ » ، وتذكرت أنها قالت له : « لا أذكر أنني ركبت زورقا قبل الآن » فارتجفت وانتابها ضيق ، لأن ذلك الإنكار سيجعل اعترافها عسيرا . إنه لن يصدقها إذا سردت عليه الحقيقة .

عزمت على أن تعترف لزوجها بماضيا وأن تواجه عاصفة غضبه وهى ثابتة معتمصة بحبها له حتى تمر الزويرة بسلام ، ولكن حرصها راح يطالبها بأن تريت حتى تقابل عديلة وتعلم منها ما تعرفه عليّة من ذلك الماضى الذى أصبح يتخيل لها كغول بغيض فاغرفاه الأدرد ليزدردها .

ومس أذنيها صوت مفتاح يدور فى الباب فحقق قلبها فى جوفها وانتشر فى صدرها قلق ، ودخل حسين فلم تستطع أن ترفع إليه بصرها وظلت مطرقة ترجو من أعماقها أن يدنو منها أو يوجه إليها كلمة ، ولكنه أخذ يخلع ثيابه وهو صامت حتى إذا فرغ من استبدال ملابسه ذهب إلى الفراش ونام وقد أولاهها ظهره ، فقامت حزينة وأطفأت النور ونامت فى صمت إلى جواره .

لم تغمض لها عين . أرهفت حواسها وراحت الأفكار القائمة تنجم عليها فتضنيها وبلغ سمعها زفرات زوجها المحمومة فانتابها أسى وأحست كأن خنجرا ينغمس فى قوادها ، وهمت بأن تحدّثه لتخفف عنه كربه ولكنها شعرت بالخوف يطويها ، فلاذت بالصمت وإن شبت فى جوفها ثورة عاتية قاسية .

وصحبا محمود وبكى ، إنه اعتاد أن يصحو في مثل هذه الساعة ليشرب ،
فخفق قلب هدى وتظاهرت بالنوم ، وارتفع بكاء الطفل فتقلب حسين في
الفراش لعل زوجه تستيقظ ولكنها ظلت غارقة في نومها ، وعاد محمود
البكاء فلم يحتمل حسين عويله فنهض ليسقيه .

ونامت هدى على ظهرها وبسطت ذراعها في السرير وأخذت تنظر من
بين أهدابها ، فألفت زوجها يعود فانتظرت أن يدعوها لتسحب ذراعها
وتفسح له مكانا ، ولكنه لم يفعل بل نحى ذراعها ونام على حرف السرير .
وانقضى الليل ولم تذق كثير غمض ، وطلع النهار وأخذت الشمس في
الارتفاع ، فقام حسين من فراشه وذهب إلى ثيابه يرتديها ، وهدى ترقبه من
بين أهدابها لا تبدي حراكا متظاهرة بالنوم لتقى نفسها لقاء جافا كذلك اللقاء
البغيض الذى تم في جوف الليل .

ذهب حسين فنهضت هدى تتأهب للخروج لتقابل عديلة وتضع حدا
لهذا النفور الكريه ، إنها لم تعد تحتمل هذه الحياة التى جفاها الاطمئنان والهدوء ،
وارتدت ثيابها وانطلقت تساورها أفكار وتداعبها أحلام ، كانت تترجح بين
الخوف والأمل لا يستقر لها قرار ، وبلغت دار صديقتها القديمة فراحت ترقى
الدرج وقد انداح في جوفها الاضطراب .

وفتح الباب وظهرت عديلة في ثوب بذله منزلى ، فلما رأت هدى أمامها
قالت لها وهى تمد لها يدها :

— لو لم تأتى للذهبت إليك .

وسارتا وهدى تلتفت في قلق حتى دخلتا غرفة متواضعة ، فقالت عديلة :

— آسفة ، لم أكن أدرى .

ف نظرت هدى إليها في اهتمام وقالت لها فى صوت مرتعش :

— ماذا حدث ؟

فقالت عديلة وقد خففت بصرها :

— زارتنى إجلال مع صديقة لى منذ شهر ، وما انتهت زيارتها حتى دعتنى فى إلحاح إلى أن أزورها ولم تتركنى حتى حددت لها موعدا ، وفى الموعد المضروب ذهبت إليها فغمرتنى بظرفها ، وترادفت مقابلاتنا وتشعب حديثنا ، وفى لباقة جذبتنى للحديث عنك ، أصبح كل حديثنا يدور حول الأيام التى أمضيها معا أنا وأنت ، ودعتنى إلى زيارة خالتها فى الزمالك فذهبت معها ، ومن ذلك الوقت أصبحنا تتلاقى هنا .

كنا نتحدث عنك ، وبعد فوات الأوان عرفت كل شىء ، عرفت أن عليّة ابنة عم حسين وأنها كانت تطمع فى أن تتزوجه ، فلما هجرها امتلا قلبها حقدا وتمنت أن تقضى عليك ، لو كانت وحدها لركنت إلى اليأس ولكن إجلال كانت توجع نار حقدها ، إنها مأكرة أمكر من ثغلب .

فقالت هدى فى ثورة :

— يريدان أن يهدما سعادتى ولكنى لن أدعهما تقوصان عشى ، سأدافع عن حبنى ، لن أستسلم لهما أبدا .

وصمتت وصدرها يعلو وينخفض وعديلة ترنو إليها فى إشفاق دون أن تنبس بكلمة ، وهذأت قليلا فقالت فى صوت خافت شحن رقة :

— عزيز على أن يتألم حسين ، إنه الرجل الوحيد الذى خفق له فؤادى ، إنه أحب إلى من روحى ، أحبه يا عديلة من كل قلبى ، يحز فى نفسى أن أسبب له الألم والعذاب .

وصمتت قليلا ثم رفعت وجهها وقالت فى انفعال :

— محمود ما ذنبه ؟ ماذا تجنى إجلال من تشريده ؟ لا لن أستسلم لهما أبدا ، سأعترف الليلة لزوجى ، سأقول له كل شىء ، سأقول له إننى فعلت ما فعلت قبل أن أعرفه قبل أن يخفق بحبه فؤادى ، إنه سيقهم ، إنه سيقدر ، إنه سيعفو ، وأنا على ثقة من ذلك ، أليس كذلك يا عديلة ؟

ولزمت عديلة الصمت ، فقالت هدى وقد اتسعت عيناها :

— ماذا قلت لهما ؟

فقلت عديلة وهى تشيح بوجهها عنها فى أسى :

— كل شىء .

فقلت هدى فى خوف :

— كل شىء ؟

فقلت عديلة فى مرارة :

— لا أحب أن أخدعك ، لم يبق عندى ما أخفيه .

فقامت هدى وانصرفت تجر رجليها كحيوان جريح يقطر دما .

كان يرفع رأسه وينظر أمامه بين الفينة والفينة ، إنه لا يستطيع أن يقبل على عمله ، كان ينتظر في كل لحظة أن يدخل عليه الجندي ويدفع إليه برسالة ، وكان الاضطراب يستولى عليه ويان في وجهه ضيق ، إنه يحس في أعماقه مرارة ويرقب في قلق أن تصل إليه رسالة واضحة تخرجه من ذلك الضباب الذي يعيش فيه .

الغموض الذي يكتفه يحيره ، إنه يقاسي من اتهامات وجهت إلى زوجته ، وجهت من مجهول ، وإن وهمه ليؤكد أن لهذه الاتهامات من الحقيقة نصيبا ، ولكن ما مقدار ذلك النصيب ؟ ليته يعثر على دليل قوى يريجه مما يقاسي من عذاب . أصبحت حياته عبئا ثقيلا لا يرى فيها إلا أبغض التصورات ، إنه ليتمنى أن يصحو على الواقع وإن كان أليما فألمه لن يصل إلى مبلغ ما هو فيه من كرب وبلاء .

وتلفت في الغرفة بعين زائغة ، ثم استأنف عمله وهو شارد اللب مبجل الفكر ، ومس أذنيه وقع أقدام فانتبه وقد اتسعت عيناه فلمح الجندي يتقدم إليه وفي يده رسالته ، فخفق قلبه وجرت دماؤه دفاقة في عروقه وأحس حرارة تنبثق في جوفه ، وقدم إليه الجندي الرسالة فتناولها وهو يضطرب وفضها في سرعة ، وراح يقرأ في لهفة وقلبه دائب الخفقان :

عزيزي حسين :

من سخرية القدر أن أكتب إليك — أنا الذي تمنى أن يكون آخر من يعرف — رسالتى هذه لأفتح عينيك على مهزلة زواجك التى سجلت في لوح

الزمن بمداد النفاق ، القلم يضطرب في يدي والأسى يملاً جوانحي ولا أشعر
نحوك في هذه الساعة إلا بالاشفاق ، فقد كنت ضحية مؤامرة مأكرة دبرت
في خبث ودهاء .

ليتك سمعت مأساة زواجك من فم صديقة من خدعتك ، وهي التي
نسجت معها الشباك حتى سقطت فيها راضيا ناعم البال ، فأرحتني بما أقاسي
من عذاب ، وأحطت بأطرافها فقد كانت تسرد حوادثها في طلاقة
وإسهاب ، وما أحسب أنني أستطيع أن أنقل إليك في سطور ما حدثتنا به في
جلسات ، فقد كانت قصة زواجك مدار الحديث ليالي وأياما .

ذهبت في ليلة من ليالي يوم الخميس لزيارة خالتك كما كانت عادتلك أيام
كنت طالبا ، فوجدت عندها فتاة ما إن رأتك حتى أسدلت على وجهها نقابا
شفافا وأطرقت في حياء ، ولم تمكث بعد ذلك طويلا بل استأذنت وانصرفت
في دلال وأنت تتبعها بعينيك ، وما عدت إلى دارك حتى جعلت تفكر في هذه
الفتاة الخجول التي تضرجت وجتهاها بلون الدم .

وترادفت المقابلات في بيت خالتك وتبادلتما النظرات ثم الكلمات ، وقبل
أن أسرد بقية القصة التي تظن أنك أكثر الناس معرفة بها — وأنت واهم في هذا
الظن — أرى أن تعود معا إلى الوراء نقلب الصفحات التي طواها الزمان .
الدنيا ليل والطريق ساكن ، وسيارة فاخرة تنساب متسللة في الظلام وقد
استرخى في مقعدها الأمامي فتى وفتاة ، الفتى يميل على الفتاة يلف ذراعه
حولها ويضمها في وجد ويقبلها في اشتها . وانطلقت السيارة حتى غرقت في
النور المنبعث من « حلمية بالاس » ، ففتح بابها وهبط منها ضابط من الجيش
على كتفه ثلاثة نجوم ، وتبعته فتاة ممشوقة القامة واسعة العينين في خديها
غمازتان سوداء الشعر ووضعت ذراعها في ذراعه ودلفا إلى الداخل ، فلما
لحهما الخدم أسرعوا إليهما ورحبوا بهما فقد كانا من رواد كل ليلة ، وكان
الجميع يعلمون أنهما عشيقان .

هذه خطوط آخر قصة من قصص الهوى الطليق الذى غرقت فيه الفتاة ، فلنقلب صفحات الزمن لنعود إلى ما قبل ذلك فى طريق من طرقات الجزيرة الهادئة . يسير ضابط بوليس على كتفه نجمان وإلى جواره فتاة ممشوقة القامة واسعة العينين فى خلدتها غمازتان ، إنها نفس الفتاة . إنه ينظر إليها وفى عينيه رغبة وعلى شفثيه ابتسامة اشتها ، انطلقا يتهاامسان حتى إذا بلغا المكان الذى ترسو الزوارق عنده هبطا مرحين واستقلا زورقا ، وانساب الزورق يتهادى على سطح الماء حتى إذا بعدا عن الأنظار اقترب الجسمان والتصق الصدران والتحمت الشفاه ، فلما عادا من نزهتهما السعيدة سارا صامتين وقد انطقاً البريق الذى كان يتألق فى العيون .

ولو قلبنا صفحات الزمن لنقرأ ما سطر فيه قبل ذلك لألفينا أفاصيص غرامية مثيرة كل أبطالها ضباط ، وبطلتها واحدة هى نفس الفتاة الممشوقة القامة الواسعة العينين التى يزين وجهها غمازتان ، كانت أميتها أن تزوج ضابطا فكانت إذا قابلت منهم أحدا ارتمت عليه فيسير معها حتى إذا ارتوى من النبع المتاح وعب منه حتى امتلأ ذهب دون أن يعود .

سأعها ما كان يعقب كل حب من هجران ، وقابلت صديقتها فشكت إليها ما لاقت من نكران ، وأطرقتا تفكران فهدهتما التجارب إلى أن الرجال ينفرون من الصيد السهل المنال ، ما من شئ يؤجج نار الصباية فيهم كالخفر والدلال . فعزمت الفتاة التى كانت غمرة من عين ضابط تكفى لك حصونها — إن كان لها حصون — أن تتسربل بالحياء .

انطلقتا تتقبان عن فريسة ، وكان من سوء حظك أن لمحكك وأنت ذاهب إلى خالتك فتبعتك . لاحظتنا أنك لا تزال طالبا فتبادلنا النظرات وابتسمتا ، فما أيسر سلب لب طالب لم ير بعد الحياة .

وابتدأت الخيوط تنسج حولك فى مهارة ، تعرفت بمخالك وعرفت عنك أشياء ، عرفت أن الحياء يستهويك فابتسمت فى جوفها ، كانت قد عزمت

على أن تمثل ذلك الدور فإذا بالقدر يسوق إليها من يعجب به .
ترددت على خالك وأبدت لها الأدب والانطواء ، ووافت الليلة التي
عزمت أن تنتظرك فيها حتى تأتى ، وترينت وبالغت في زينتها وصديقتها ترنو
إليها وقد انفجرت في جوفها ضحكات ساخرات . وأخذنا تراجعان الدور
الجديد الذى ستلعبه البطلة التى تخصصت قبل ذلك فى أدوار الاستهتار ،
وتأهبت الفتاة للخروج وقبل أن تنصرف للقياك قالت لها صديقتها هازئة :
— إذا دخل عليك فأسدلى على وجهك النقاب .

فخرجت وهى تبتسم ، وراودتها الفكرة مرات حتى استحوذت عليها ،
فلما لحتك مقبلا أطرقت فى خفر وقد أسدلت على وجهها النقاب ، إنه لقاء
مسرحى مفعم بالسحر والجمال ، لقاء يهز المشاعر ويفتح براعم القلب .
واستولى عليك ذلك المشهد فأخذت تفكر فيه ، وما وافى يوم الخميس
حتى هرعت إلى دار خالك لتحظى برؤية ذات النقاب . ومرت الأيام ، وفى
ذات ليلة ذهبت إلى بيت خالك ترقب وفود من شغلكت ، وتقضت
الساعات ولم يظهر لها خيال ، فانصرفت وأنت تفكر فيما دعاها إلى الغياب ،
وخمنت الأسباب ولكن السبب الحقيقى لم يخطر لك على بال !
كانت قادمة لرؤيتك ، وقفزت إلى رأس صديقتها فكرة فنصحتها أن
تتخلف تلك الليلة لتؤجج فى جوفك نار الغرام !

وتقابلتما فى الظلام بعيدا عن عيون الناس ، فى ذلك الجو الذى تستيقظ فيه
مشاعر الوداد ، فخفق قلبك نشوة ودثرك اضطراب ، وتدققت الدماء حارة
فى شرايينك فحسبت أنك أصبت بالغرام ، وما دار بخلدك أن ما كنت تحسه
إن هو إلا إحساس شاب يافع قابل فتاة .

وفى ذات ليلة تواعدتما على اللقاء فى صبيحة اليوم التالى وفى حديقة
الحيوان ، وأكدت أنها ستقابلك هناك ، كانت عازمة على أن توافيك فى الميعاد
ولكن صديقتها نصحتها ألا تفعل لإيها مك أنها ليست طليقة تذهب أينما تشاء !

يا للسخرية ! أصبح عسيرا على من تعود إلى بيتها مع الفجر أن تذهب إلى
حديقة الحيوان في وضح النهار !

كان زواجا خداعا في خداع ، أسس على بحر من النفاق فكان مآله أن
ينهار ، فانج بروحك من هذا الهوان واغسل يديك من العار .

وطوى الرسالة وامتقع لونه وانهرت أنفاسه ودارت الدنيا به ، وأحس
نفسه تقيحت وجرى الصديد في عروقه وملاً المقت جوفه فشر بكره لكل
شيء حتى نفسه ، وثارت فيه مشاعر الغضب فجعل يصرف أنيابه وهو يئن
أنيئا مكنوما من النار التي راحت تلسع روحه وتنكل به .

واحتلت ذهنه صورة هدى وقد أسدلت على وجهها نقابا من الرياء ،
فانفجر الحنق فيه وبصق في الهواء وراح يصفع خيالها في ذهنه ويلطمه ويركله
وقد تلبد وجهه بسحائب قائمة من الغضب ، ولم يطق أن يصبر على مشاعره
الناثرة التي راحت تمور في أقطار نفسه مزججة مدمرة فقام كوحش هائج
وانطلق كالعاصفة ذاهبا إلى داره : ليصفى مع من خدعته الحساب .

وركب « الأتوبيس » وهو يتململ في عصبية ويتلفت في جنون ، فقد
كان في صدره أتون نار ، وانسابت السيارة فخيّل إليه أنها واقفة لا تسير ،
وخطر له أكثر من مرة أن يهبط منها ويعلو في الطريق ولكنه كان يترث في
ضيق ويعاود الإغراق في أفكاره التي كانت تعبث به كقصاصة ورق تعابثها
الرياح .

وبلغ داره وقلبه ينزف مقتا ، وراح يصعد في الدرج قفزا كأنما كان
يطارده شيطان ، وطرق الباب في عنف طرقات متتابعات ، وفتح الباب
ونظرت هدى إليه فانخلع قلبها ، كان الشرر يتطاير من عينيه وقد انعكس على
وجهه أثر ما يقاسيه من انفعالات .

ودخل وصدره في علو وانخفاض ، لم يستطع أن ينطق بحرف ولكنه ألقى

نفسه يخرج الرسالة ويلقى بها في وجهها ، وخيل إليه أن الشياطين تتراقص
أمام عينيه وراح هامس بهمس في أعماقه يحرضه على البطش بها ولكنه دار على
عقبه وخرج يكاد صدره يتفجر من الغيظ .

قرأت هدى الرسالة فانهارت على أقرب مقعد خائفة القوى تحس يدا قوية تكتم أنفاسها ، وأخذت تتلفت في ذهول محطمة النفس ومشاعر الحزن ترعى بين ضلوعها ، وكادت تستسلم ليأسها وإذ بصورة عليا وهي تبتسم تلوح لخياها فانقبضت وجرت دماؤها حارة في عروقها ، ودبت الحياة في قلبها فاشتد وجيبه وراح يتدقق بالحق والثورة .

عزمت على ألا تدع عليا تهدم حياتها ، ستدافع عن حبها ، ستثور .. ستبكي .. ستوسل ، ولن تدع حبيبها يفلت كالماء من بين أصابعها ، إنه الرجل الوحيد الذى يحبه قلبها وأصبحت تشتبه كل جارحة من جوارحها ، إذا كان عيبها أنها عرفت قبله غيره فما كان ذلك ذنبها ، ساق إليها القدر رجالا لم يعرف الوفاء طريقه إلى أفقدهم ، وكأما شاء أن يعوضها عن غدرهم خيرا فساقه إليها فتعلق به قلبها ، ليته كان أول من عرفته إذن لاستراحت مما هي فيه من ضنى وكرب .

وراحت تغدو وتروح في الغرفة كنمرة مزججة غارقة في أفكارها ، إنها ليست أول فتاة عرفت رجلا قبل زوجها ، فما أكثر النساء المتزوجات السعيدات اللاتي أصبحت صبورهن قبورا تضم ذكرياتهن الخالية ، فما بال الزمن يختارها وحدها لينبش ماضيها وإن كانت في أعماقها تمقت ما يحتويه ، إنها عليا عز عليها أن تراها هاتئة فدفعها حقدتها إلى أن تسلط العدسات المكبرة على ماضيها ليبدو مهولا مفرعا .

وخطر لها أن تعترف لزوجها بماضيها كما هو ، لا كما جاء في الرسالة التي

تقطر سما ، ولكنها فزعت من ذلك الخاطر فزوجها لن يغفر لها ذلك الماضي وإن كان خارجا عن إرادتها ، إنه يريد لها نقيّة نقاء الملائكة ، فإذا ما صور له وهمه أن شائبة تشوبها حطمها وإن كان في تحطيمها شقاؤه . فقرر أنها على أن تنكر ذلك الماضي وأن تقتلع من صدر زوجها جذور الشك التي بدأت تتغلغل في أعماقه ، هذه هي سبيلها الوحيدة لتحفظ به وليس لها سبيل سواها .

وأطرت تنسّق أفكارها وتمتق دفاعها ، ومر الوقت والخواطر تتزاحم في رأسها والمشاعر المتباينة تغلو وتروح بين حناياها ، وكأنما جوفها انقلب مسرحا لإحساسات الخوف والقلق والاضطرب ، ووافى الليل وهي في تفكيرها ، ومس أذنيها صوت مفتاح يدور في الباب فارتجفت واتسعت عيناها وراح قلبها يرفرف كجناح حمامة وشعرت بقواها تمخور ، لكنها راحت تقاوم ضعفها وتلملم أطراف شجاعتها ، ولحنته قادما مريد الوجه يلوح عليه هم الثقيل ، فقامت وهي ترتعد ودنت منه وقالت في صوت خافت مرتعش :

— ما كان يدور بخلدی يوما أن تصدق مثل هذا الهراء .

فرماها بنظر شرر وقال وهو يتنفّض :

— ما كان يدور بخلدی يوما أن يصدر منك هذا العار .

فقال في انفعال :

— هذا اقتراء .

فقال وهو يشيح بوجهه عنها :

— كفى رياء .

فقال في حنق :

— سرى فيك السم الذي دسسته ابنة عمك الشائنة .

فنظر إليها في دهش كأنما تفتحت عيناها على شيء لم يكن يراه .

وقال خافق القوادر :

— ما لابنة عمی وهذا البلاء ؟



أخذت تتلفت في ذهول محطمة النفس ، ومشاعر الحزن ترعى بين ضلوعها .

— رأيتني هائلة فعذبتها غيرتها ، ودفعتها إلى الإساءة إلى من سلبت منها من كانت تهواه .

فقال في سخرية مريرة :

— ما أبرعه من دفاع !

وأحست خنجرا يطعن قوادها فكادت تترنخ ، ولكنها ملكت زمام أمرها وقالت وقد ضيق عينها الواسعتين في غضب :

— إن كل ما جاء في هذه الرسالة اختلاق .

فرمقها بعينين يتطاير منهما الشرر وقال متحديا — والنقاب ؟ ..
وتخلفك عن الحضور ليلة انتظرتك في حديقة الحيوان ؟ كل هذا اختلاق !
كفى نفاقا ، مزقت قلبي وجعلت زواجي مادة يتندر بها في المجتمعات .

فقالت في غضب في صوت عال :

— يحز في نفسي أن تردد ما جاء في الرسالة الدنيئة ، ويل لعلية ، حسبت أنها يخبئها وبإلباس الأوهام ثوب الحقيقة قادرة على أن توغر على صدرك ، هيهات ، إنني أقدر منها على أن أكشف لعبتها وأن أقوض تدبيرها وأنقض غزلها .

دفعتها غيرتها أن تنقب ورأى ، فراحت تبحث عن من يعرفني حتى اهتدت إلى صديقة لي عرفت منها بعض أشياء ..

ولم يدعها تتم حديثها بل قال في ثورة :

— عرفت منها غرام الجزيرة وغرام الحلمية ، وخبك الذي ملأ البقاع .

فقالت والدماء تتدفق إلى رأسها كالنار :

— هذا كذب وبهتان ، هذا افتراء ، عرفت منها أنني أسدلت على وجهي

نقابا لما وقعت عليك عيناى ، و ..

وغمغم في حق :

— نقاب من الرياء .

واسترسلت في حديثها مبهورة الأنفاس كأنما لم تسمع ما قال :
— وعرفت أنني تخلفت عن الذهاب إلى بيت خالتك تلك الليلة ، وإلى
حديقة الحيوان ، فأخذت هذه الوقائع وراحت تنسج عليها أكاذيب
ومفتريات ، أكاذيب لم تحدث إلا في خيالها الساخط .
فقال وقد أولاهها ظهره :

— كنت أصدقك لو لم يحدثني قلبي .. انزاحت الغشاوة عن عيني في تلك
الليلة التي ذهبنا فيها إلى هناك ، كانت النظرات التي صوبت إليك أفصح من
الكلام ، كانت كلها تعترف بأنك لست غريبة عنها ، كان في عيون الخدم
ترحيب بك ، وكثر الهمس حولنا حتى خيل إلى أن اسمك يتردد على كل
الشفاه .

فخفق قلبها في صدرها وزاغت عيناها وقالت في يأس :
— إنك غارق في الأوهام .

فقال وهو يتحرك ليغادر الغرفة وقد خفض بصره :
— بل غارق في العار .

وحاولت أن تتكلم فلم يسعفها لسانها وأسعفتها دموعها فارتمت على
الفراش تبكى وتنتحب ، وانسل من الحجرة محطم النفس ممزق القلب قد
اندلعت في أحشائه النار . وقعد على مقعد وهو ضيق الصدر مكروب يرصد
طلوع النهار .

الظلام يسربل نفسه واليوم ينثق في كهف صدره وخناجر حادة تنخر روحه وعقارب الغضب تنهش فؤاده فيدمى مقتا ، ومشاعر نائرة تمور بين ضلوعه تضيق صدره ، وبدا لعينيه كل شيء بغیضا ، وشعر بكره لكل ما حوله حتى الكرسي الذي كان يجلس عليه لم يسلم من انفعاله ، كان يضغط على مسنده بذراعه حتى كاد يتحطم .

وأخذ يزفر زفرات مكروية من صدر محموم ، والرؤى البغيضة تنجم على ذهنه فتزيد في أساه ، وأحس الرغبة في أن يبصق على الدنيا ولكنه عاد واحتقر هذه الرغبة فما كانت الدنيا تساوى بصقة ، وأطرق مهموما والأشجان تراق في جوفه والنار بين جوانحه تتلظى .

وصك أذنيه وقع أقدام ثقيلة فظل غارقا في همومه لم يرفع رأسه ، وارتطم كعب الحذاء بكعب الحذاء فنظر من بين أهدايه فلمح الجندي يمد له يده برسالة ، فاستولى عليه غضب شديد وخطر له أن يقوم يحطم رأس نذير السوء ولكنه مد يده وجذب الرسالة في ثورة وأخذ يفوضها في انفعال وأخرج ما بها فإذا بصورة ما إن وقعت عليها عيناه حتى فغرفاه وشعر بقلبه ينقبض حزنا ، كانت صورة هدى وإلى جوارها صديقه جمال يرنو إليها في هيام ، وجعل ينظر إليها وهو يكاد يموت كمدا فما شك يوما أن صديقه الذي كان يمضي معه الأمسية عشيق صباها .

وقرأ ما كتب على الصورة : « ضابط من الجيش ! » فأحس طعم الصاب في فيه ، فما كان في حاجة إلى هذه السخرية المريرة ليزيد أساه ، وتوافدت

الذكريات إلى رأسه وهو مغمى بالحق والثورة ، وما كانت مغلفة بالضباب كما كانت تخطر في ذهنه بل كانت واضحة وضوح النهار .

إنه يرى جمالا وهو قاعد في مكانه أمام محل الحلوى يتسم له في رياء ويدعوه ليشراكة في جلسته ، وما كان صادقا في وده بل كان خداعا كل هدفه أن يتعرف به ليقوده إلى زوجه التي كانت عشيقته في يوم من الأيام !

ورأى نفسه وهو غارق في غفلته على شاطئ البحر وهدى وجمال يتبادلان النظرات ، وكأنما لم يكفهما لغة اللحاظ فراحا يتناجيان ، أخذ جمال يقص عليه قصة غرامة من زوجه وهو يصفى إليه في اهتمام . أه لو كان يدري لقام وكنتم أنفاسه .

وأمسى صدره يكاد يتفجر فتهد في قوة ليلفظ الحمم التي تشوى جوفه ، انثالت على رأسه الأفكار فرأى نفسه بعين خياله وهو في سيارة جمال وزوجه إلى جواره ، وأحس سكيناً تمزق قلبه ومرارة تشيع في أقطار نفسه فقد سخر الزمن وأركبه نفس السيارة الفاخرة التي كانت تنطلق بزوجه كل ليلة إلى « حلمية بالاس » .

وخطر له خاطر ألهب رأسه ، ترى كم مرة احتوتها هذه السيارة وهما غارقان في النشوة ؟ وتلمل في ثورة وراح يضرب رأسه بكفه في حنق كأنما يريد أن يقتل هذه الفكرة البشعة التي حركت غيرته فأخذت تعصف به ، وتعذبه عذابا ما أقساه .

واستكان لأفكاره التي راحت تلهبه بسياطها دون شفقة ، وقفز إلى رأسه خاطر سدّد إلى قلبه طعنة نجلاء ، إنه كان يغيب عن داره في القسم الليلي الطوال فما أدراه أن هدى وجمالا كانا يتتزان تلك الليالي ليعبا معا من النبع الحرام ؟ وتقيحت نفسه وشعر بالصيد يجري في عروقه وبالحقد الآسن يملأ جوانحه ، فجعل يمرر يده على وجهه في انفعال وصدره يعلو وينخفض في قوة كبير حداد .

وتمثلت هدى فى خياله واقفة ترنو إليه فى فزع وهو يصرخ بها أن تغادر داره التى ملأها نفاقا ، فصعد الدم كأنما ينفجر مع ينبوع حار يشوى وجهه وأخذ قلبه ينقبض وينبسط فى عنف ، وأحس ضراوة تبحاها فهب كليت جريج وراح يدور فى الغرفة باسر الوجه يعن من قساوة المشاعر التى كانت تنهش جوفه .

ووافى ميعاد أوبته إلى البيت فانطلق كالعاصفة المزججة ، وركب « الأتوبيس » وهو يتلوى من الألم كثعبان ، وأخذ يفكر فيما يفعله لما تقع عيناه على من خدعته وجعلته مادة للتندر فى المجتمعات فخطر له أن يلطمها فى قسوة ، وأن يمزق شعرها ، أن يسيل دماءها لعل الدموع التى تسكبها تطفئ النار المتأججة بين ضلوعه ، ولكنه عاد وهجر ذلك الخاطر فكل ما بينه وبينها قد انتهى . كان يعيش فى بركة راكدة نتنة وقد خرج منها ، فما الذى يجنيه إذا تلفت خلفه وبصق فى اشتمزاز .

وقف أمام البيت لحظة ينظر إليه فى ازدراء ، ثم تقدم وقلبه يدوى دويا ورأسه يدور والدنيا تتراقص أمام عينيه ، وصعد الدرج كوحش يطارد فريسة ، وطرق الباب فى عنف فلما انفتح ورأى هدى دفعها فى صدرها ثم لطمها بالصورة وألقى بها فى وجهها ، واندفع كالزوبعة داخلا دون أن ينبس بكلمة .

انقبضت هدى وسرى الخوف فى أوصالها ، ونظرت إلى الصورة الملقاة على الأرض بعيون زائغة ، ثم مالت تلتقطها وقد مشت رعدة فى أوصالها ، ورَفَعَتها وأدامت إليها النظر فلما رأت صورتها وجمالها وهما ينظران وفى عيونهما حب ، انهارت على أقرب مقعد مبهورة الأنفاس .

وفتح الصوان قرأى ملابسها ، فأخذ يلتمها فى ثورة ويلقى بها على الأرض فى حق ، وجعل ينقب حتى عثر على « ألبوم » الصور فراح يقلبه فى انفعال ، فلما وجد صورة جمال التى أهداها فى الواقع إلى هدى يوم تظاهر بإهدائها إليه جذبها فى غضب ومزقها وهو يشهق ويزفر فى صوت مسموع ، وألقى بها

قصاصات على ملابس هدى التى فرشت أرض الغرفة .
وارتفع بكاء محمود فتسمر فى مكانه ، وتدفقت من قلبه مشاعر الحنان
فراحت تراحم أمواج البغضاء ، وسار إلى سرير ابنه وهو مأخوذ ، وأدام
النظر إليه فكادت تبرق فى حلكة نفسه بارقة ضياء ، وكأنما عزأ عليه أن
يتسرب إلى روحه شعاع فخطر لذهنه خاطر أفزع ، ما أدراه أن محمودا ابنه
وليس ابن جمال ؟ إنه لا يستطيع أن يجزم بينوته ، فلم يحمله فى بطنه بل حملته
امرأة خداعة لا يعرف لها قرار . وارتفع من أعماقه صراخ كان أعلى من صراخ
الطفل الذى لج فى البكاء .

ورانت غشاوة على عينيه فأسودت الدنيا أمامه ، وهم بأن يغادر الغرفة
وهو يكاد يموت من الغم ، وبقي محمود فى عويله فأحس حسين فى الغضب
بدموع الطفل تهز وترا من أوتار الحنان ، فمد يده ووضع الحلمة الصناعية فى
فم ابنه وخرج من الغرفة وقد لاح فى وجهه آيات الثورة والكرب .
ولمحت هدى وهو فى طريقه إلى الباب فانطلقت تعترض طريقه ، وقبل أن
تفتح فمها بكلمة نحاسها بيده وهو يرميها بنظرة احتقار ، فراحت تهتف فى
توسل :

— حسين ! .. حسين ! .

وسار وهى تنظر إليه من بين دموعها ثم انهارت على الأرض فى يأس ،
كانت على يقين من أنه ذهب ولن يعود .

انساب « الأتوبيس » في الزمالك وحسين ينظر من نافذته إلى الطريق ، وقعت عيناه على منزل عمه الغارق في السكون فحقق قلبه ، وظل يديم النظر إليه حتى اختفى عن عينيه وهو يحس إحساس من يرنو إلى شيء عزيز ، ثم اعتدل في مقعده وراح يفكر في نفسه وهو يعجب من أمره ، كان يحسب أن قلبه قد همد بعد أن مزقه تلك الرسالة التي فتحت عينيه على الحقيقة المريرة . ولكن ما انقضت أسابيع على انفصاله عن زوجته حتى التأمت جراحه وأخذ قلبه ينبض لرؤية دار عمه ! .

واحتلت عليه تفكيره فراحت تتراءى لعين خياله بوجهها الدقيق الناصع البياض وشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين فتسرى فيه إحساسات الحب وينبض قلبه بالحياة ، وأخذت الذكريات تغد مشرقة إلى ذهنه فيستقبلها في ترحاب .

وعاد إلى داره وهو يعيش في نفسه ، وما وافى الليل وساد الغرفة ظلام حتى أضىء مسرح رأسه وراحت تتوافد عليه مواكب الذكريات ، ورأى نفسه وعلية وهما طفلان وهى تجذبه من يده إلى الخميطة ثم تقبله في فرح ، فأحس طعم القبلة شهية على شفثيه وانتشت لها روحه ونفق لها قلبه خفقات ، وخطرت له مشاهد حديقة الحيوان ، رأى عليه وهى تصوب إليه عينها الزرقاوين الصافيتين وقد شع منهما حب ، ورأى نفسيهما وهما يسيران في مسالك الحديقة جنباً إلى جنب فهفت روحه إلى تلك الأيام .

ولج في التصورات فرأى نفسه وهو ممدد في سريره في مستشفى الكلية بعد

أن سقط عن ظهر حصانه وعلية إلى جواره تواسيه ، فشعر بالحنان ينسكب بين حناياه ، واسترسل في تصوراته فألقى نفسه بمد ذراعه يلفها حول خصرها ويجذبها إليه في وجد ويقبلها في حرارة وهيام .

وامتزجت الذكريات بالتصورات فأخذت الرؤى العذاب تخطر في ذهنه وهو مفعم بالنشوة ، وما كشف النهار عن وجهه حتى كان حسين قد استقر رأيه على أن يذهب إلى الزمالك ليرى من أحبا من أعماقه منذ صباه .

ووقف أمام المرأة يصلح هندامه ويديم التطلع إلى صورته ، ثم خرج وفي صدره قلق وقلبه دائب الحققان ، كان يحس كأنما كان ذاهبا ليوافى حبيبته لأول لقاء . وانطلق وفي صدره حرارة حتى إذا بلغ دار عمه تمهل في سيره وثارث مشاعره وأخذ قواده يقفز في رعونة ، وجعل يتلفت في حيرة واضطراب .

وانتظر حتى يفرخ روعه ولكن كان خوفه في ازدياد ، فوج من الباب وقلبه يدوى دويا وعيناه تلوران لا تستقران على شيء ، وتقدم حتى إذا وصل إلى الدرج الرخامي أخذ يرقاه في بطء وثقل وقد دثرته رهبة . وراحت الأفكار تتزاحم في رأسه فأحس إحساسات التضائل التي كانت نفسه كلما جاء لزيارة ابنة عمه ، وزاد في تضائله أن خطر له أنها هي التي أرسلت إليه تلك الرسالة التي فتحت عينيه على كل ما كان يعيش فيه من نفاق فانقبض صدره وأحس قهرا ، وشعر بقوة القاهرة ترغمه على أن يدور على عقيقه وأن ينصرف من حيث جاء فنكص مهزوماً وخرج من الباب منكس الرأس وقد انداح في جوفه الحزن ، وراح يضرب في الطريق وهو حيران يحس في أعماقه إحساس من يعيش غريبا في الحياة .

- ثلاثة رجال في حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب في أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

السيرة النبوية

في عشرين جزءا
للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

رقم الإيداع ٢٨٠٣

الترقيم الدولي ٩ — ٢٣٨ — ٣١٦ — ٩٧٧.

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

الثلث : ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه